من أعلام المسلمين ومشاهيرهم -

مِقلماإثا للمضا

يم/

مِنْ
أ!ه،،م!)
أ-ضنهَلَإمزِأ لم!إبم!صبربرفيِز!ص

،11
ل!،،بدمي،
0َ،،ص،لم
عرصلي!ار/،

لِلْعَلَّامَة اءِلامَاهإ لمبّدإئَي المحسَنعَلي المحسني ا فَّدويّ
1333 - .؟ع ا لو

اعرار
س!بم!الما!

!
!

!تَا

د مشق -

!دله للآئيَولصلرق!ريهصَ!

ا ل!ه آ لافئث
3 ؟2 1 ص - 3 0 0 2
هى

اللا!اا!

لِ!اعَةِ وًا!رِوَاَ لؤزِيغ

د مَننئق - حَليُوقي ء جَاد ة ألن سينا - بنَاء ابحَاب
ص . ب ' 1 1 3 - ها تف 1 7 87 35 ؟ 3 - . 0 2 8 ؟ 3 ؟ - فاحس ا 3 .
0 3 2 ؟ ؟
ليروت - ل!بم أبي حئد يى خلف ر توسالأصئل! - بنَاء المحديقة
ص . ب ' 18 3 6 / 113 - تلفاصى 7 5 8 7 1 8 1 . - 9 5 هـ2 . 3 3 .

متصمة ال!

الحمد دلّه ، وسلام على جميع رسله ، وعلى مَن دعا بدعوتهم واقتفى أثرهم من العلماء العاملين ، والمؤمنين الصادقين المجاهدين.
وبعد:
فإن كثيراً من الكتاب والادباء - فضلاً عن الشاذين في اللغات والمتطفلين على الآَداب - يَعتبرون موضوعَ التعريف برجل مِن ذوي الشأن والخطر، وترجمة حياته ووصفه من أسهل الأغراض الأدبية ، والمواد الكتابية ، مع أ ن
وصف شخصية أو ترجمة إنسان ليست من السهولة والبساطة بالدرجة التي
يتصوَّرونها ، فإن ذلك يحتاج إلى عدَة مؤهلات ، كما يضع العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي -رحمه اللّه - شروطاً جديدة لهذا الفن لكتابة
التراجم ، ومنها ما يلي:
ا - أن يتوافر عند الكتابة وجود دافع نبيل ، ورغبة مُلحَة تنبع من القلب، من تجاوب مع فكرة ، أو استجابة لنداء الضمير ، أو دفاع عن كرامة مهضومة،
وحق سليب ، أو رد لاعتبار ، او وفاء بفضل ، أو إعجاب بجمال أو كمال ، فإن الكتابة إذا تجرَدت عن هذه العوامل كانت أشبه برسم خشبي جامد.
2- المعرفة الشخصية الواعية الناقدة ، إذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة فهي من أقوى المؤهلات ، وإلا فعلى الدراسة الأمينة وتتبع الاخبار ، وأن تقوم بينهما صلة من الصلات التي تحث على تتبع الأخبار ، والتعرف على الخصائص.
3- الاقتدار على البيان والتعبير ، وتملك ثروة لغوية ، وكلمات مميزة فاصلة.
4 - الدقة والامانة والشعور بالمسؤولية والقدرة على تفصيل اللباس على قدر قامة المترجم له.

مقدمة

5 - أن يعرف - المترجم - أن للكلمات درجة حرارة وبرودة (س!عدا 4،ع! 9 ولص!4)،
فلا توضع كلمة ذات حرارة مرتفعة مكان كلمة ذات حرارة منخفضة ، فضلاً
عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة ، ولا يسخى بكلمة
تعطي صورة هائلة من العطمة والكمال ، أو النبوغ والذكاء ، أو الخلق
الحسن ، والسيرة العالية أو العلم الغزير لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها
التوسط والاقتصاد ، ثم يضعه في طبقته ويحدد اختصاصه وتميزه في فن من
الفنون أو موضوع من الموضوعات . وبهذا يُشير العلامة - رحمه اللّه - إلى
صعوبة الكتابة عن الشخصيات ودقتها ، وهذه حفيقة واضحة لمن جرب وعانى
مشقاتها ، خاصة إذا كانت الشخصية المكتوب عنها ذات جهود كبيرة ومآثر
جليلة في مجالات متنوعة نظرية وعملية.
إليك يا عزيزي القارىء هذا الكتاب المحتوي على تلك المقالات التي
جاد بها قلم العلامة - رحمه اللّه - عن أعلام المسلمين ومشاهيرهم قديماً
وحديثاً في مناسبات مختلفة وفترات متقطعة ، مراعياً تلك الشروط التي مرت
آنفاً ، والتي قد تطول بينها الفجوة ولكن تربطها وحدة ، وهي وحدة الشهادة
بالحق وأداء الأمانة ، والوفاء لصاحب الفضل ، والحث على الانتفاع والاتباع .
أسأل اللّه أن ينفع بهذا الكتاب ، ويتقبل جهدي المتواضع في إعداده
خالصاً لوجهه ، إنه سميع مجيب.
حيدر أباد 12 / 3/ 0 0 0 2 م المعتز باللّه تعالى

م!امح مر حياة
العلاَّمة الإمام السيّد ابي الحسن الندوي

اسمه ونسبه وأسرته:
. علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى
عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد اللّه المحض ، بن الحسن
(المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
رضي اللّه عنهم ، أول من استوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع
الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (677 هـ) .
. أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسم!ني الذي استحق بجدارة لقب
" ابن خلكان الهند " لمؤلفه الفيم " نزهة الخواطر " في ثماني مجلدات عن
اعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبعَ أخيراً باسم "

ميلاده ونشأته:
. أبصرَ النورَ في 6 محرم 333 اهـالموافق عام 914 ام بقرية " تكية كلان " الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .
. بدأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دخل في الكُتَاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .
. توفي أبوه عام 341 اهـ(923 ام) وكان عمره يتراوح آنذاك بين

التاسعة والعاشرة ، فتوتى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الاكبر الدكتور عبد العلي
الحسني الذي كان يدرس انذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .
. بدا دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام 924 ام ، وتخرّج عليه مستفهـيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّع فيه
وتخصَّمىَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مفدمه إلى
ندوة العلماء عام 930 ام .
. التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام 927 ام ، ولم يتجاوز عمره انذاك الاربعة عشر عاماً ، وكان اصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة
فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً
تعتبر في القمَّة في اللغة العربية والأردوية ، مقَا اعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثففة بالثقافة العصرية ، وتعفَم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ
والأدب والفكر.
. التحق بدار العلوم - ندوة العلماء عام 929 ام وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن ابي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع
شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس الحَفسير لكامل القرآن الكريم على العلآمة المفسر المشهور
أحمد علي اللأَّهوري في لاهور عام 351 اهـ/932 ام ، وحضر دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن

جهوده العلمية ونشاطاته الدعوية:

. انخرَطَ في سلك التدريس من عام 934 ام ، وعُيِّنَ أستاذأ في دار العلوم

ملامح من حياة العلأَمة الإمام أبي الحسن الندوي
العلماء استفاد من الصحف والمجلأت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا
عرَّفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وادبائها ومفكريها عن كثب،
واستفاد ايضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب
والزعماء السياسيين.
. قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام 939 ام ، تعرَّف فيها
على الشيخ المربّي العارف باللّه عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير
الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته،
وبقيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقَّى التربية الروحية من
الشيخ عبد القادر الراي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأسَّى بالشيخ
محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى
ز!اً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه
الديني في الهند وخارجها.
. ألسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم
والسنة النبوية عام 943 ام ، وألسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين
والهندوس عام 951 ام ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم -ندوة
العلماء في لكهنؤ عام 959 ام .
. عُيِّنَ اميناً عاماً لدارالعلوم ندوة العلماء عام 961 ام ، واستمر في هذا
المنصب حتى وفاته - رحمه اللّه - .
. شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام
960 ام ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام
964 ام ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام
972 ام .
اهمّ مؤلفاته:
. نشِرَ له أول مقال بالعربية في مجفة " المنار " للعلاّمة السيِّد رسيد رضا
المصري عام 931 ام حول شخصية الامام السثد أحمد بن عرفان الشهيد وكان

. ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام 937 ام يحمل اسمه " سيرة أحمد
شهيد " ونالَ قبولًا عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .
. بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَر أوّل كتاب فيها
بعنوان " مختارات من أدب العرب "ء عام 0 194 ، و" قصص النبيين " للأطفال
و" القراءة الراشدة " عام 944 ام . وقررت جميع هذ 5 الكتب في مقرّرات
جامعات البلدان العربية والهندية.
9 أم ألّف كتابه المشهور ةإ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " عام
44 . دعيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام 956 ام ، والفى
محاضهـرات بعنوان " التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي " نشرت
بعد ذلك في شكل كتاب مستفلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم " رجال
الفكر والدعوة في الإسلام " .
. ألَفَ كتابه حول القاديانية بعنوان " القادياني والقاديانية " عام 958 ام ،
وكتابه " الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية " عام
965 ام وكتابه " الأركان الأربعة " عام 967 ام ، و " السيرة النبوية " عام
976 ام ، و " العقيدة والعبادة والسلوك " عام 980 ام و " المرتضى " في
سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام 988 ام .
. شارك في تحرير مجلة " الضياء " العربية الصادرة من دار العلوم - ندوة
العلماء عام 932 ام ومجلّة " الندوة " الأردوية الصادرة منها أيضاً عام

وكذلك أشرف على مجلّة " البعث الإسلامي " العربية الصادرة منذ عام 955 ام
وجريدة " الرائد " العربية الصادرة منذ عام 959 ام ومجلة " تعمير حيات "
الأردوية الصادرة منذ عام 963 ام ، وكلها تصدر من دار العلوم - ندوة العلماء

رحلا ته:

. سافَرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى اللّه بالحكمة والموعظة
الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة
وبالعمل الإيجابيئ البئاء في كل مجال ، جؤَاباً للآَفاق في سبيل الله،

تقدير وتكريم:
. انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواَ مراسلاَ لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في مياديق الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها.
. اختير عضواَ في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام 1962 .
. اختير عضواَ في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام 971 ام .
. اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية بمام 1980 م ، دمؤتَفه القيم " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " .

1) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب "رحلات العلأمة ابي الحسن علي الندوي محاضراته - مشاهداته - لقاءاته - انطباعاته " . جمع وترتيب وتعليق

. منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الاداب من جامعة كشمير
عام
981 ام .
10 اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن
عام 983 ام .
. اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية
وللبحث
والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .
. اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض)
عام
984 ام .
. اقيمت ندوة ادبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه
المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام
999 ام في
إستانبول " تركية " .
. اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام 419
اهـلخدماته الجليلة
ومآَثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّم إليه
الجائزة ولي العهد
لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد
المكتوم .

الامين العام لدار العلوم - ندوة العلماء (التي أخذت صفة
العالمية منذ
ترأس امانتها ، وتفوَّقتْ على معظم جامعات العالم التي تَهْتم
بشؤون

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية
(الرياض) .
رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (
الهند) .

رئيس هيعة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.
رئيس هيعة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .
عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
عضو المجلس التأسيسي الاعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالفاهرة .
عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.
عضو مجمع اللغة العربية بالفاهرة .
عضو مجمع اللغة العربية الأردني.
بالأ عصو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة اَل! البيت)
عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .
عضو المجلس الاستشاري الاعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد
(باكستان)

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .
. وعدا ذلك توئى العلاَّمة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات
الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في
العالم الإسلامي وخارجه.
توفي - رحمه اللّه - يوم الجمعة في 23 من شهر رمضان المبارك 420 اهـ
وكان اخر يوم من شهر ديسمبر 999 ام . فغربت شمس القرن العشرين . توفي
في بلدة رائي بريلي الواقعة على مسافة 60 كيلومتراً من بلدة لكهنؤ ، اغتسل
لصلاة الجمعة ، وأمر طالباً من طلابه أن يقرأ عليه سورة الكهف ، وما أ ن
انتهت سورة الكهف حتى فاضت روحه . إنا للّه وإنا إليه راجعون . تغمده اللّه

العالم عليه صلاة الغائب في الحرمين الشريفين في 27 رمضان بعد صلاة
(1)

1) انظر كتاب المؤلف "أبوالحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية
الأديب " ، للاطلاع على حياة العلأَمة الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة
الإسلامية ومنهجه فيها ، وأعماله القيمة في مجال الأدب الإسلامي ،

ا!مالم محمد بر إسمالمحيلى البخاو؟ وكتابه صحيحح البخاو؟+،
الحديث والسنة ودورهما فيى الصيانة عبن التحريف

الحمد دته ربِّ العالمين ، والصَلاة والشَلام على سئد الأنبياء والمرسلين،
وخاتم النبيين محمدِ وآله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ؟،ءودعا-
بدعوتهم إلى يوم الدِّين.
ميزة الرسول الأعظم !، وقيمة الحديث ، ودوره في إبراز هذه الميزة :
اما بعد : فإن الرسول الأعظم ع!يم هو الشخصية الفريدة -من بين الرسل
والعظماء - التي نعرف عنها كل دقيقِ وجليلى ، ونعرف عنها من دقائق الاخلاق
والعادات ، والميول والرغبات ، والقول والعمل ما لا نعرفه عن كثير من
الشخصيات التي مضت قريبأ ، بل عن الشخصيات المعاصرة أحيانأ ، وذلك
كلُى بفضل " الحديث " الذي سجل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة.
لفد اعتادت الامم الفديمة والدِّيانات أن تصوََر أنبياءها ، وأن تنحت لهم

1) هذا البحث قذَمه العلأمة الندوي في مؤتمر حول الإمام البخاري المنعقد في 23 و 24
من شهر اكتوبر سنة 993 ام في مدينة سمرقند ، ثم نشر البحث

ويشاهد فعله ، ويدرس سيرته ، فكان ضياع هذه الثروة - لا سمج الله بذلك-
كارثةً لا تفذَر ، وخسارةً لا تعوَّض .
حركة جمع الحديث وتدوينه التي لا نظيرلها:
قد قئض النّه لهذا العمل الجليل فوجاً من طلبة للعلم يعدُّون بالاَلاف ،
ويمتازون بعلوِّ همتهم ، وشدَة نشاطهم ، وقوَّة احتمالهم وصبرهم ، وقوَّة
ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفَّق سيلهم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم
وعقولهم الرغبة الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفاً حال بينهم وبين
الشهوات ، فطاروا في الآفاق ، ونقَبوا في البلاد في البحث عن الروايات

دور الحديث في تقويم الأمة وبقائها على المنهج المطلوب :
ثم إنَ الحديث ميزان يستطيع المصلحون في كلِّ عصرٍ أن يزنوا فيه أعمال
هذه الأمة ، واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة
ولا يتأتَى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين
الحديث ، الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه
واله وسلبم إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بدَ منها في السنن الإلهية،
" وَمَا مُحَمَّد إِلَآرَسُولم قَذ ظَت مِن قَئلِهَ اَلرسُل !و أ آل عمران : 4 14 ، " إِنَكَ مَيِّتٌ وَإِنَهُم
مًتتوُنَ " أ الزمر : 30، فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة

1) ليرجع في ذلك إلى كتب التاريخ والسير ، والكتب التي ألفت في تاريخ تدوين

" لَّقَذ كاَنَ لَكُخ فِى رَسُولِ اَلمحهِ أشُؤ حَسَنَة " أ الأحزاب : 1 2) وبقوله : " قُل إن كُنمُز تُجونَ اَلنَهَ فَاَئيعُوفي يُخبِئكُمُ اَلنَهُ " أ آل عمران : 31) والذي يطلبه الإنسان ويستمدُّ منه الثفة والقوَّة في الحياة ، ويقتنع بأنَ تطبيق الأحكام الدِّينية على الحياة ميسوو وواقع.

مصدر قوة وميزان عدل :
ثم إنَّ الحديث زاخرٌ بالحياة ، والقؤَة ، والتأثير الذي لم يزل يبعث على
الإنتاج ، والزهد ، والتَّقوى ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ،
وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كلِّ عصير وبلد ، من رفع راية
الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع ، والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا
إلى الدِّين الخالص والإسلام الصحيج ، لذلك كلِّه كان الحديث من حاجات
هذه الأمة الأساسية ، وكان لا بدَّ من تفييده ، وتسجيله ، وحفظه ، ونشره .
منزلة الإمام محمد بن اسماعيل البخاريّ في فنِّ الحديث وعبقريته:
من أعجب ما روي في ذلك هو ما يرويه أبو احمد بن عدي الحافظ عن
الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب الجامع الصحيح ، قال : سمعت
عدَّة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قَدم بغداد ،
فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى معة
حديث ، فقلبوا متونها وأحاديثها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آَخر،

الأحاديث المفلوبة ففال : " لا أعرفه " فسأله عن آخر ، فقال : " لا أعرفه"
فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : " لا أعرفه " ثم انتدب الثالث ، والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم
من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاريُّ لا يزيدهم على أن يقول : " لا أعرفه " فلما عرف أنَّهم قد فرغوا التفت إلى الأول ، فقال : أما حديثك
الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث ، والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فردَ كلَّ متنٍ إلى
إسناده ، وكل إسنادٍ إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل.
قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة ، " قلت : هنا يخضع للبخاري ، فما العجب من ردِّه الخطأ إلى الصواب ، فإنه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرَّةٍ واحدةٍ " .
مزية الجامع الصحح للبخاري وفضله ، وعناية الأمة به تلقياً ، وروايةً، وشرحاً وتدريساً:

ولا نعرف كتاباً من كتب البشر - في المكتبة الدّينية العالمية - تناوله
العلماء والمؤلفون بالشرح والتحشية والتعليق مثل ما تناولوا كتاب هذا الإمام
الجليل ؟ الذي هو أصحُّ الكتب بعد كتاب اللّه ، وقد كان الشرح والتعليق هو
المجال العلميُ الذي تظهر فيه عناية العلماء والمؤلفين في العصور الفديمة،
ومقياس اهتمامهم بأثرٍ علمي ، فكان أكثر الكتب شروحاً وتعليفات هو أعظم
المؤلفات تقديراً ، وأعلاها منزلةً ، وأكثرها شهرةً ، وكان أقلُّ الكتب شروحاً
وتعليقاً أخملها ذكراً ، وأقعدها شهرةً وصيتاً ، فيبقى مطموراً

في المساحة الأرضية المكانية ، وعلى القرن الاول إلى القرن الثالث عشر
-على الأقلِّ - في مساحتها التاريخية الزمانية ، فقد بلغ عدد شروحه
والتعليقات عليه إلى مئة وواحدٍ وثلاثين كتاباً (131) وقد يكون العدد أكثر
من هذا ، فقد كان هذ! الاستفصاء مؤسساً على " كشف الظنون " للجلبي،
و" مفتاح السعادة " لطاش كبرى زاده ، و" إتحاف النبلاء " و" الديباج
المذهب " و" نيل الابتهاج " ومقدمات الشروح المشهورة التي كانت في
متناول يده ، و " الثقافة الإسلامية في الهند "(1) للعلامة عبد الحي الحسني
مدير ندوة العلماء الأسبق ، (م 341 اهـ) وبعض دراساته ، وتتبعاته
الفردية ، ولا شكَّ أنَّ العالم الإسلاميَّ أوسع مما تخيله الجغرافيون ، والتاريخ
الإسلاميَّ العلمي أغنى مما دونه المؤرخون ، وفي الزوايا خبايا لم تقع عليها
عين ، ولم تطلع عليها الشمس.
وإن كتاب " فتح الباري " للعلاّمة ابن حجر العسقلاني الذي يقع في ثلاثة
عشر مجلداً ضخماً ومقدمةً مبسوطةً تكاد تكون مكتبةً مستقلةً في علوم
الحديث ، كتاب لا يوجد له نظير في مكتبات الدِّيانات والملل ، وإنَّ لهذه
الأمة الإسلاميَّة أن تفتخر بهذا الأثر العلمي الخالد ، وتفدِّمه إلى

(1) صدرت له طبعتان من مجمع اللغة العربية

فيها عليه العنكبوت ، وساد عليه الظلام ، وانقطعت روايته ، وتوقفت
دراسته ، وعبث به العابثون ، وتصرَف فيه الخائنون المحرَفون ، وقد تفرد
الجامع الصحيح بهذه الميزة بعد كتاب اللّه ، فقد أخذ هذا الكتاب عن مؤلفه
تسعون ألفاً من الرواة والحفاظ ، وتسلسل نفله وروايته حتى انتهى هذا الكتاب
الى مؤلفه ، وبلغ حدَ التواتر في شهرته وصحَة نقله ، ونسبته

مزية الأبواب والتراجم ولطائفها ودقائقها:
ومما تفرَّر عن المشتغلين بصناعة الحديث تدريساً ، وتصنيفأ ، وشرحأ
وتحقيقاً أنَّ الائواب والتراجم في هذا الكتاب من أدقِّ البحوث والمطالب،
ومن أعمقها غوراً ، وأبعدها مدىً ، حتى اشتهر بين العلماء أنَّ فقه البخاري
في تراجمه ، وأصبج دلك شعاراً لهذا الكتاب يتميَّز به عن أقرانه الصِّحا!
على جلالة قدرها ، وفخامة شأنها ، وأصبح مقياساً لفطنة العلماء ، وتوقد
ذكائهم ، وسيلان ذهنهم ، وبعد غورهم ، واقتدارهم على فهم هذا الكتاب
الجليل ، وحلِّ غوامضه ، وفتج أغلاقه ، والتوضُل إلى مقاصد المؤلف،
لا يشهد لمؤلف او مدرِّس ببراعة في العلم وتفوُّق في التدريس

ولذلك عني بهذا الموضوع العلماء قديماً وحديثاً ، وأجالوا فيه قداحهم،
وأركضوا في هذا السباق جيادهم ، واعتصروا في ذلك عقولهم الراجحة،

الشعراء مثل تعمّق شراح الجامع الصحيج ، والمشتغلين بتدريسه في فهم
مفاصد المؤلف ، وشرح كلامه.
ولا نعرف - على طول اشتغالنا بالتاريخ العلمي - مؤلفاً من مؤلفات
العلماء ، أو الحكماء عني به رجال ذلك الفن ، وعكفوا على حلِّ غوامضه،
وفكِّ مشكلاته حتى شقّوا فيه الشعرة ، مثل ما عني علماء الحديث بالجامع
الصحيج ، وما ذلك إلا لإخلاص مؤلفه لعلم الحديث الشريف ، وانقطاعه
إليه ، وجهاده في سبيله ، وتفانيه في ذلك(1) .
وسرّ الغموض في هذه الأبواب والتراجم تنوّع مفاصد المؤلف الإمام ،
وبعد مراميه ، وفرط ذكائه ، وحدَّة ذهنه ، وتعمّقه في فهم الحديث ، وحرصه
على الاستفادة والإفادة منه أكبر استفادةٍ ممكنة ، فهو كنحلةٍ حريصةٍ تؤَاقةٍ ،
تجتهد أًن تتشرب من الزهرة اَخر قطرةٍ من الرَّحيق ، ثم تحوِّلها إلى عسلى
مصفَّى ، فيه شفاء للناس .
شان الإمام البخاري مع الحديث النبوي :
وشأن الإمام البخاري مع الحديث النبوي الصحيج شان العاشق الصَّادق ،
والمحبِّ الوامق مع الحبيب الذي أسبغ اللّه عليه نعمة الجمال والكمال ،
وكساهِّ ثوباً من الرَّوعة والجلال ، فهو لا يكاد يملأ عينه منه ،

(1) من المؤلفات الحديثة في هذ! الموضوع " الأبواب والتراجم للبخاري " للعلامة

والخروج على قرائه بها ، حتى يذكر حديثاً واحداً أكثر من عشرين مرَّةً،
واستخرج أحكاماً وفوائد جديدةً.
روى حديث جابر قال : كنتُ مع النبي !شَي! في غزوةٍ فأبطأ بي جملي،
واعيا . . . الحديث أكثر من عشرين مرَّةً . فكأنه تأخذه النَّشوة والطرب عند
رواية الحديث ، فلا يملُّ من إعادته ، وينشد بلسان الحال :
أَعِدْ ذِكْرَ نعمانَ لنا إنَّ ذكره هو المسكُ ما كرَّرته يتضوَّع
وكأنه يتمثل ببيت الشاعر:
وحدَّثتنا يا سعدُ عنهم فزدتنا شجوناً فزدنا من حديثك يا سعدُ
ثم يشتعل ذكاؤه - الذي ضرب فيه بسهمٍ وافر - ويتوقَّد ذهنه ، وتسيل
قريحته ، فيفلت زمام التأليف ، ويرسل النفس على سجيتها ، يستخرج من
حديثٍ واحدٍ نتائج وفوائد لا تدور بخلد كثيرٍ من الأذكياء ، وما ذلك إلَا لحدَة
ذهنه ، وإفراط حئه ، ولم يزل المحبّ ملهماً للبدائِع ملهباً

من استعرض التاريخ الإسلاميئَ عرف أنَه لولا السنَّة المحفوظة والحديث
الماثور ؟ لما أمكنت الحسبة على المجتمع الإسلاميِّ ، ولما قام المصلحون
والمجددون في كل عصرٍ ومصرٍ يميزون بين الستة والبدعة ، والحقِّ والباطل،
والمعروف والمنكر.
لأفالحديث مدرسة دائمة خالدةٌ ، يتخرَّج فيها مصلحون ، ومجدَدون ،
وقوةٌ فى افعةٌ إلى الأمام ، وإلى الاضطلاع بأعباء الذَعوة والحسبة.

حياتها ، و " موضاتها " وبين السنة والجمع بين الحياة التي تقوم على الححث
العميق والئقة التامة بصاحب الرسالة الإسلامية ، ومصدر السنة النبوية -عليه
الصلاة والسلام - وبين تقديس الحضارة الغربية ، والنظر إليها كآخر ما وصل
إليه العلم الإنسانيئُ ، ولعل هذا هو السبب الذي يح! بعض القادة السياسيين
والحكام في بعض الشعوب الإسلامية ، والأقطار العربية ، على الهجوم على
السنَة ، وإنكار الحديث.
واخيراَ - لا اَخراَ - أضئمُ إلى هذه الكلمة التي سطرت على عجل عن فضل
الإمام محمد بن إسماعيل البخارفيَ في فنَ الحديث ، ومكانة كتابه الفريد
الجامع الصحيج ، ائه يجب أن يكون الغرض الأساسيئُ من هذا الالتقاء الجامع
الفريد الذي جاء في أوانه وفي مكانه بعد ما انقطعت الاَمال ، وطالت
الأجيال ، وحالت الأوضاع السياسية ، والمسافات 3 الجغرافية ، انتهاز هذه
الفرصة التي قفَما يجود بها الزمان لتجديد ما خص الله به الإمام البخاري ،
ووقف له حياته ، ومواهبه ، وطاقاته من جمع الحديث الصحيح ، وإتحاف
الأفَة به وإتمام الحخة عليها ، وتبيين منهج النبوَة الصادقة الأخيرة ، والتشبث

(1) الموَطأ للإمام مالك بن أنس.

متنوعة المظاهر ، لا يقولها إلا نبيئ شرَّفه اللّه بالوحي ، وأطلعه على ماضي
الأمم السابقة وانحرافاتها ، وإنما نكتفي بالدُعاء لصاحب الفبر ، وبرفع
الدرجات ، والجزاء الأوفى على جهاده العلمي والبلاغي ، ومنحه فضل الأجر
والشكر من هذه الأمة ، والعزم الصادق قبل العودة على العناية بالحديث
الشريف ، والعمل بالسنة ، ودراسة الجامع الصحيح دراسةً عميفةً دقيقةً،
والعزم على نشر ما جاء فيه ، والدَّعوة إلى التمسُّك بالحديث ، والسثة في
ضوء هذا الكتاب العظيم والسفر الجليل ، ومحاربة الشرك ، والبدع في نطاق
نفوذنا ، وبأقصى جهدنا.
هذا مع تكوين مكتبة تختص بالحديث الشريف وإنشاء مدرسةٍ خاصَّةٍ
بالعلوم الدينية ، والتضالُع من مصادر الدِّين الصحيح ، والتشبُّع بروح الدَعوة

شيحغ ا!س!" الحافظ ابر تيمية وفاثو4 ال!برفى التركيز على انَّ النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة (1)

الحمد دنّه ربّ العالمين ، والصَلاة وال!لام على سيِّد المرسلين ، وخاتم
النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ودعا بدعوتهم إلى
يوم الدّين.
سادتي وإخواني ! يسعدني ، ويشرفني أن أسهم - بفدر الإِمكان - في ندوةٍ
علميَّةٍ خاصَّةٍ بشيخ الإِسلام الحافظ أحمد بن تيمية رحمة اللّه عليه ، وقد كان
خليقاً بأن تنظم له ندوابٌ كثيرةٌ في أنحاء العالم الإِسلاميِّ ، فإنه يصحُّ ا ن
يقال : إن هذا العصر عصر ابن تيمية ، وقد كان لشخصيته ، ودعوته ، ودوره
الإصلاحيِّ عودةٌ في هذا العصر ، ولكتاباته ، وأفكاره ، واتجاهاته ؟ انتفاضة
لم تكن لمصلحٍ إسلامي ، أو مؤلفٍ من المؤلفين القدامى ، لاشباب ، تحتاج في

1) أعدَّ العلامة الندوي هذا المقال للندوة العلمية الخاصَّة ، ب " الإمام ابن تيمية ومواقفه
الخالدة " المنعقدة بالجامعة السلفية ببنارس عام 987 ام ثم نشر المقال في مجلة

2)

والإِصلاحية في شبه القارة من ترحيبٍ وقبولٍ حسن ، ونشاطِ ، وحماسٍ في
القرن الثالث عشر ، وبعده ، وقامت على أساسها مدارس تربوية ثقافية،
وحركات إصلاحئة دعوئةٌ .
وكانت تجمع بين الدَعوة إلى التوحيد الخالص ، واتباع السنَة السنثة،
وبين ما كانت تحتاج إليه هذه البلاد ، ويقتضيه الزمان من الدعوة إلى تزكية
النفوس وتربيتها ، والقيام بحركة الجهاد في سبيل الله ، وتحرير البلاد ،
والسعي في إنشاء حكومةٍ إسلاميةٍ على منهاج الخلافة الراشدة ، ونقل المراجع
الدينية الأْصلية إلى لغة البلاد ، ونشرها في نطافٍ واسع ، وإصلاح المجتمع
الإسلاميِّ الهندفي ، وإنقاذه من رواسب الجاهلية الهندية ، والتقاليد والأعراف
القديمة ؟ التي لا تثفق مع تعاليم الإِسلام ، والفيام بجولاتِ دعويةٍ واسعة،
والاتصال بالشعب والجماهير اتصالًا مباشراً ، وهو مما اتَسمت به ، وامتازت
مدرسة حكيم الإِسلام الشيخ ولي الله الذَهلوي م 176 اهـالتربوية
والإِصلاحية ، ودعوة السيد الإمام أحمدبن عرفان الشهيد (246 اهـ)

المعروف بالشيخ ولي الله الدَّهلوي ، ليراجع كتاب العلامة الندوي "الإمام
الدهلوي " (الجزء الرابع من سلسلة رجال الفكر والدَعوة في الإسلام) . (1)
ليرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي " سيرة السيد أحمد الشهيد

الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وترجيج أسلوب الكتاب والسنَّة ، ومنها نفد الديانات والملل المعارضة والمحاربة للإِسلام ، والردُّ على الفرق والنحل المنحرفة عن الطريق القويم ، والثائرة على الإِسلام ، فمن الديانات المسيحية المجابهة للدين الإسلاميئَ عقيدة ودعوةً ، وقوةً سياسية ، ونفوذاً لا13)
ومن المرق " الشيعية " التي ما أضرَ بالإِسلام والمسلمين مثلها(2) وما شكَّك مثل ما شككت في مدى نجاح جهود سيِّد الرسل وخاتمهم في دعوته وتربيته ، وفي تميز من نشأ في أحضان النبوة ، وتخرَّج في مدرسة الرسالة السماوية ، والتعاليم النبوية بطريقٍ مباشر عن الأجيال البشرية ، وأمم الأنبياء في الصلاح ، والاستقامة ، والسموِّ ، والطاعة للّه ورسوله ، وشكَكت في نقاء الكتاب المنزل الأخير ، وبقائه على أصالته ونصِّه ، وفي عقيدة ختم النبوة ، ووحدة الرسول -بما تقوله ، وتعتقده في ا*مامة وائمتها- ومنها تجديد العلوم الشرعية ، وتنشيط الفكر الإِسلاميِّ ، وتوسيع ثروته ، وتعميقها، وإثبات الحاجة إلى الاجتهاد ، وكلُّ ذلك في اتزانٍ واقتصاد ، واعترافٍ للأئمة المجتهدين السابقين بالفضل ، وردِّ الملام عنهم ، والتماس العذر لهم.

وتلك ك!ها مآثر علميةٌ فكريةٌ بطوليةٌ لايستهان بقيمتها ،ولايقفَل من شأنها ، ولا تتيشَر ، ولا تتوفر إلا لمن اراد اللّه به الخير لهذه الأمة ، وقيضه للقيام بمهمة الإِصلاح والتجديد.
ولكنَّ مأثرته الكبرى الرئيسية في اعتقادي ، وفي ضوء دراساتي المقارنة، واشعراضي لتاريخ الفكر الدِّيني ، وما قام عليه من مجتمعاتٍ ومدارس ، وحركاتٍ علمئةٍ ، وفكريَّةٍ ، وتأليفيَّةٍ ، هي : تركيزه على حاجة

(1) ونموذجه : كتابه العظيم " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " .

وذلك يحتاج إلى شيءً من الشرح والإِفاضة في الموضوع ، وبيان
" الخلفيات " التي لايمكن الشعور الحقيقي بمدى أهمية هذه المأثرة ،

ماذا يثبته القران ويعلنه؟
يلجُّ القرآن على أنَّ الأنبياء هم الأدلاء على ذات اللّه ، وصفاته الحقيقية، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة اللّه تعالى المعرفة الصحيحة ، التي لا يشوبها جهل ، ولا ضلا 4 ، ولا سوء فهمٍ ، ولا سوء تعبيرٍ ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذهن ، والإِغراق في القياس ، والغنى في التجارب ، وقد ذكر اللّه تعالى هذه الحقيفة الناصعة على لسان اهل الجنَّة ، وهم أهل الصِّدق ، وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدقٍ كذلك " اَلحضد لِئَهِ اَئذِى هَدَئنَا لِهَدا وَمَا بمُاَ لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَن هَدَئا اللَّهُ " ا!عراف : 43 ، وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم : " لَقَذ جَاً ت رُسُلُ رَئنَا بِاَلمحق " أ ا!عراف : 43 ، فدلنَ على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة اللّه تعالى، وعلم مرضاته ، وأحكامه ، والعمل بها ، الذي تمكنوا به من الدُّخول في الجنة ، والوصول إلى دار النعيم.
وقد ختم اللَّه تعالى سوره جليلةً من سور القرآن ، وهي سورة الصافات ، وقد نفى فيها ضلال المشركين ، وسوء اعتقأدهم ، ونسبتهم إلى اللّه ما هو منه بريء ، فقال! في آخر السورة : " سُبْحَنَ رَبِّك رَبِّ اَتعِؤص عَّا لَصِفوتَ (!) وَسَلَخ عَلَى المرسَلِب% !*في ! وًالحمَد لِلَّهِ رَ+ اَلفَلَمِب ! أ الصافات : 180 - 182 ، والآيات الثلاث حلقاتٌ متَّصلةٌ بعضها ببعض ، فلما نزَه اللَّه نفسه العلية ممَّا يتفوَّه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين، والوصف الصحيح البليغ ، وسقَم ، وأثنى عليهم ، لائهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منةً على الخلق ، ونعمةً على الإِنسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة ، فختم كلَّ ذلك بقوله : " وًالحمَاَلِلَّهِ رَ+اَلعَئمِينَ ! أ الصافات : 182 ، .

ضلال الفلسفة اليونانية وسرُّ

إذاَ قد ضلّ ، وتعب ، وجاهد في غير جهادٍ من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، وصفاته ، وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة ، وكيفية إحاطته به وقدرته عليه ، ونفوذ أحكامه فيه من غير طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه ، وذكائه ، وإلمامه ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية ، وإنتاجه الضعيف

وهذا سرُ ضلال الفلسفة الإغريقية الإِلهية ، وأقطابها ، ونوابغها ، فقد غرَّهم ذكاؤهم ، وعلومهم ، وآدابهم ، وشعرهم الخصب الغني ، وملاحمهم العظيمة التي نطموها ، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة ، والإقليدس ، والفلسفة الطبعية ، والنجوم ، والفلكيات ، فخاضوا في الإلهيات ، وفي موضوع الذات ، والصفات ، والخلق ، والإبداع ، فجاؤوا بالسخيف المرذول ، وبالتهافت المتساقط ، وبالمتناقض المتضادِّ من الآراء ، والأقوال ، والتحكُمات ، والتخمينات ؟ التي صدق حخة الإِسلام الغزاليُّ رحمه اللّه في وصفها بقوله:

(1) تهافت الفلاسفة ، ص ه 0 1 .

دور ابن تيمية في التركيز على ما جاء عن طريق الأنبياء ، وتزييفه

ويأتي ابن تيمية في القرن الثامن الهجري ، وهو مسحورٌ مبهورٌ بكلام
الفلاسفة ، والمنطقيين ، فيجعل الردَ عليهم موضوعه الاثير الحبيب ، ويركّز
عليه في كتاباته ، وبحوثه ، فيقول مثلاً معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء :
يتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدَّعون من الحذق والتحفيق ما يدفعون به
ما جاءت به الرسل ، كيف يتكفَمون في غاية حكمتهم ، ونهاية فلسفتهم بما
يشبه كلام المجانين ، ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطل
الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولًا ، بكلامٍ فيه تلبيسٌ وتدليس "(1) .
وحق عليهم قوله تعالى : " أَشَهِدُوأ صَقِقَهُتم سَتُكتَبُ شَهَدَتُهُتم وَ!ئلُونَ"
أ الزخرف : 19 1 ، وقوله تعالى : " ! مَّاَ أَلثهَدتُّهُخ صَقِقَ اَلسَّفَوَّتِ وَاَلأرَضِ وَلَاظقَ
أَنفُسِهِتم وَمَاكُنتُ مُتَّخِذَ اَلمُضِلِينَ عَضُدًا " أ الكهف : 1 5 ، .
المقارنة بين الإلهيات اليونانية وعلوم الأنبياء وتعاليمهم:
إنَّه يتعجَّب حينما يتناول مباحث العلوم الإِلهية لفلسفة اليونان ، وأقوال
فلاسفتهم الذين يقرنونها بالعلوم والحفائق التي يأتي بها الأنبياء عليهم الصَلاة
وال!لام ، يقول في حماسٍ زائدٍ ، وقوَّةٍ بالغة:
" إذا نظر في كلام معلمهم الأول - أرسطو - وتدئره الفاضل العاقل " لم
يفده إلا العلم بأنَّهم كانوا من أجهل الخلق برلث العالمين ، وصار يتعخب
تعجباً لا ينقضي ممَّن يقرن علم هؤلآء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء ، ويرى
أنَ هذا من جنس من يقرن دهاقين القرى بملوك العالم ، فهو أقرب إلى العلم
والعدل ممن يقرن هؤلَاء بالأنبياء ، فإنَّ دهقان القرية متو 4 عليهم ، كتولي

(1) منهاج السنة ، ج 3 بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية ، ص :

وأمَّا ما جاءت به الأنبياء ، فلا يعرفه هؤلآء البتة ، وليسوا قريبين منه ، بل
كفار اليهود والنصارى أعلمُ منهم بالأمور الإلهية ، ولست أعني بذلك
ما اختصنَ الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا ينال غيرهم ، فإنَّ هذا ليس من
علمهم ، و لا من علم غيرهم ، وإنما أعني العلوم العفلية ؟ التي بينها الرسل
للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرب وتوحيده ، ومعرفة أسمائه
وصفاته ، وفي النبوءات والمعاد ، وما جاؤوا به من مصالح الأعمال التي

بئن ابن سينا امر النبوة أنَها من قوى النفس ، وقوى النفوس متفاوتة،
وكلّ هذا كلامُ من لا يعرف النبوءة بل هو أجنبيّ عنها ، وهو أنقص ممن أراد
أن يفرر أنَّ في الدنيا فقهاء ، وأطباء ، وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدلَّ
بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء ، بل هذا المثال اقرب ، فإنَّ بُعْدَ
النبوءة عن غير الأنبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر ، ولكن هؤلَاء
من اجهل الناس بالنبوءة ، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع ، فأرادوا تخريج ذلك
على أصول قومٍ لم يعرفوا الائبياء(2) .
ويقول في موضع اضر:
وأبعد هؤلاَء عن النبوءة المتفلسفةُ ، والباطنيةُ ، والملاحدة ؟ فإنَّ هؤلآء
لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام ، وليس في
كلام أرسطو وأتباعه كلالم في النبوة ، والفارابي جعلها من جنس المنامات

(1) الرد على المنطقيين ، ص : 394 - 395 .

من ذلك ، فجعل للنبي ثلاث خصائص : إحداها : ان ينال العلم بلا تعلم، ويسميها القوة القدسية ، وهي القوة الحدسية عنده ، والثاني : ان يتخئل في نفسه مايعلمه ، فيرى في نفسه صوراَ نورانيةً ، ويسمع في نفسه لافي الخارج ، فهكذا عند هؤلآء جميع ما يختص به النبيءُ مما يراه ، ويسمعه دون الحاضرين ، وإنما يراه في نفسه ، ويسمعه في نفسه ، وكذلك الممرور عندهم ، والثالث : أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولى العالم باحداث أمورٍ غريبة ، وهي عندهم ايات الأنبياء ، وعندهم ليس في العالم حادب إلا عن قوةِ نفسانيةِ ، أو ملكيةٍ ، أو طبعية . . . وهؤلآء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعَّال ..

الفرق الأساسي بين القرآن والفلسفة في ذات اللّه تعالى وصفاته:

وقد أشار إلى نقطةٍ علميَّة مهمَةٍ وهو يتحدَّث عن الفرق المبدئي بين القرآن والفلسفة في ذات اللّه تعالى ، وصفاته ، يقول :

" والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ، ونفى عنها التمثيل ، وهي طريقة الرسل ، جاؤوا بإثباب مفصَّلى ، ونفي مجمل ، وأعداؤهم جاؤوا بنفي مفصَّلى وإثباتٍ مجمل(2) .

(1) النبوءات : ص 68 . 1

توارد علمي والتقاء فكري عقائدي عجيب:
من الموافقات العجيبة ، والالتقاءاب العلمية الدَعوية العقائدية التي تثير
العجب والإعجاب ، ما يجده القارىء المتتبع من حدَة التفكُّر ، والتوصُّل إلى
نتيجةٍ واحدةٍ ، والتركيز عليها ، والإلحاح في سبيلها في رسائل مصلحٍ آخر
-تحقَق له من النجاح في تغيير مسير التاريخ ، وإنفاذ البلاد بأسرها من خطر
الردَة الدينية الحضارية العلمية الشاملة ؟ التي تبناها ، واحتضنها ملأ من أكبر
الملوك ، وأقواهم إرادةً وصرامةً(1) وحاول تطبيقها بجميع وسائل الحكومات
وطاقاتها، مثل ما حصل له ، وهو الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد
ال!رهندي ، (971 - 1034 هـالموافق 1563 - 1624 م) .
وذلك إن دذَ على سيءً ؟ فإنَّه يدلُّ على أنَّ الحقَّ واحد ، وأنَّ الإخلاص
والتجرُّد في دراسة الكتاب والسنة ، واللجوء إلى اللّه تعالى والإنابة إليه،
والتوفيق الإلهي ضامنٌ بالوصول إلى الحقِّ والصواب ، واللبِّ اللباب ،
وصدق اللّه العظيم:
" وًائَذِينَ جَهَدُوأ فِينَالفدِيَنَهُئم سُبُلَنَأ وَإِنَّ اَلئَهَ لَعً اَلمُخسِنِينَ " أ العنكبوت : 69)

(1) وهو الإمبراطور المغولي جلال الدين أكبر (963 - 014 اهـالموافق 1556 -
605 ام) ابن الملك نصبر الدين همايون بن ظهير الدين بابر مؤسس الحكومة
المغولية في الهند ، ليراجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي " الإمام

والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذات الله - سبحانه - وصفاته
إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وراء طور الحس ؟ فإن
النبوة وراء طور العفل ، ولا سبيل إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس اللّٰه،
وتعظيمه ، وتحميده ، وتمجيد 5 إلا النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم (1) .
وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصدد في زلاتٍ خطيرة ، وأخطاءً فاحشة،
فكما أن العفل الخالص ، والعقل المجرد ليس له وجود ، كذلك الكشف
الخالص ، والكشف المجرد -الذي يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية،
والأهواء الداخلية - صعب الوجود ، بل عديم الوجود ، وقد زلت أقدام
الإشراقيين ، واصحاب صفاء النفس وسمو الروح ، ووقعوا فريسة الأوهام
والجهالات ، كما زذَ زعماء العقل ، والفلسفة ، فالعقل والإشراق لا يغنيان

(1) ليرجع للتفصيل والاطغ على نصوص الموضوع " رسائل الإمام السَّرهندي " أ و
(2) كتاب العلامة الندوي : " الإمام السَّرهندي " طبع دار القلم - الكويت.
، ومن عجيب المصادفات والدلا ائ! على صحَّة نتيجة البحث العلمي الخالص : أنَّ
الفيلسوف الألماني إمانويل كانت (804 ا-1724 ،،ول 4، اس!داول 4(+!) بدأ - بعد قرابة
قرنين من وفاة الإمام السَّرهندي - البحث الموضوعي ، والتحقيق العلمي في صلاحية
العقل لتجوده ، وتحرره عن البيئة ، وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات ،
والحكم الفاصل فى قضية ما من القضايا ، إنَّه عئن حدود العقل ودوائره فى

وبرهاناَ ، وأنَّ بعثة الأنبياء هي الحخة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية
بدون الاهتداء بهذه البعثة.
" ولكنَّ الحقيقة ، ولبَّ لباب العلم والعرفان أئه لا طريق إلى هذ 5 الحقاثق
والمعارف ، إلا طريق الأنبياء ، الذين شرَفهم الله - تعالى - بمنصب النبوة
والرسالة ، ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوت السموات
والأرض ، وأخبرهم - مباشرةَ ومن دون وسائط - بما يرضاه وما لا يرضاه ، وبما
يأمره وما ينهى عنه ، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه ، وأن نبوتهم ورسائلهم منَّة
عظيمة على هذه الدنيا ونعمة ظاهرة ، وما يعطونه من علمٍ جليل بذات اللّه وصفاته
العليا ، وأسمائه الحسنى - من غير مشقَّة ، وبدون مقابل - لا يمكن إحراز ذر؟ من
ذراته بالتأملات الفلسفية ، والبحث والاستدلال ، على مدى آلاف السنين،
وبالمجاهدات الشاقَة ، وتصفية النفس ، والمراقبة والتفكير لأعوابم وسنين.
وذلك من فضل اللّه علينا وعلى الناس ولكنَّ اكثر الناس لا يشكرون "(1) .
وبالجملة فإن هذا العمل التجديدي - وهو التركيز على أنَ النبوة هي
الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة - له قيمته العلمية والعملية
الكبيرة والأثر البعيد في الحياة في كلِّ زمانٍ ومكان ، هـان كان العصر عصر
الفلسفات وما بعد الطبيعيات ، أو كان عصر المدنيات والتنظيمات
والسياسيات ، كما هو الشأن الان ، فإنَّ الحياة لا تصلح ، ولا تستقيم إلا في

أعمال المتنورين ، وحؤَلها إ لى كومؤ من تراب " 03 أ!ا اص!" م ه ول 15،حلماعاَ
3،'ه حص!" س! ؟+
،.+!اول +ا أ؟!ولء؟+
(1) الفكرة مقتبسةٌ من رسائل الإمام ال!رهندى .

!ماحح الرير البيوبل! البطلى النا!ر

إن الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي معجزة من معجزات الإِسلام الخالدة ، وآية من آيات اللّه الباهرة ، وهو حقيق بأن يعكف على دراسة سيرته وأخباره أجيال المسلمين وعلماؤهم وحكامهم ، وأصحاب الفتوة
والفروسية والطموح والغيرة الإِسلامية ، والبطولة الإنسانية في كل زمان وم!ن وفي كل عصر ومصر ، وأن يتنافس المؤلفون ، وحملة الأقلام والمحققفون ، في التأليف في سيرته ومكارمه وبطولاته ، وأن تشكل له مجامع
علمية ، تنقطع إلى التحقيق والتأليف في هذا الموضوع - ولكن مع الأسف الشديد - لم يوف المسلمون والعرب حق هذا الرجل ، ولم ينصفوا هذا الموضوع ، ولا يزال ما ألف في بعض اللغات الأوروبية -وخاصة في اللغة الإنجليزية - يفوق كثيرأ ما ألف في اللغات الإِسلامية ، ولا يزال هذا الموضوع
ينتظر مؤلفاً عالي الهمة ، طويل الدراسة ، دقيق النظر ، رحب الصدر ، واسع
الأناة ، يتفرغ للتأليف في هذا الموضوع .
ولعل هذا العصر الذي نعيشه هو أشد حاجة ، وأكثر طلبأ لإبراز محاسنه، وتحديد مكانته في تاريخ الجهاد والتجديد الإِسلامي من كل عصر مضى، ولا يزال هاتف الغيب يهيب بهذ 5 الأمة على لسان خير الدين الزركلي ويقول :

هاتي صلاخ الدين ثانية فينا
وجددي حطين أو شبه حطينا

وكان قد سبق لي فصل مفرد في سيرة صلاح الدين ضممته إلى فصول كتاب ألفته في لغة المسلمين ، واللغة العلمية في الهند التي تسمى : ب " أردو " أسميته " تاريخ الدعوة والعزيمة " . ولما ألح علي الأخ العزيز الأستاذ " محمد علي دولة " صاحب ! دار القلم (في دمشق بتأليف كتاب في
سيرة هذا الرجل العظيم ، وكنت ولا أزال أعتبر تحقيق هذا الغرض عملاً

أتفرب به إلى اللّه ، وأرجو به الخير الكثير لقادة البلاد الإِسلامية ، والشباب
المثقف الطموح ، ولكن ذلك يحتاج إلى فراغ خاطر ، وسعة من الوقت، وكثرة مراجعة لما كتب عنه في عصره وبعد عصره ، في اللغات الإِسلامية والاخنبية ، ولعله لا يتسنى لي إلا بعد مدة طويلة ، فاقترحت على أحد إخواني
الشباب وهو الأستاذ محمد أجمل الإصلاحي الندوي أن ينقل هذا الفصل إلى
اللغة العربية ، فإنه على وجازته قد احتوى على معلومات مفيدة ، ويعطي صورة إجمالية ، ولكن مشرقة وضاءة لهذا الفائد الإِسلامي الكبير ، ويشوق
إلى دراسة أوسع ، ومعرفة أكمل (وإن لم يصبها وابل فطل) وقام بالترجمة
والنقل في مدة قريبة ، وأحسن وأجاد ، وتناولت عمله بتحرير خفيف وتعديل
يسير.
وها هو بين يدي القراء ، عسى أن يجدوا فيه ما يقوي ثقتهم بخلود هذه الرسالة ، ونجابة هذه الأمة ، -وقوة الإيمان ، وما يصنع من عجائب، ويعرفون به الفارق الكبير بين هذا القائد الإِسلامي الذي تربى في أحضان الإيمان ، وتخرج في مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبين الفادة الذين
ارتضعوا بلبان الثقافة الأجنبية ، ونشؤوا في أحضان النفعية والمادية، وأبرزتهم إلى ميدان القيادة الأغراض الشخصية ، والمطامج السياسية ، وهو
الفارق الذي ميز تمييزاً كبيراً بين النتائج والآثار ، ولا يزالى العالم الإسلامي

بينما كانت حركة العلم والدرس والتأليف قائمة على قدم وساق في
العواصم الإِسلامية وفي العالم الإِسلامي ، وكان عدد من كبار المشايخ
والمربين منقطعين إلى تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، كان العالم الإِسلامي
كله مهدداً بخطر كبير ، وقد أصبح وجود المسلمين حتى الإِسلام نفسه معرضاً

وكانت جميع مقدساتها ومولد المسيح نفسه تحت حضانتهم وسيطرتهم،
وكان يكفي هذا الوضع لاستفزاز أوروبة وإثارة دافعها لأخذ الثأر من
المسلمين ، ولكن لم تكن لتتجاسر على الطموح إلى الشام وفلسطين أو اي بلد
إِسلامي ، لو%ضد دول إِسلامية قوية وهجماتها المتواصلة على الدولة النصرانية
المجاورة ، إلا أنها لما رأت سقوط الدولة السلجوقية وضعف الثغور الشمالية
للمملكة الإِسلامية تشجعت وتطلعت ، وساعدها حظها ، فوجدت في هذا
العصر خطيبأ مصقعاً ، وواعظأ دينياً مثيرأ ، في شخصية الراهب " بطرس "
الذي ألهب مشاعر الناس في العالم النصراني بخطبه الرنانة المجلجلة،
وأحدث فيه موجة عارمة من الجنون الديني ، من أقصاه إلى أقصاه ،
وتضافرت كذلك عوامل أخرى عديدة ، سياسية واقتصادية ، قد حببت
الغارات الصليبية إلى الناس (1) .
على كل حال ، فأول جيش للصليبيين توجه إلى الشام سنة 490 هـ،
واستولى في ظرف عامين على مدن " الرها " و " أنطاكية " وأكثر قلاعها،
وأخذوا " بيت المقدس ؟(2) في سنة 492 هـ(099 أم) وفي

(1) راجع دائرة المعارف البريطانية ، مقال 3 ص!!ول 3 لأ"خ .
(2) المراد ببيت المقدس : مدينة القدس .
" السلطان صلاح الدين الأيوبي " .

بيت المقدس ، وقد تملكتهم نشوة الانتصار ، فيقول :
" لما دخل المغيرون الصليبيون بيت المقدس منتصرين وضعوا السيف في
الناس ، وأحدثوا مجزرة هائلة ، حعّى يقال : إن خيل الصليبيين الذين ذهبوا
إلى مسجد عمر راكبين كانت غارقة في الدماء إلى الركب ، وأخذوا بأرجل
الأطفال وضربوهم عرض الحائط ، أو دوروهم ورموا بهم من سور البلد،
وأحرقوا اليهود كلهم في هيكلهم وهم احياء " .
" وفي اليوم الثاني تعمدوا مثل هذه الاضطهادات التي ترتعد لها الفرائص
على مستوى أكبر وأوسع ، ولم يزل يناشدهم " تينكرد " ما قد جعله في ذمته
من تأمين ثلاثمئة من الأسرى ، ولكن لم يستجيبوا لصياحه ، ولم يراعوا
ضمانه ، وقتلوهم عن آخرهم . ثم حدثت مجزرة مريعة ، فقتلت الرجال
والنساء والأطفال تقتيلاً ، ومثلت بأجسادهم تمثيلاً ، وقد تكدست قطع
أجسادهم واعضائهم المزرقة ، ولما انتهت هذه المجزرة الهائلة أمروا الأسرى
العرب فغسلوا شوارع المدينة المتلطخة بالدماء "(1) .
وكانت نكسة " بيت المقدس " تؤذن بضعف المملكة الإِسلامية
وسفوطها ، ويقظة العالم النصراني ونهوض قوته الناشئة ، وكان نذير خطر في
العالم الإِسلامي ، فقد تأسست أربع ولايات نصرانية في الشام وفلسطين

(1) " دائرة المعارف البريطانية " ج : 6 ، ص

لاضطراب متزايد وفوضى عامة ، فكان خلفاء ملك شاه السلجوقي متحاربين فيما بينهم ، وأما الخلفاء العباسيون ففد نقلوا سيادتهم إلى الائراك قبل زمن بعيد ، ولم يوجد في العالم الإِسلامي سلطان عملاق أو قائد عبقري يحمل من صلاحية القيادة وتدبير الامر ، ما يجمع به البقية الباقية من طاقات العالم الإِسلامي ، ويضمها تحت لواء واحد ، ويقاوم الخطر الذي يتعرض له من الشمال والغرب ، وصدق " ستينلي لين بول " إذ يقول :

" كان هذا العصر عصر لبس واضطراب ، وقد تملكهم العجب لما يرونه من احتضار مثل الدولة السلجوقية المرهوبة الجانب ، المترامية الاظراف ، وظلت هذه المرحلة -مرحلة الفوضى والاضطراب - إلى أن برزت طاقات جديدة ووجهت إلى جهة واحدة ، وبالجملة فكان هذا العصر الانتقالي أطيب فرصة لأوروبة لشن الغارة على المملكة الإِسلامية وتثبيت انتصارها على وجه الدهر "(1) .

اتابك عماد الدين الزنكي:

وبينما كان العالم الإِسلامي يعاني من هذا الصراع العنيف ، واليأس المتزايد ، والكمد القاتل ، إذ تألق على أفقه نجم جديد ، ووجد العالم

(1) السلطان صلاح الدين ، ص 2 ا .

وكان عماد الدين ربيب نعمة السلاجقة ، ومعلم أبناء السلطان محمود
السلجوقي ، وقد ولاه السلطان على الموصل ، فجند عماد الدين قواته في
العراق والشام ، وشن الغارة على " الرها " التي كانت اقوى وأحصن منطفة في
ولاية الصليبيين ، ولها اهميتها الاستراتيجية الخاصة ، فاستولى الزنكي عليها
في السادس من جمادى الآَخرة سنة 539 هـ(23 كانون الأول 144 1 م) وكان
انتصاره " فتج الفتوح " كما يعبر عنه المؤرخون العرب ، وكانت هذه المدينة
طاقة كبيرة للمملكة اللاتينية ، وهكذا تحصن وادي الفرات من خطر
الصليبيين . وبعد مدة قليلة من هذا الانتصار الباهر استشهد عماد الدين بيد
عبد في سنة 541 هـ(146 1 م) ، ولكن باب الجهاد الرائع والكفاح المتواصل
للصليبيين الذي فتحه قبل شهادته لم يزل مفتوحاً على مصراعيه بفضل جهود
ابنه الكبير الملك العادل نور الدين الزنكي الذي فاق في ذلك والده العظيم.

الملك العادل نور الدين الزنكي:

واليوم كان نور الدين محمود سلطان الشام ، وكان يرى نفسه مأموراً من
اللّه تعالى لدحر الصليبيين واستعادة بيت المقدس ، ويعتبر ذلك أكبر عبادة
وأعظم وسيلة للتقرب إلى اللّه ، وقد استقرت ولايته في جميع

(1) " الكامل " لابن الآثير (1 1/

جعلت دولة القدس الصليبية بين شقي العصا ، فكانت تحت وطأة شديدة من
ذلك ، ولم يكن الذي يضغطها من كلا الجانبين إلا جيشين لنفس القوة ،
وبفضل استيلافهم على مرفاي دمياط والإسكندرية أخذوا أسطولًا بحرياً،
ففطعوا صلة الصليبيين المصريين بأوروبة(1) .
على كل حال فقد طرد السلطان الصليبيين - إلى حد كبير - من جهـميع انحاء
منطقة فلسطين ، ولكن أحسن أعماله ، وأغلى آماله ، واحلى أمانيه ، كانت
تتركز في استعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين المحتلين ، ومن يدري !
فإن القدر المحتوم قد كتب هذه الكرامة لقائد جيوشه السلطان صلاح الدين
الائوبي ، الذي هو بنفسه خليق بأن يعتبر من حسنات نورالدين ومآثره .
وتوفي السلطان نور الدين في سنة 569 هـ(174 ام) في مرض الخناق بالغاً
من عمره ستاً وخمسين سنة ، وقد طرق نعي السلطان - كما يصف المؤرخ
الإنجليزي - آذان المسلمين كصاعفة سقطت عليهم من السماء(2) .
اخلاق نور الدين ومحامده :
وقد بالغ جميع المؤرخين المسلمين في الثناء على السلطان نورالدين
محمود ، ووصفوه بالتفوى والأمانة والعدل وحسن الإدارة ، وكرم النفس ورقة
الخلق ، وولوعه بالجهاد في سبيل اللّه ، فالسلطان - كاسمه - ممدوح عند جميعهم ومحمود .
يقول ابن الجوزي - وهو من معاصري السلطان - في تاريخه " المنتظم " :
" جاهد الثغور ، وانتزع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة ، وكانت
سيرته أصلح من كثير من الولاة ، والطرق في أيامه آمنة ، والمحامد له كثيرة ،

(1) " السلطان صلاح الدين " : ص 89 .
(2) " السلطان صلاح الدين " : ص

ويصفه ابن خلكان - وهو معروف بأمانته التاريخية ، ودقته وتحفظه في اختيار الكلمات ، واقتصاده في الوصف والثناء - فيفول :
" كان ملكاً عادلًا زاهداً عابداً ورعاً متمسكاً بالشريعة ، مائلاً إلى الخير، مجاهداً في سبيل الله تعالى ، كثير الصدقات ، بنى المدارس بجميع بلاد الشام
الكبار . . وله من المناقب والماثر والمفاخر ما يستغرق الوصف "(1) .
ويتحدث عنه صاجط تاريخ الكامل - وهو المؤرخ الكبير ابن الاثير الجزري -فيفول ما لا مزيد عليه لمستزيد:
" وقد طالعت سير الملوك المتفدمين ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحرياً منه في العدل "(
2) .
وكان ابن الأثير عندما توفي السلطان في الرابعة عشرة من سنه ، ولذلك ففوله جدير بأن يكون أكثر دقة وصحة ، وأن ينم عن" اطلاع ومعرفة.
فيقول ابن الأثير وهو يصف سيرة السلطان ويشيد بأخلاقه:
" كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له ، قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له ، يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً ، فلما استقلتها
قال : ليس لي إلا هذا ، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين ، لا أخونهم
فيه ، ولا اخوض نار جهنم لاجلك ! ! وكان يصلي كثيراً بالليل ، وله فيه أوراد
- (3)
حسنه"
" وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب ، وسمع
الحديث وأسمعه طالباً للأجر " .
" واما عدله فانه لم يترك في بلاده - على سعتها - مكساً ولا عشراً ، بل

1) " وفيات الأعيان " ترجمة محمود نور الدين الزنكي.
2) " الكامل " : 1 1 / 64 1 .

أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل ، وكان يعظم الشريعة،
ويقف عند أحكامها ، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه،
وأرسل إلى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول : قد جئت محاكماَ
فاسلك معي ماتسلك مع الخصوم ، وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي
أحضره ، وقال : أردت أن أترك له ما يدعيه ، إنما خفت أن يكون الباعث لي
على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة ، فحضرت ، ثم
وهبته ما يدعيه . وبنى دار العدل في بلاده ، وكان يجلس هو والقاضي فيها
ينصف المظلوم -ولو أنه يهودي - من الظلم -ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده -" .
" وأما شجاعته فإليها النهاية ، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين
ليقاتل بها ، فقال له الفطب النشاوي الفقيه : باللّه عليك ، لا تخاطر بنفسك
وبالإِسلام والمسلمين ، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا
أخذه السيف ، فقال له نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟! من قبلي
من حفظ البلاد والإِسلام ؟ ذلك اللّه الذي لا إله إلا هو " ! !
" . . . وكان يكرم العلماء واهل الدين ، ويعظمهم ويعطيهم ، ويقوم
إليهم ، ويجلسهم معه ، وينبسط معهم ، ولا يرد لهم قولًا ، ويكاتبهم بخط
يده ، وكان وقوراَ مهيباً مع تواضعه . وبالجملة فحسناته كثيرة ، ومناقبه
غزيرة ، لا يحتملها هذا الكتاب (1) .
ولوعه بالجهاد وقوة إيمانه باللّه تعالى:
وكان جل هم السلطان نور الدين منصرفاً إلى الجهاد ومحاربة الصليبيين،
فالجهاد شغله الشاغل وهوايته المحببة ، وكان يتمتع في ذلك بقسط وافر من
الإيمان واليقين ، والعزم والإخلاص ، والتوكل على اللّه تعالى ، وبعد الهمة والثقة بالنفس.
وفي سنة 558 هـانهزم نور الدين في معركة حصن الأكراد - وهي الوقعة

(1) " الكامل " : 1 1 /

المعروفة بالبقيعة - لمباغتة الصليبيين ، وكان نازلًا بالقرب من حمص ، وكان
بينه وبين العدو عدة فراسخ ، فقال للسلطان بعض من كان بمحض النصيحة
له : ليس من الرأي أن يقيم السلطان !اهنا والعدو المنتصر جد قريب،
فأسكته السلطان وقال :
" إذا كان معي ألف فارس لفيتهم ولا أبالي بهم ، ووالّله لا أستظل بسقف
حتى آخذ بثأري وثأر الإِسلام " .
وفرق السلطان الأموال في المعسكر ، واغدق عليهم العطايا ، وقال له
بعضهم : إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء
وغيرهم ، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح ، فغفسب السلطان من
ذلك ، وقال :
" والّله إني لا أرجو النصر إلَّا بأولئك ، ففد جاء في الحديث الشريف
" إنما ترزقون وتنتصرون بضعفائكم " كيف أقي صلات قوم يقاتلون عني وأنا
نائم على فراشي بسهام لا تخطى ء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلَّا إذا رآني
بسهام قد تصيب وقد تخطى ء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ، كيف
يحل لي أن أعطيه غيرهم ؟! "(1) .
وأخذ السلطان نور الدين في الاستعداد والتأهب للجهاد والأخذ
أ·

(1) " الكامل " : 1 1 /1 9 1 . 1

وجاء العدو بخيله ورجله ، وحده وحديده ، وملوكه وفرسانه ، وقسوسه
ورهبانه ، فحمى الوطيس ، وشبت حرب شعواء ، وأوفى السلطان بنذره ،
فهزم قوى العدو الموحدة هزيمة نكراء ، واستولى على قلعة حارم ، وانتزعها
من أيدي الأعداء .

ومما يدل على قوة إيمان نور الدين ويفينه ، أن أخاه " نصرة الدين " أمير
" أميران " أصابه سهم في محاصرة قلعة " بانياس " فأذهب إحدى عينيه ، فلما
رآه نور الدين قال له:

" لو كشف لك عن الأجر الذي اعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ! "(1) .

شخصية السلطان صلاح الدين:

إن شخصية صلاح الدين الأيوبي معجزة كبيرة من معجزات الإِسلام ، وآَية
باهرة من ايات صلاحيته وخلوده .

نشأ السلطان جندياً عريقاً وسليل أسرة كردية متوسطة ، ولم يكن في
حساب أحد - قبل فتح مصر وحروبه ضد الصليبيين - أن هذا الشاب الكردي
اليافع سيكون فاتحاً لبيت المقدس ، وحارساً لأمانة الإِسلام ، وذائداً عن
حوزة العالم الإِسلامي ومعيداً لمجد المسلمين وعزهم وكرامتهم ، ولم يكن
يحسب أحد أنه قدرت له السعادة التي يغار عليها كبار الصلحاء

(1) " الكامل " : 1 1 / 23 1 .
" السلطان صلاح الدين " :

ولكن لما قيضه اللّه لهذا العمل العظيم هيا له الأسباب من لدنه ، فالح
عليه ولي نعمته السلطان نور الدين ، وبعثه إلى مصر.
يفول القاضي بهاء الدين بن شداد امين سر السلطان صلاح الدين في كثابه
" النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " :
" ولقد قال لي السلطان - قدس الله روحه - . كنت أكره الناس للخروج
في هذ 5 الواقعة (يعني الخروج إلى مصر) وما خرجت مع عمي(1) باختياري ،
وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : " وَعَسَع أَن تَكرَهُوأسَتاوَهُوَضير لَحُئم"
أ البقرة : 216 1 "(2) .
تحول في حياة صلاح الدين:
لما وصل صلاح الدين إلى مصر ، وخلا له الجو ، وأخذ بزمام الحكم،
وقع تحول عظيم في حياته ، وتمكن في قلبه أن اللّه تعالى قدر له عملاَ جليلاً
لا يلائم الترف والرفاهية ونعومة الحياة ، يفول القاضي ابن شداد :
" وملك الرجال ، وهانت عثده الدنيا ، فملكها وشكر نعمة اللّه عليه،
فتاب عما مضى ، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ،
وما عاد عنه ولا ازداد إلا جداَ إلى أن توفاه الله إلى رحمته "(3) .
ويؤيد ذلك ما يقوله المؤرخ النصراني:
" وأما بالنسبة لنفسه فإن صلاح الدين شدد في أمور حياته ، وبالغ في
زهد 5 وورعه اللذين كان يمتاز بهما من قبل أيضاَ ، وصرف نفسه عن رغد
العيش ، وتجافي عن ملذات الحياة ، وضيق على نفسه في جصيع شؤونه،
ليكون قدوة لرفاقه وزملائه ، واستنفد جهده لتاسيس دولة إسلامية جبارة تتمتع
بقدرة كاملة على إجلاء الكفار عن المملكة الإِسلامية كلياً ، فقال مرة : إن الثه
لما أعطاني مصر حسبت أنه قدر لي فلسطين أيضاً . ومنذ ذلك الوقت لم تزل

(1) هو أسد الدين شيركوه الذي أرسله نور الدين محمود للاستيلاء على مصر.
(2) " النوادر السلطانية " : ص 31 .

غاية حياته انتصاراً للإِسلام ، وإظهاراً له على الدين كله ، وقد عاهد اللّه على
محاربة الكفار والجهاد في سبيل اللّه إلى آخر حياته "(1) .
شغفه بالجهاد وحنينه إلى الشهادة :
كان السلطان صلاح الدين ولوعاً بالجهاد ، كثير الاهتمام به ، فكان الجهاد عبادته ، ولذة عيشه ، وغذاء روحه ، وطيب نفسه ، يفول القاضي بهاء الدين بن شداد :
" ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل اللّه أهله وأولاده ، ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد . . ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الارفاد لصدق وبر

ويصور ابن شداد حنين السلطان إلى الجهاد وغرامه به وتوجعه للإِسلام ، فيقول :
" وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا أ ن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطوف بين الاظلاب بنفسه ، وينادي يا للإِسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع "(3) .
" ولم يطعم (في معركة عكة) طعاماًالبتة ، وإنما شرب أقداح مشروب ، كان يشير بها الطبيب "(3) .

(1) " السلطان صلاح الدين " : ص 186 .
(2) " النوادر السلطانية " : ص 6 ص

" ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه "(1) .

معركة حطين الحاسمة:

وأخيراً ، وبعد حرب ومناوشات كثيرة ، وقعت المعركة التي كانت معركة مصيرية حاسمة عبر التاريخ ، قضت على دولة فلسطين الصليبط، وقررت مصير الصليبيين المحتوم ، وهي معركة حطين التي اندلعت يوم السبت
14 ربيع الآَخر 583 هـ(4 تموز 187 ام) وفتح الله للمسلمين فيها فتحاً مبيناًّ.

يصور " لين بول! " ميدان الحرب فيقول :
" أسر كبار قواد الجيش الصليبي وفرسانه ، وكان من جملة الأسرى " كائي " صاحب " القدس " وأخوه " جاتيلان " و " ريجي نالد " صاحب " جنين " و " الهمغري " صاحب " تنين " ومقدما الداوية والاسبتار ، وغيرهم من رجالات الصليبيين ومقدميهم ، وكان سائر فرسان الصليبيين الفلسطينيين وشجعانهم تحت حراسة المسلمين ، ولم يسلم من الجند الصليبي فارس أ و راجل إلا أسره المسلمون ، وقد رأوا أن شخصاً واحداً من المسلمين يذهب بثلاثين صليبياً ، أخذهم وحد 5 ، مشدودين بطنب(2) من أطناب خيمته ، وقد تكدست أجساد القتلى بين الصلبان والأعضاء المقطعة ، وتراكمت كالصفائح والاخجار بعضها فوق بعض ، وأما هاماتهم المقطوعة فكانت متناثرة كثمار البطيخ في مزرعة "(3) .
" وظل هذا الميدان الذي وقعت فيه معركة حطين الطاحنة - والذي يقال

1) نفس المصدر : ص : 90 .
) الطنب : الحبل الذي يربط بالوتد.
2) " السلطان صلاح الدين " : ص 187

الوحوش من قطع الأشلاء منتشراً هنا وهناك "(1) .
غيرة السلطان الدينية:
سيسجل قلم التاريخ باعجاب وإكبار - مع هذا الفتح المبين - تلك القصة
التي تدل على قوة إيمان السلطان صلاح الدين وغيرته الدينية المتأججة،
فلندع المؤرخ الإنجليزي يتحفنا بحكاية هذه القصة التي تشعل مجامر
القلوب ، وتشحنها بالإيمان واليفين ، وتثير كامن الغيرة في نفوس
المسلمين:
" ا!ر السلطان صلاح الدين فضربت خيمته في ميدان الفتال ، 9!استحضر
الأسرى ، فجيء بالملك " كائي " و " ريجي نالد " و " جاتيلان " صاحب
" جنين " كليهما ، فأجلس السلطان الملك بجانبه ، ولما رآه في أشد حال
من العطش قدم إليه قدحاً من الماء المثلج فشرب منه الملك ، وناول بعضه
" ريجي نالد" " حاكم كرك " فكره السلطان ذلك وقال للترجمان : قل
للملك : أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته ، وإنا إذا قدمنا إلى احد رغيفاً أ و
ملحاً أمن بذلك ، ولن يفلت هذا الرجل من غضبي ونقمتي ، ثم لم يلبث أ ن

(1) نفس المصدر : ص 189 .
وأضاف إلى ذلك ابن شداد : " انه لما غدر بالقافلة ناشدوا الله والصلح الذي بينه
وبين المسلمين ، فقال : " قولوا لمحمد كي يخلصكم " فلما بلغه

وأما هذا فانه نفض العهد مرة بعد مرة فجرى ما جرى "(1) .
ويفول ابن شداد :
" واستحضر البرنس " أرناط " وأوقفه على ما قال ، وقال له : ها أنا
أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الإسلام فلم
يفعل "(2) .
فتح بيت المقدس :
وبعد معركة حطين سرعان ما حانت الساعة المباركة التي كان يتلهف لها
السلطان ، ويسمو إليها ويهفو منذ أعوام طوال ، وهو فتح بيت المقدس ،
يفول القاضي ابن شداد :
" وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عطيم لا تحمله الجبال "(3) .
وفي 27 رجب من نفس السنة دخل السلطان بيت المقدس ، وبعد
تسعين
سنة عادت هذه القبلة الأولى - التي صقَى فيها محمد ع!يم بالأنبياء عليهم
السلام
في ليلة الإسراء- إلى حضانة الإٍسلام ووصاية المسلمين ، وكان من حسن
الصدفة أن السلطان دخل بيت المقدس في نفس التاريخ الذي أكرم الله
فيه النبي
ع!يم بالمعراج .
يقول ابن شداد :
" وكان فتحأ عظيماً شهده من اهل العلم خلق عطيم ، ومن أرباب الحرف
والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر اللّه على يده من فتوح
الساحل
وشاع قصده القدس ، قصده العلماء من مصر ومن الشام ، بحيث لم
يتخلف
معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل
والتكبير ، وخطب فيه ، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحط الصليب
الذي

1) " السلطان صلاح الدين " : ص
) 188 .
2) " النوادر السلطانية " : ص 4

كان على قبة الصخرة وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإِسلام نصر عزيز
مقتدر "(1) .
وكان السلطان نور الدين الزنكي رحمه اللّه قد صنع منبر بيت المقدس ،
واهتم به اهتماماً كبيراً ، وتحمل في سبيله تكاليف باهظة ، رجاء أن يعيد
اللّه
بيت المقدس إلى أيدي المسلمين فينصب المنبر فيه ، فطلبه السلطان
صلاح الدين ، ونصبه في المسجد الأقصى (2) .
من روائع " الخلق العظيا " :
وأخلق بنا أن نسمع بلسان المؤرخ النصراني ماضرب به السلطان
صلاح الدين الأيوبي في ذلك اليوم من أروع مثل للخلق الإِسلامي العظيم،
من كرم الطبع ، ورحابة الصدر ، وسماحة النفس:
" لم يظهر في يوم من الأيام من مروءة السلطان وبعد همته وكرم طبعه
ما ظهر يوم تسلم المسلمون مقاليد " بيت المقدس " فتولى جنده
وعماله امر
البلد ، وكانوا يمنعون الناس عن أي عدوان وعسف ، فلم يصب أحداً من
الصليبيين أذى ، وكان حرس الملك يحرسون جميع شوارع البلد الخارجية،
وكان على باب داؤد أحد العمال الأمناء ، ليأذن لكل من أدى الفدية من
أهالي
البلد بالخروج منه "(3) .
ويذكر المؤرخ بعد ذلك ان أخا السلطان (العادل) والبطريق وباليان
أطلقوا آلافاً من الأرقاء ، ثم يقول :
" ثم قال صلاح الدين لقواده : تصدق أخي عن نفسه ، وتصدق باليان
والبطريق كل عن نفسه ، والآَن أتصدق أنا عن نفسي ، فلم يلبث أن أمر
جنده
لينادوا في جميع طرقات البلد وأزقته بإطلاق سراح الشيوخ والضعفاء
الذين
لايطيقون أداء الفدية فيذهبوا حيثما شاؤوا ، فبدؤوا يخرجون من باب

1) " ا لنوادر السلطا نية " : ص
) 6 6 .
2) راجع تاريخ ابي الفداء

" أليعازر " ، وما زالت تخرج جماعاتهم منذ طلوع الشمس إلى
غروبها،
وذلك ما تصدق به صلاح الدين على فقراء ومساكين يتجوز
عددهم
الحصر.
وبالجملة فان صلاح الدين حف هذه المدينة التي فتحها وانتزعها
من أيدي
الصليبيين بعطفه وكرمه ، ومروءته وسماحته ، مما يذكرنا بما
فعله الصليبيون
الأول يوم فتحوا " بيت المقدس " سنة 099 ام من أفاعيل
الهمجية النادرة
البشعة ، يوم مر " غودجر " و " تنكرد " بأسواق بيت المقدس
وشوارعها فرآها
مليئة بالأشلاء ، وكان الجرحى يئنون ويصرخون ويتألمون
ويستغيثون ، وقد
بلغت أنفسهم التراقي ولم يبق فيهم إلا الذماء(1) ، يوم أحرقوا
المسلمين
الأبرياء ، وعذبوهم بأبشع ألوان العذاب والتنكيل ، وقد لجا عدد
من
المسلمين إلى سقوف القدس وابراجه ، فرشقهم هؤلاء
الصليبيون الغاشمون
بسهامهم وأسقطوهم إلى الأرض ، وقد مزقت هذه المجزرة
التي قاموا بها
سرابيل كرامة العالم النصراني ، وسود ما اعتسفوه من جور
وعدوان واضطهاد
وآَثام وجه هذا البلد الطاهر المقدس ، حيث ألفى المسيح
دروس الحب
والعطف وقال :

(1) الذًَ ماء : بقية الروح في المذبوح

دهره ، بل كان رجلاً وحيد العصور والاجيال كلها "(1) .
التيار الصليبي الجارف :
وللمرة الأخرى ثارت ثائرة أوروبة بعد فتح " بيت المفدس " وهزيمة
" حطين " المخزية وفشل الصليبيين الذريع ، فتكالبت أوروبة بأسرها على بلد
صغير مثل الشام بجنودها المجندة وملوكها الكبار وفرسانها البواسل وقوادها
الشجعان ، مثل " قيصر " و" فريدريك " و" رتشود قلب الأسد " وملوك
إنجلترا وفرنسا وصقلية والنمسا وبوغندى وفلاندرز وأمرائها ، ولم يقم في
وجههم إلا السلطان صلاح الدين وأقاربه وعدة من خلفائه ، ينافحون عن
الإِسلام ، ويحمون ذمار المسلمين ، ويقاتلون عن العالم الإِسلامي كله.
الصلح وانجاز العمل وإكماله:
وأخيراً ، تم الصلح بين الفريقين اللذين قد نالت منهما الحروب الدامية
المتواصلة التي دامت خمسة أعوام نيلاً كبيراَ في " الرملة " ، سنة 192 ام ،
وبقي " بيت المقدس " والمدن والقلاع التي فتحها المسلمون تحت أيديهم إلا
ولاية " عكة " الصغيرة التي يحكمها الصليبيون ، وظل صلاح الدين سلطان
سائر البلاد وصاحب الأمر والنهي فيها ، وتم على يده العمل الذي تولى
مسؤولية إنجازه ، وبعبارة أصج : الذي قيضه اللّه له وفوضه ..

(1) " السلطان صلاح الدين " : ص : 202 -

صلاح الدين البتة ، ولاشك أنه بقي معظم ما أخذه الصليبيون تحت يد
الإفرنج ، ولكن النتيجة بالنسبة لهم كانت ضئيلة جداً إذا نظرنا إلى ما استهلكته
الحروب من نفوسهم ونفائسهم فحسب ، ولم يستنجد " بطريق " روما ، إلا
رفع سائر العالم النصراني سلاحه وخاض المهمة ، واستفرغ الجهود كل من
" قيصر " و" فريدريك " وملوك إنجلترة وفرنسا وصقلية ، و" ليوبولد"
صاحب النمسا و " ديوك " صاحب بوغندى ، و " كاونت " صاحب فلاندرز ،
وملك " بيت المقدس " الصليبي وغيره من الصليبيين الفلسطينيين ، وكبار
فرسان داويه والاسبتار ، ومات عدد من ملوك وقواد وأمراء كافة الأمم
النصرانية ، عسى أن يملكوا بيت المقدلس ويفلحوا في إنقاذ دولة " بيت

" وفي الحرب الصليبية الثالثة تداعى العالم النصراني وجند طاقاته وأجلب
على صلاح الدين ، ولكنهم لقوا منه صخرة صماء استعصت على الرجال
وأعياهم انصداعها ، وأما جنود السلطان فقد أنهكهم ما لم يزالوا يعانونه من
جهد مرير ، وتعب متواصل ، وعناء رتيب ، وعمل خطير غير مأمون منذ
اعوام وشهور طوال ، ولكنهم مع ذلك لم ينبسوا ببنت شفة في شكوى مما
اصابهم ، ولم يعص أحد السلطان في الحضور عند طلبه وعرض نفسه في

الحروب كلها على ثقة من جيوش مصر والعراق ، تمده وتعضده وتسانده كلما
احتاج إليها ، وكذلك عززه الجنود الشمالية والمركزية لبلاد الشام دائماً،
فكان العرب والمصريون والاكراد والأتراك كلهم خدماً طائعين للسلطان ،
والمسلمين ، والحق أنهم سارعوا إلى الحضور كلما طلبهم السلطان ، كأنهم
خدم له فعلاً، وقد جمعهم السلطان على اختلاف ألوانهم وسلالاتهم
وعناصرهم وعلى ما كان بينهم من منافرات قبلية ، ومفاخرات ومخاصمات
قومية ، كأن الجنود كلهم جسد واحد ، وكل منهم ينتمي إلى عسكر واحد،
ولا شك أن السلطان واجه مرة أو مرتين عقبات في سبيل جمعهم تحت لواء
واحد ، وعاين في بعض الاحيان اختلافاً كبيراً في طبائعهم ، ومن هذه
المواقف الدقيقة تمرد الجند في يافا ، ولكن مع ذلك ظلت هذه الجنود التي
تنتمي إلى عناصر وأجيال شتى متحدة وخاضعة للسلطان إلى فصل الخريف
سنة 192 ام ، ومنذ أن طلبهم السلطان لاول مرة في سنة 187 ام ، ظلت
تجاهد في سبيل اللّه إلى نهاية الأمر ، وفي هذه الفترة كلها لم تخرج عليه ولاية
من ولاياته ، ولم يتمرد أحد من قواده وعماله ، ولو أنهم - بحكم ما علق
عليهم من الامال الجسام نظراً إلى قوتهم وإخلاصهم ومصابرتهم - كان في

" ولا يمكن أن يقال في أحد من قواد السلطان - الذي كان يستشيرهم - أنه
استأثر بالأمر لدى السلطان : إلا ما كان في آخر حياته من أمر أخيه العادل ،
نعم قد نظم السلطان مجلسأ يشير عليه في امور الحرب وغلب رأيه الخاطىء-
في بعض الأحيان - على رأي السلطان مع صحته وسداده كما وقع في " صور "
و " عكة " ولكن لا يمكن لأحد أن يدل على عضو من أعضاء هذا المجلس كان
لرأيه في نفس السلطان تأثير أكثر من رأي غيره ، وإن إخوته وأبناءه وأبناء
إخوته وزملاءه القدماء وعماله الجدد والقضاة العقلاء والوزراء المتحفظين
والثقات الاوفياء والوعاظ المتعصبين والعلماء الكبار كلهم اجمعوا على
الجهاد ، وساهموا فيه بالفعل ، ولم يألوا جهداً في النصح لمولاهم وتعزيزه ،
كل حسب قوته وكفاءته ، وهل كان فيهم أحد ممن نسي أميرهم ومولاهم ؟ ! " .
" وهل كان في مثل الموقف الحرج والمازق المتلاحم الذي يشوش الفكر
ويشتت البال ويجهد النفس إلا قلب واحد غلاب تمكن من جميع القلوب ،
وإلا إرادة واحدة جبارة قهرت سائر النفوس ، وكانت هذه الإرادة إرادة
السلطان صلاح الدين وذلك الفلب قلبه "(1) .

وفاة السلطان :

وبعد ما قام بواجبه المقدس أحسن قيام ، وحصن العالم الإِسلامي من
خطر الصليبيين ، استأثر اللّه بابن الإِسلام البار في 28 من صفر 589 هـوهو في
السابعة والخمسين من عمره (2) .
ويتحدث القاضي ابن شداد عن وفاة السلطان ، فيقول :
" ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر - وهي الثانية عشرة
من مرضه - اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الأمر من أول الليل،

(1) " السلطان صلاح الدين " : ص 31 0 - 312 .

الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك
الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي الفاضل ذنك رأياً ، فإن الناس
كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت
في البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة في نزولنا،
واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام " الكلاسة " - وهو رجل صالج - ليبيت
بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه اللّه بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ،
وذكره الشهادة ، وذكره اللّه تعالى ، ففعل ونزلنا ، وكل منا يود فداءه بنفسه،
وبات في تلك الليلة - رحمة اللّه عليه - على حال المنتقلين إلى اللّه تعالى،
والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده الفرآن ، ويذكره اللّه تعالى ، وكان ذهنه غائباً من
ليلة التاسع ، لا يكاد يفيق إلا في أحيان " .
" ولقد حكى لي لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : " لاَ إِلَهَ إِلَّاهُوَ
لخهِ لَؤَ!لتُ " أ التوبة : 129) تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه " .
" وكانت وفاته بعد صلاة الصبج من يوم الأربعاء السابع والعشرين من
صفر سنة تسعة وثمانين رخمسمئة " .
" وكان يوماً لم يصب الإِسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء
الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلم إلا الله تعالى،
وباللّه لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم،
وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك
اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدي بالنفس "(1) .
ويقول ابن شداد :
لا " إن السلطان لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين
درهماً ناصرية ، وجراماً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً ، ولا داراً ، ولا عقاراً،
ولا بستاناً ، ولا قرية ، ولا مزرعة ، ولا شيئاً من انواع الأملاك "(2) .

(1) " ا لنوادر السلطانية " : ص : 2 4 9 - 2 5 0 .

" وما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين . . . وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضر 5 القاضي الفاضل من وجه حل عرفه "(1)

ويتحدث القاضي ابن شداد عن سيرة السلطان وخلاله وأخلاقه ومزاياه فيفول :

" وكان - رحمة الله عليه - حسن العقيدة ، كثير الذكر دئه تعالى ، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء .

" وأما الصلاة فكان - رحمه الله تعالى - شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة ، وكان إن مرض يستدعي الإمام وحده ، و يكلف نفسه القيام ويصلي جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح (على مذهب الشافعية) ، ولقد رأيته - قدس الله روحه - يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه " .

" وأما الزكاة فإنه مات - رحمه اللّه تعالى - ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل ، فإنها استغرقت جميع ما ملكه من

(1) " النوادر السلطانية " : ص

لا أعلم ما يكون ، فكانه كان ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى " .
" وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه ناوياً له في العام الذي توفي فيه،
فإنه صمم العزم عليه ، وامر بالتأهب ، وعملنا الرفادة ، ولم يبق إلا المسير،
فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخر إلى
العام المستقبل فقضى اللّه ما قضى " .
" وكان - رحمه اللّه تعالى - يحب سماع القرآن العظيم . . . وكان يستفرىء
من يحرسه في الليل - وهو في برجه - الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع،
وكان - رحمه الله تعالى - خاشعالقلب رقيقه ، غزير الدمعة إذا سمع الفرآن ،
يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته " .
" وكان - رحمه الله - شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن
شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإنه إن كان ممن يحضر عنده استحضره
وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه
المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالًا له،
هـان كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في
مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، وكان - رحمه اللّه - يحب أن يفرأ الحديث
بنفسه ، وكان يستحضرني في خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث،
ويقرؤها هو ، فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ، ودمعت عينه " .
" وكان - رحمه اللّه - كعير التعظيم لشعائر الدين . . ولقد أمر صاحب
حلب الملك الظاهر - أعز اللّه أنصاره - بقتل شاب يقال له :
السهروردي ، قيل
عنه إنه كان معانداً للشرائع مبطلاً " .
" وكان - قدس اللّه روحه - حسن الظن باللّه ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم
الإنابة إليه ، ولفد شاهدت من آثار ذلك ما احكيه ، وذلك أن الفرنج - خذلهم

(1(اليزك : لفظ فارسي معناه طلائع

على العدو محيطاً به ، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت
الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القنابل
عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وعرفهم
ماقد دهم المسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ، فأتوا
بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته
بنفسه ، فإنه مخاطرة بالإِسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو - رحمه
اللّه - بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكة ، ويكون هو
ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد
والدفع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك ، وهو مصر على أن يقيم هو
بنفسه ، علماً منه أنه إن لم يقم أحد ، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من
عندهم من أخبر أنهم لايقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد
أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه

" ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة - وكانت ليلة الجمعة - من أول
الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء ، وليس معنا ثالث إلا اللّه،
ونحن نقسم أقساماً ، ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى اخذني الإشفاق عليه
والخوف على مزاجه ، فإنه كان يغلب عليه اليبس ، فشفعت إليه حتى يأخذ
مضجعه لعله ينام ساعة ، فقال - رحمه اللّه - : لعلك جاءك النوم ، ثم نهض،
فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذن المؤذن ، وطلع الصبح
وكنت أصلي معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه وهو يمر الماء على

مسرى النبي ءلمجي! ، ويقدم المولى التصدق بشيء خفيئ
على يد من يثق به،
ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ويدعو اللّه في
سجوده ، فقد ورد
فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : إلهي قد انفطعت
أسبابي الأرضية في
نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك
والاعتماد على
فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل - فإن اللّه أكرم من أن يخيب
قصدك ، ففعل
ذلك كله ، وصليت إلى جانبه على العادة ، وصلى ركعتين بين
الأذان
والإقامة ، ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على
سجادته ، ولا
أسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من "
عزالدين
جرديك " ، وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج مختبطون ،
وقد ركب اليوم
عسكرهم بأسر 5 إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم
عادوا إلى
خيامهم ، وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنه بمثل
ذلك ، ووصل في
أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا . . ولما كانت بكرة
الإثنين جاء البشير
يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة "(1) .
مكارم الأخلاق :
وكان السلطان مع زهده وورعه ونقاء جيبه يتحلى بالعدل
والعفو ، والحلم

(1) " النوادر السلطانية " ص

مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه . . وما استغاث إليه
أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته واعتنى بقصته ، ولقد رأيته
واستغاث إليه إنسان من اهل دمشق يقال له : ابن زهير ، على " تقي الدين"
ابن أخيه ، فأنفذه إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، وكان " تقي الدين " من
أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق "(1) .
وكان السلطان ذا حلم أصيل وتؤدة ، وقد روى المؤرخون قصصاً من قوة
احتماله ، وشدة حلمه ، وصبره على الأذى ، هـاحسانه إلى من أساء إليه ، لو
رويت عن أوساط الناس لكانت موضع الدهشة والاستغراب ، فكيف من ملك
قاهر ، وسلطان قوي إ! وقد طلب مرة ماءً للشرب ، وتأخر إحضاره فكرر
الطلب ولم يحضر ، حتى اتفق ذلك خمس مرات ولم يحضر ، لم يزد على أ ن
قال : إخواني إني أموت عطشاً ! فأحضر وشربه السلطان ، ولم يلم أحداً على
تأخيره ، وأبل من مرض طال به ، ودخل الحمام ليستحم ، فوجد الماء شديد
السخونة ، فطلب ماءً بارداً ، فأحضر الخادم الماء ، ووقع عليه الإناء الذي
فيه ، ولم ينج من الموت إلا بلطف من الله ، فما زاد أن قال : إذا كنتم تنوون
قتلي فأخبروني بذلك ، واعتذر الخادم وسكت السلطان ، وذكر القاضي ابن
شداد أخباراً كثيرة من صفحه عن الأمراء ، وسعة صدره وحلمه (2) .
وقد سجل الفاضي بهاء الدين قصصاً عديدة للسلطان في عفو 5 وحلمه،
وصفحه عن اخطاء جنوده وزلات اصحابه (3) .
وأما في جود 5 وسخائه : فكان السلطان رحمه اللّه - كما صرح به ابن
شداد- : " ربما يهب الأقاليم ، وفتج " آمد " وطلبها منه ابن قره أرسلان
فأعطاه إياها ، ورأيته قد اجتمع عند 5 جمع من الوفود بالقدس الشريف ،

(1) " النوادر السلطانية " ص أ أ .
(2) راجع " النوادر السلطانية " ، وما ألف في أخباره .

ولم يفضل منه درهم واحد . . . وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال
حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به اخرجه ، وسمعته في معرض
حديث جرى يقول : يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى
التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه - رحمه اللّه تعالى - "(1) .
ويقول ابن شداد في موضع آَخر:
" وكان السلطان كثير المروءة ، ندي اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه
لمن يرد عليه من الضيوف ، وكان يكرم الوافد عليه ، وإن كان كافراً . . .

وكان السلطان كريم النفس رقيق القلب ، يتوجع للمظلوم ويرثي له،
ويجبر مصابه ، يدل على هذا ما يحكي ابن شداد في كتابه فيقول :
" ولفد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج ، وقد وصل
بعض اليزكية ، ومعه امرأة شديدة التخوف ، كثيرة البكاء متواترة الدق على
صدرها ، فقال اليزكي : إن هذه خرجت من عند الإفرنج فسألت الحضور بين
يديك ، وقد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها ، فقالت:
اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمترب وسرقوا ابنتي ، وبت البارحة

(1) نفس المصدر : ص 13 - 14 .

بالتراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وهي ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم
ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم "(1) .

ويقول ابن شداد :

" إنه ما أحضر بين يديه يتيم إلا ترحم على تخلفه وجبر قلبه ، واعطاه
وجبر مصابه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد سلمه إليه ، وإلا ابقى اله من
الخير ما يكفي حاجته وسلمه إلى من يعتنى بتربيته ويكفلها ، وكان لا يرى
شيخاً إلا يرق له ويعطيه ويحسن إليه (2) " .

خلال الفتوة والفروسية:

ويدل على صبره واستقامته في الشدائد والأهوال ما حكى عنه القاضي
بهاء الدين ، فقال : إنه رآه بمرج عكة " وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب
كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لايستطيع
الجلوس ، وإنما يكون منكباً على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من مد
الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان
مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة
وقلباً بغية القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى

(1) " النوادر السلطانية " : ص 26 .

(2) " النوادر السلطانية " : ص

العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايفهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا انا والطبيب . . وبقي -رحمه الله - في مرضه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى اخر النهار ، ثم امرهم أ ن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم ، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية "(1) .

وكان السلطان من " عظماء الشجعان " يضرب به المثل في الشجاعة، وقوة النفس ، وشدة الجأش ، ومن ذلك ما يروي ابن شداد ، فيقول :

" وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين . . . وكان رحمه اللّه تعالى -إذا اشتد الحرب - يطوف بين الصفين ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاوره - رحمه اللّه - ، ولقد قرىء عليه جزءان من الحديث بين الصفين ، وذلك اني قلت له : قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً ، فأذن في ذلك فأحضر جزء كما أحضر من له به سماع ، ففرىء عليه ، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشي تارة ونقف أخرى "(2) .

" وما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط "(3) .

" وقد حارب في بعفالأحيان عدواً يبلغ عدده إلى خمسمئة ألف أ و ستمئة ألف ، فنصره اللّه على عدوه ، فقتل وأسر خلقاً كثيراً منهم " .

" ولقد وصل في ليلة واحدة نيف وسبعون مركباً على عكة -وأنا أعدها-

(1) " ا لنوادر السلطانية " : ص 1 9 - 2 0 .

(2) " النوادر السلطانية " : صه 1 6 .

(3) نفس المصدر : ص

من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس "(1) .
" ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكة ، حتى الفلب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعلم ، وهو - رضي اللّٰه عنه - ثابت القدم في نفر
يسير حتى انحاز إلى الجبل ، يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم وقتل
منهم زهاء سبعة الاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه اللّه مصابراً لهم،
وهم في العدة الوافرة "(2) .
ويدل على بعد همة السلطان ، وقوة إرادته وصلابة عزمه وتحمسه لدينه، ما يحكي ابن شداد أن السلطان قال له ذات يوم : " أما أحكي لك شيئاً في
نفسي ؟ إنه متى ما يسر اللّه تعالى فتح بقية الساحل ، قسصت البلاد وأوصيت
وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم واتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الارض من يكفر باللّه أو أموت "(3) .
علم السلطان وفضله:
وكان السلطان عالماً فاضلاً نسابة . يقول ابن شداد : " إنه كان حافظاً لائساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم واحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم،
عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضر 5 منه ما لا يسمع من
غيره "(4) .
وذكر بعض المؤرخين أنه كان حافظاً لحماسة أبي تمام بتمامهاٌ( ) .
ويتحدث " لين بول " عن أوائل حياته ، فيقول :
".وكان ميله الطبعي إلى علوم الدين ، فكان يسمع الاخاديث من علماء

1) " النوادر السلطانية " : ص ه ا .
) نفس المصدر : ص ه ا - 16 .
2) " النوادر السلطانية " : ص 17 .
) نفس المصدر : ص 27 .
3) " البداية والنهاية " لابن كثير ج 3 ،
)

عصره ، ويعكف على البحث عن دلائلها ورواتها والنقاش حول مسائل الفقه
وتفسير ايات القرآن ، وفضلاَ على ذلك ، فكان أحب شيء إلى نفسه أن يدعم
مذهب أهل السنة والجماعة بحجج دامغة ودلائل قوية ثابتة "(1) .

انقراض الدولة الفاطمية ومكرمة اخرى للسلطان :

وكانت سيطرة صلاح الدين على مصر نقطة انقراض دولة العبيديين(2)
المعروفة ب " الفاطمية " التي ظلت تجول وتصول في البلاد الإِسلامية طوال
قرنين وثمانية وستين عاماً ، وأثرت في ثقافة جزء كبير من العالم الإِسلامي
وأخلاقه وحضارته تأثيراَ كبيراَ وكان عصرهم مليئاَ بالعجائب العقائدية،
والأحكام الغريبة ، والقوانين المضحكة ، نقدم بعض نماذجها نفلاً عن كتاب
(الخطط والاَثار) للمقريزي :

" أمر في المواريث بالرد على ذوي الأرحام ، وأن لا يرث مع البنت اخ
ولا أخت ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد الذكر
او الأنثى إلا الزوج أو الزوجة والائوان والجدة ، ولا يرث مع الأم
الا من يرث

(1) " السلطان صلاح الدين " : ص 262 .

اجمع محققو الأنساب أن بني عبيد لا ينتمون إلى أهل البيت النبوي بصلة ، هـانما
ينتمون إلى رجل اسمه عبيد ، كان مجوسياً ، أو يهودياً ، وقد استوعب الموضوع
القاضي أبوب!هـمحمدبن الطيب في كتابه : " الكشف عن أسرار

ضرب رجل بمصر ، وطيف به في المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب " الموطا " لمالك بن أنس رحمه اللّه "(1) .
" وفي 393 هـقبض على ثلاثة عشر رجلاً ، وضربوا وشهروا على الجمال ، وحبسوا ثلاثة ايام من اجل أنهم صلوا صلاة الضحى " .
" وفي 395 هـقرىء سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخية التي كانت محببة لمعاوية بن أبي سفيان ، ومنعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير
المنسوبة لعائشة رضي اللّه عنها " .
" وكتب في صفر من هذه السنة على سائر المساجد ، وعلى الجامع العتيق
بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه ، وعلى أبواب الحوانيت والحجر
وعلى المقابر والصحراء : سب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك ولون بالأصباغ
والذهب " (2) .
" شرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع ، وأكل الملوخية وجميع الأسماك ، فأقبل الناس على اللهو ، وتفاقم الأمر في شدة
البلاء ، وصاح الناس بالظاهر : الجوع الجوع ! يا أمير المؤمنين لم يصنع بنا
هذا أبوك ولا جدك فالئه اللّه في أمرنا "(3) .
" وفي 424 هـركب ولي العهد من القاهرة إلى مصر وقد زينت الطرقات ،
فكان إذا مر بقوم قبلوا له الأرض . . . وبويع بالخلافة ، وعمره يومئذ سبع سنين "(4) .
وكان حكم السلطان صلاح الدين نهاية هذا العصر المضحك الغريب، وفاتحة عهد جديد ، بدات تندرس فيه معالم الشيعة والرفض من مصر، وازدهرت السنة وانتشرت ، وأسست المدارس والمعاهد التي كان يدرس فيها

(1) " الخطط والآثار " : ج ا/ص 340 .

(2) " الخطط والاثار " : 2/ 1 34 .

(3)

علماء السنة علوم الشريعة الإِسلامية ، وأخذت تتضاءل رواسب عهد
العبيديين ، حتى غابت واختفت ، وقد أصبح مذهب الإسماعيلية - الذي ظل
في مصر كدين رسمي طيلة ثلاثة قرون - غريباً في وطنه ، وطريداً في مركزه ،
وشريداً في معقله.
" واختفى مذهب الشيعة والإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها "(1) .

وكان عصر حكم العبيديين عصراًابتلي فيه الإِسلام ابتلاءً عظيماً ، ومني
فيه بمحنة كبيرة ، انتهكوا فيه محارم اللّه ، وتلاعبوا بالشريعة الإِسلامية،
ونالوا من السنة وعقائد الإِسلام ، فكان العلماء وأهل السنة مقهورين
ومستضعفين ، منخفضي الرؤوس أذلاء ، ليس دهم حرمة ولا قيمة ، ولا
شوكة ولا سلطان ، وأما الطغاة والأوباش والأوغاد والأجلاف فألقي حبلهم
على غاربهم ، يعيثون في الأرض فساداً ، وقد استفحل أمرهم وتفاقم شرُّهم.
ويتحدث العلامة المقدسي عن هذا العصر في كتابه " الروضتين في أخبار
الدولتين " ، فيقول :
" وبقي هذا البلاء على الإِسلام من أول دولتهم إلى اخرها ، وذلك من ذ ي
الحجة سنة تسع وتسعين ومئتين إلى سنة سبع وستين وخمسمئة . وفي أيامهم

1) " الخطط والآثار " : 1 / 355 .
(كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين " :

وكان من الطبيعي أْن يفرح أهل السنة والمؤمنون الصادقون بهذه الثورة في
الحكم ، التي كانت مقدمة لثورة في الدين والأخلاق ، ويعر! العلامة
المقدسي - الذي ولد قبل تسعة وعشرين عاماَ من هذه الثورة ، وشاهد

وقد حدث العلامة الحافظ ابن القيم في كتابه " الصواعق المرسلة على
الجهمية والمعطلة " عن انتشار الباطنية وعواقبه ثم يذكر

" ثم خمدت دعوة هؤلاء في المشرق ، وظهرت من المغرب قليلاً قليلاً،
حتى استفحلت وتمكنت ، واستولى أهلها على كثير من بلاد المغرب ، ثم
أخذوا يطؤون البلاد حتى وصلوا إلى بلاد مصر ، فملكوها ، وبنوا بها
القاهرة ، واقاموا على هذه الدعوة مصرحين بها هم وولاتهم وقضاتهم،
وفي زمانهم صنفت رسائل إخوان الصفا والإشارات والشفا وكتب ابن سينا،
فإنه قال : كان أبي من +أهل الدعوة الحاكمية ، وعطلت في زمانهم السنة
وكتبها والآثار جملة إلا في الخفية ، وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على
الوحي ، واستولوا على بلاد المغرب ، ومصر والشام والحجاز ، واستولوا

(1) كتاب " الروضتين في أخباش الدولتين " :

اللّه بعبده وجنوده بيت المقدس من أيدي عبدة الصليب ، وأخذ كل من أنصار
اللّه ورسوله من نصرة دينه بنصيب "(1) .
والكتب التي تؤرخ هذا العصر تحدثنا ان هذا النبأ السار تلقى ترحيباً بالغاً
من العالم الإِسلامي بوجه عام والشام والعراق بوجه خاص ، وكاد يطير
المسنمون كلهم فرحاً وسروراً.
وبالجملة فإن صلاح الدين بينما هو - بالوقوف في وجه الغزاة الصليبيين
الطامعين - قد أنقذ العالم الإِسلامي من الرق السياسي والفوضى الخلقية
والثقافية ، وأنجاه من براثن الزاحفين من الغرب ، إذا هو - بالقضاء على
الدولة الفاطمية العبيدية - سد أبواب الفساد الذي قد أخذ يستشري ويشيع
الباطنية والإسماعيلية لا في مصر فحسب ، بل في العالم الإِسلامي كله،
وتمخض عن الفوضى الفكرية والتدهور العقائدي ، والتفسخ

(1) " الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة " :

ا!ما" السّوهنر؟ ومنيجه في ا!!حح

اختار اللّه للدَّعوة الإِسلامية في الهند أصحاب قلوبٍ رقيقة ، لأنَّ الشعب
الهندي هو رقيق الشعور ، قوي العاطفة ، يفعل فيه الح!ث والحنان ما لا يفعله
المنطق والبرهان ، فاختار اللّه للدَّعوة الإِسلامية في الهند ، أصحاب قلوبٍ لينةٍ
خفاقةٍ ، وعيونٍ دامعةٍ فيَّاضةٍ ، هؤلَاء الذين كانت عيونهم تدمع لكلِّ مفجوعٍ
منكوب ، وكانوا يؤوون كلَّ طريدٍ وشريد ، ويلجئون كل من أقصته الأسرة ،
وطردته القرية.
كان الفرق بين البرهمي وغير البرهمي اكبر من الفرق بين الإنسان
والحيوان ، إن الكتب التي تناولت هذا الموضوع ، (النظام الطبقي
والاجتماعي في الهند) كثير!2) ، ثم كان غير البراهمة طبقات ، ثم هنالك
سيدات مات أزواجهن فكن يحرقن أنفسهن مع أزواجهن ، وكان ذلك من
العادات التي تفرَّدت بها الهند.

(1) نشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها السادس ، المجلد الواحد
والثلاثون ، عام 1986 م .

(2) ليراجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي " ماذا خسر العالم بانحطاط

ويفضلونهم على أنفسهم ، وأو لادهم ، وبذلك انتشر الإِسلام انتشاراً هائلاً في
هذه البلاد التي تشيه قارة .
وكانوا مع هذا الزهد والابتعاد عن قبول الصَلات الملوكية ، يشرفون على
الحكومة ، ويراقبونها من بعد ، كالنار يصطلي بها الإنسان ، ويستدفىء بها
ولا يمسها فيحرقه ، وكان ذلك إلهاماً من اللّه تعالى.
أنا أومن بانَ الداعية المخلص ، لا يكون داعيةً إلا إذا كان ملهماً مؤيداً من
اللّه ، فكانوا يراقيون الدولة ، ويراقبون اتجاهاتها ، وميولها ، ويرون هل
المجتمع الإِسلامي إلى خيرٍ أم إلى شز ، وإ؟لى صلاحٍ أم إلى فساد ، وهل هناك
اتجا! موافق للإِسلام أم معارض! للإِسلام ؟ فاذا كان هناك اتجاه معارض!
للإِسلام جزُوا الحبل من بعيدٍ ، وباحتياطٍ ، وأشاروا على الملك بصا هو صالح
للعباد والبلاد ، وبما فيه تأييد للدين ، وتقوية للمسلمين ، وقد تكون لهم يد
خفيَّة في اختيار ملكٍ ، أو عزلٍ ونصب.
فإذا سنحت لهم فرصه لكلمةِ حق عند سلطان جائرٍ ، كانوا من أفصح
الناس ، وأشجعهم ، أحكي لكم قصةً واحدةً:
إن محمد تغلق عرف في تاريخ الهند بالجبروت والطغيان - بل بالجنون
والهوس - ويسفى في تاريخ الهند " السلطان العاقل المجنون " إنَه كان رجلاً

(1) ای : صفين

لهذا المنظر الغريب ، وامتلأ رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوتٍ عالٍ
قائلاً : يا ولدي العظمة دته إ ، يفول نور الدين : إني استشعرت فيئَ قوَّةً غريبةً
بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي ، وذابت . وبدا الجميع عندي كأنه
قطيع من ضأنٍ أو معز ، وسأل الملك الشيخ ، وعاتبه قائلاً : " إننا مررنا
بزاويتكم فلم تشرفونا بزيارتكم ، وموعظتكم " فأجاب الشيخ : إن هذا الفقير
لايجدر بمقابلة الملوك ، إنَه يعيش في عزلةٍ ويدعو للملك ، ولجميع
المسلمين ، فعليكم أن تعذروني في هذا الأمر ، وبعد انصرافه قال الملك
لوزرائه : إنه صافح كثيراً من الشيوخ والعلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً
وإشفاقاً ، أمَّا هذا الشيخ ؟ فما وجدت في كفه ليناً ، وضعفاً ، وما رأيت في
يده ارتعاشاً ، بل صافحني بفوَّة ، وحرارةٍ زائدةٍ ، واعتزاز نفس.
وقدم إليه الملك مئة ألف " تنكة " (قطعة ذهب) ففال الشيخ : سبحان
اللّه ! تكفيني أقتان من أرز ، وسمن بفلسٍ واحد ، ماذا أفعل بهذا المال
الكثير ؟ ولكن قيل له : إن الملك يسخط إذا لم يقبل هذ 5 الهدية ، وينقم
منه ، فقبل الشيخ ألفي روبية ، وقسمها بين إخوانه ، وأصحابه ، وذوي
الحاجة ، هذ 5 قصَةٌ من القصص الكثيرة (1) .
والآَن أتحذَث إلمجم عن دور الإصلاح والتنظيم : لما رسخت الحكومة
الإِسلامية في الهند ، وانتشر الإِسلام انتشاراً واسعاً في جميع أنحائها ، تأثر
المسلمون بمواطنيهم الهنود ، فانتقلت إليهم عادات الجاهلية ، وانتقلت إليهم
بعض العقائد الخرافية ، وتسرَب إليهم الشرك ، والبدع ، وتغلغلت فيهم
الفلسفة اليونانية ، والفلسفة الهندية القديمة ، وعن طريق هاتين الفلسفتين
انتقلت إليهم اتجاهاتٌ ، ونزعاتٌ لا يقبلها الإِسلام ، فهنالك جاءت مرحلة
الإصلاح والتنظيم ، والما جاءت هذه المرحلة ، قثض االلّه في هذه المرحلة
الدقيقة رجالًا غيارى متألمين للإِسلام ، وهبوا نفوسهم ، وارواحهم،
ومواهبهم ، وذكاءهم لفيادة المسلمين في هذ 5 البلاد .

(1) نُقلت القصة بطولها من كتاب العلامة الندوي " المسلمون في الهند
أ إتماماِ للفائدة

وائفق أنَ أكبر ملكٍ عرفه تاريخ الهند ، هو الملك المغولي السلطان
جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند ، اتجه
اتجاهاً معارضاً للإِسلام ، ونشأ فيه عداءٌ للإِسلام ، وعنادٌ شديدٌ للدِّين
الإِسلاميِّ وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، وعطفٌ شديدٌ على
البراهمة ، وعقائدهم ، وعاداتهم.
هذه مرحلةٌ أدقّ من مرحلة الجاهلية المحضة ، إذا كانت بلادٌ لا تعرف

إنَّ " أكبر " كان أولًا مغرماً بدراسة الدِّيانات ، كان من سوء حظه أنَّه كان
أمياً ، أو شبه أمي ، لم تسمج حياته الخاصة بدراسةٍ وثقافةٍ - ولكن مع ذلك
عند 5 غرام بالمقارنة بين الدِّيانات - والإنسان إذا كان جاهلاً وليست عنده
الوسائل الكافية للمقارنة الأمينة ، والوصول إلى النتائج الصحيحة ؟ فهذه
محنةٌ عظيمة ، وهذا الرجل كان يجمع بين طبيعتين متناقضتين ، جاهلٌ ولكنَّه
كان مفرط الذكاء ، سريع الانفعال عصبياً ، ومغرماً بالمقارنة بين الدَيانات ،
فجمع علماء أهل السنة ، وعلماء الشيعة ، وعلماء الطوائف الإِسلامية ، التي
انحرفت عن الإِسلام ، وعلماء البراهمة ، والبوذيين ، والمجوس ،
والمسيحيين ، وكان يثير موضوعاً خلافياً يناظر فيه هؤلاَء العلماء ، فكانوا

شديداً في الجاه ، وكان كل واحدٍ يريد أن يستأثر بالملك ، وكان بعضهم ادَخر
مالًا عظيماً ، وكان بعضهم استخرجت من مقبرة اسلافه لبنات من ذهب كان
قد خباها ، فلما اطلع هذا الرجل على هذه المناظرات ، واطلع على مواضع
الضعف في هؤلاء العلماء الكبار ، الذين كان أحدهم المحدث الأكبر،
والاَخر قاضي القضاة والمفتي الأكبر ، رأى أتهم لصوص الدنيا ، وأتهم لا
يق!ون عن عباد الدنيا في حب المال ، فانسلخ عن الإِسلام .
وأقول لكم - أيها الإخوان ! - عن تجربة واختبار : إن الذي يرتد عن
الإِسلام يكون اكثر عناداً للإِسلام ، وأكثر معارضةً للإِسلام والمسلمين من
أتباع كل ديانة ، مسيحيين كانوا أو يهوداً ، وهذا الذي تشهدونه اليوم في بعض
البلاد العربية والإِسلامية ؟ التي يحكمها الذين ولدوا في الإِسلام ، ونشؤوا في
بيتٍ مسلم ، في بيئةٍ مسلمة ، ثم كرهوا الإِسلام ، وأبغضوه لتأثيرٍ أجنبي ، أ و
بفعلَ ثقافةٍ ، أو فلسفة ، فهم دائماً أشدُ عناداً للإِسلام من الهنادك،
والمجوس ، والمسيحيين . ونعود إلى القصَة فنفول : إنَّ " أكبر " عادى
الإِسلام عداءً شديداً ، حتى يروى عنه انَه كان لا يستطيع أن يسمع اسم
محمد ، كانت تثور ثائرته إذا سمع هذا الاسم الكريم ، فكان لا يملك نفسه،
وقد أصدر الأوامر الشديدة بأن كل من سجل عليه أنَّه ذبح بقرةً فإنه يقتل ، إنَّه

كان يمكن أن يتصدَّر مجلس السلطان أكبر ، وكان هنالك مَنْ دونه في العلم،
ومَنْ دونه في الذكاء ، ولكنَّه ملكته فكرةٌ واحدةٌ : حرام على هذه البلاد ا ن
ترتذَ عن الإِسلام ، وأن يحرم المسلمون فيها حقَّهم ان يعيشوا كراماًاحراراً
شرفاء ، يزاولون شعائرهم الدينية ، ويحافظون على خصائصهم ، وشخصيتهم
الإِسلامية ، ملكته هذه الفكرة حتى حالت بينه وبين كل لذَّةٍ ، فوهب نفسه،
وحياته لها ، ترونه في رسائله (وأصلها بالفارسية ، وقد نقلت إلى العربية)
كيف يبكي دماً ، وكيف يبكي على الإِسلام . إنَ رسائله دافقة بالحياة ،
الإنسان إذا قرا هذه الرسائل يشعر بأن فيها شعلةً إيمانيةً ، ولهيباً من إيمانٍ
وصراحةٍ وحزن ، فيقول في إحدى رسائله ، كتبها إلى أحد كبار الدولة:
" واويلاه ! واحزناه ! وامصيبتاه ! إنَّ أتباع محمد عليه الصَّلاة والسَّلام الذي
هو حبيب رلث العالمين ، بهذا المكان من الذلِّ والهوان ، والكفار،
والمشركون ، والوثنيون يتمتعون بالحرية ، وهذا في عهدِ رجلى يتسمى
بالإِسلام " إنه ينعزل عن مركز الحكم ، يجلس بعيداً ، ولكئه لم يزل متصلاً
برجال البلاط والأمراء ، يكتب إليهم الرسائل البليغة التي تسيل عذوبةً،
وتشتعل ناراً في وقتٍ واحدٍ ، والتي تعتبر من أقوى الرسائل الدعوية
والإصلاحية في المكتبة الإِسلامية . إئه لم يزل يثير غيرتهم الإيمانية ، ويلهب
فيهم جمرة الإيمان التي كانت مدفونةً تحت الرماد ، فيزيل عنها التراب ،
فيقول للواحد منهم : " أنت مسلم والحياة عارضة ، والملك لا يعيش دائماً،
وهذا الحكم لا يدوم ، اتق اللّه في نفسك ، اتق اللّه في أمتك ، اتق اللّه في
بلادك " هذا كان دأبه على مم الأيام حتى استطاع أن يجزَ إليه عدداً كبيراً من
الأمراء ، والوزراء ، وكانت سياسة البلاد تمرُّ بمرحلةٍ دقيقةٍ جداً ، لائه إذا ثار

فاقتصر على الذَعوة ، واقتصر على الرفق ، وعلى الحكمة.
فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه وخليفته نور الدين جهانكير ، وكان أحسن
مميرةً ، وأسلم عقيدةَ من ابيه الراحل.
طلب السلطان الإمام السرهندي إلى مقمه ، واكد على حاكم سرهند أ ن
يوجهه إليه كيفما استطاع ، فتوجه الإمام مع خمسةِ من أصحابه ، ومريديه
-كانوا إذ ذاك عنده - ولما قرع سمع السلطان مجيء الإمام بعث الأمراء
والأعيان ليستفبلوه في الطريق ، ونصب له خيمة بجوار قصره ، وطلبه في
البلاط للمقابلة ، ولما دخل عليه في البلاط لم يأت بالآَداب ، والتقاليد التي
كان يلتزم بها الوافدون على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف
الله نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه ، ولم يأت بالتحية
المعتادة للملوك (1) ، فسأله السلطان عن السبب ، فقال إنني لم أزل متقيداً
بالآداب والأحكام التي دعا إليها الثه ورسوله -!ير- ولا أعرف غير هذه
الآَداب ، فغضب السلطان وقال : اسجد لي (2) ، فقال الإمام :

1) كانت هذه التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد الملك أكبر ، وكانت تعدُ من
التأًدب بالآَداب الملوكية وكانت على ثلاثة أصناف ، أولها : الكورنس ، وهو أ ن
يضع يمينه على جبينه ويطاطىء رأسه إلى الصَدر . وثانيهما : التسليم وهو أن يضع
2) ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس . ثالثها

ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته " يَصَبِمَ اَلسِّجنِ ءَأَزبَاب فُتَفَرقِؤُتَ صز
أَ! اَلتَهُ اَتوَؤَصِدُ اَتقَهَارُ " أ يوسف : 39، ، مما اهتزت له أركادْ القلعة ، وارتجت
الجدران ، وسمع صدا 5 في الخارج ، يذكر بعض المؤرخين : أنَ آلافاَ من
السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه ، ودخلوا بصحبته ، وتربيته،
وإرشاد 5 ، ودعوته في الإِسلام ، وأنَ مئاتِ من السجناء والمسلمين تابوا على
(1)
يديه ، وبايعو 5 ، وتمتعوا بصحبته حتى بلغوا درجات الإحسان .
كان لمرافقته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة في الملك جهانكير
وعنايتة بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، وشغفه بإقامة المدارس الدينية
في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام 031 اهـبمناسبة فتج قلعة كانكره
من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر الإِسلام فيها(2) فقد امر ببناء أوَّل مسجدٍ
في الفلعة ، وذبج البقرة ، وهو يدلُّ على حدوث التحوّل ، والتفدّم في التديُّن
الذي يمكن معه القول بأنَّه كان غيضاً من فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته.
ولم يزل الشيخ مذكراً للملك ، وناصحاً ، ومشجعاً يرشد 5 ، ويوجهه،
ويراسله ، وقد طلب مرَّةً من أحد أمرائه أن يرشح له عدداً من العلماء يذاكرهم
في الأمور الدينية ، فلما علم الشيخ بذلك ؟ قال : لا ، إن العلماء إذا اجتمعوا
فإنَّهم يتنافسون ، ويتناظرون ، فهذا يفسد الملك ، وهذا الذي حدث في العهد
السابق ، ماضٍّ بالإسلام ، رجل زاهدٌ في الدنيا ، متعمِّق في الدين ، راسخٌ

1) كتاب +ا!ا 13 مه !،أ 1،اص!!ص!3 ح (الدعوة إلى الإسلام) لمؤلفه البروفيسور آرنلد 4 ا 3'،0 ول ص 412 الطبعة الثالثة " دائرة معارف الأخلاق والديانات " ص 748 ج 8 .

2) انظر " تزك جهانكيري لما ص 340 وراجع للتفصيل الباب السابع منه ، وليلاحظ أنَّ

وخلف الملك نور الدين جهانكير نجله شهاب الدين الملقب بشاه جهان ،
وهو الملك المسلم الخاشع دلّه ، وهو الذي لمَّا تربع على عرش
الطاؤوس
الذي أنفق عليه الملايين نزل ، وخرَّ دلّه ساجداً ، يثبت عبوديته وإسلامه،
ويحمد اللّه على الملك الذي آتاه ، ولم يزل الشيخ والحبل في يده ،
فيقبضه،
ويرخيه ، إذا راى من المصلحة أن يرخيه ؟ أرخاه ، وإذا راى من المصلحة

وخلف الشيخ أحمد ابنه النجيب المتمم لعمله ، والأمين على
دعوته
الشيخ محمد معصوم بن أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (07
10 - 1079 هـ)
وله فضل كبيرٌ في تربية السلطان " عالمكير " أورنك زيب بن
شاهجهان الذي
يعدُّ من أكبر ملوك المسلمين ، وليس في الهند فقط ، بل في
تاريخ الإِسلام
(يعني بعد نور الدين ، وصلاح الدين ، وبعض ملوك المسلمين
الصَّالحين)
هو الذي دون " الفتاوى الهندية " وجعلها قانوناً للدَّولة ، وهو
الذي طئق
الأحكام الشرعية بدقةٍ وعنايةٍ ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع
أربعين حديثاً
وشرحها ، وله عوائد والتزاماتٌ لا يقدر عليها كثير من العلماء
والعباد فضلاً
عن الملوك والسلاطين ، هذا الرجل قلب تيار الحياة ، وأرسخ
قواعد الإِسلام
في هذه البلاد ، وربط مصيرها بالمسلمين ، وبالعلم ، والدين ،
وأزال خطر
زوال الإِسلام وجلاء المسلمين ، وكما وقع في إسبانيا قبل
قرنين ، وهذه ناحية

أشَس! التقويم المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على أول " فروردي " التي تدخل فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع وكان تاريخ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءاً
من شهر " فروردي " إلى شهر " اسفنديار "(1) ، وسمى الشهور " شهوراً
إلهية " ، ولمَّا كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عبَّاد النار ، بدأ
السلطان - مراعاةً للشريعة الإسلامية - التقويم الهلالي العربي للشهور والسنين
لجلوسه ، وإدارته ، ومهرجاناته ، وامر بتفديم التفويم العربي الهلالي على التقويم الشمسي ، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز .
ويعلم جميع الناس أنَّ الشهور الهلالية تتغير دائماً ، وتحدث مشاكل وتعقيدات في استخدام التقويم الهلالي ، ولكنَّ هذا السلطان المتدين لم يبال
بمشاكل هذا التقويم ، وينتهي عن الاحتفال بمهرجان " نوروز " لتشبهها بطريقة
عباد النار المجوس - أصلاً - وقرَّر بداية تاريخ الجلوس الثاني بغرَة شهر رمضان ، وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس ، وأبدل مهرجان نوروز، بمهرجان عيد الفطر(2) .
ويذكر المؤرخ وقف السلطان للدخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غير شرعي ، فيقول :
" أمر السلطان بإلغاء " راهداري " - ضريبة الطريق - الذي كان يؤخذ على
جميع الحدود والثغور ، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة ، فكان دخلها ، ودخل خراج " بلغاري " الذي يسمى " ته بازاري " ، يزيد على مئات
الآَلاف ، ويدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي
كان دخلها من الحانات والخمارات والقمارات وما يقدَّم ال

(1) وهما شهران في التقويم الإيراني القديم.
(2) أيضاَ ص 83 - 84 .

كانت الحسبة منصباً خطيراً في الحكومات الشرعية ، وشعاراً ظاهراً من
شعائر الخلافة الإسلامئة ، وألف كثير من العلماء لبيان مسؤوليات هذه الوظيفة
المهمة ، ونوعية العمل فيها كتباً بعنوان " الحسبة في الإسلام " وكانت هذه
المهمة الخطيرة مهجورةً معطلةً في الحكومات المسلمة في الهند ، وأحيا
السلطان هذه السنة أيضاً.

يقول المؤرخ :

" عين السلطان الشيخٍ عوض وجيه محتسباً ، وأمره بأن ينهى الناس عن
جميع المحرمات ، خاصة عن شرب الخمور ، وتناول الحشيش ، وجميع
المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعهم -قدر المستطاع - من جميع
المسيئات والمنكرات "(1) .

ويقول المؤرخ في حوادث ووقائع السنوات من عام 11 للجلوس إلى 1 2
للجلوس ، الموافق عام 078 ا هـ:

" كان السلطان يزداد - كل يوم - اهتماماً باجراء الأحكام الشرعية،
وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر فرامين مفصلةً
لالغاء دخل " راهداري " و " بانداري " الذي كان يبلغ مئات

1) أيضاَ ص 92 ، ذكر مؤلف " نزهة الخواطر أ اعتماداَ على كتب التاريخ بالفارسية ، إ ن
عالمكير نسخ عام 069 اهـثمانين نوعاَ من الخراج والضرائب ، التي كان دخلها

2)

نفسه الجلوس على النافذة ، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية.
كان السلاطين المسلمون في الهند - حسب معتقدات الهنادك وعاداتهم
القديمة - يثقون كثيراً بالتنجيم والمنجمين ، ويعينون الائام والشهور لأْعمالهم
الخاصة حسب ما يقرر المنجمون في ضوء علم التنجيم ، ففضى السلطان
عالمكير على هذه العفيدة والعادة المتجعة ، وأهم من ذلك : أنَّ الاحكام
الفضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها ، فعيَّن السلطان
عالمكير قضاة شرعيين ، وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين
الشرعية.
" الشعراء والمنجمون الذين كانت لهم مكانةٌ واعتبارٌ في الدولة ، (خاصة
في عهد السلطان شاهجهان) منعوا من ممارسة أعمالهم ، وعين القضاة
للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن
والاستقلال في شؤونهم ما بعث الأمراء وأعيان الدولة على الغبطة
والحسد "(1) .

6!بمك!

(1) أيضاً ص 2717 ، وراجع كتاب كذلك (ء!ول 3 اي! ! ؟ء2! ول،علماول) لمؤلفه الفاضل

الملك ال!الحح الم!لحح
السلطان محيي الدين اورنخ زيب
عالمكير

أما بعد ، فإنه يصعب الحكم على جميع أعمال أي حاكم أو سلطان لدولة
ما من الدول ، وجميع عاداته وأخلاقه ، وأحكامه وأقضيته وإجراءاته ، بأنها
موافقة - مئة في المئة - للتعاليم الإسلامية ، والأحكام الشرعية ، ولا يمكن أ ن
يقال ذلك إلا في الخلفاء الراشدين المهديين ، وبعض الولاة الذين كانوا على
سيرة سيدنا عمربن عبد العزيز ، في إقامة الخلافة على منهاج النبوة ، كما
يتعذر الإدراك الدقيق للمصالح والضرورات التي اتخذت في ضوئها هذه
الإجراءات السياسية والإدارية ، التي تختلف فيها الآَراء ، وأنه ما مدى واقعية
تلك الصورة التي تتجلى لهذه الأعمال والإجراءات في ضوء بيانات المؤرخين
وتصريحاتهم ، وإلى أيِّ حد تقوم على الصدق والواقع ؟ فمن الصعب جداً
-بعد مضىّ مدة طويلة ، وعدم توفر الشواهد والوثائق التاريخية

(1) يراجع للتفصيل كتاب " الإمام السرهندي ، (الجزء الثالث من رجال الفكر والدعوة

وأفراد أسرته الآخرين ، وإخلاصهم ، وصفاء نفوسهم وشخصياتهم المؤثرة الآخذة بمجامعِ القلوب ، وقد كان انسجم مع دعوة الإمام وحركته واهدافه كل
الانسجام ، وكان يريد أن يخطو خطوات جريئة ، ويحدث تغييرات عميقة بعيدة
المدى في نظام الدولة ، وفي المجتمع المسلم الخاضع لهذا النظام ، ونفذ -لاول مرة - بعض الإصلاحات التي كانت تؤثر على اقتصاد الدولة ، تطبيقاً لبعض الاحكام الصريحة في الشريعة الإسلامية.
وقد اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً متورعاً ، يتمسك بالشريعة ويعمل بها ، والتي نكتفي في الإشارة إليها ببعض الامثلة التي تلفي الضوء على
نبذة من حياته الدينية.
يقول مؤرخ الهند الاشتاذ ذكاء الله الدهلوي :
" كان شهر رمضان وكانت تهب السموم اللافحة ، وكان النهار طويلاً، ولكن السلطان يصوم النهار ، ويقرأ الاوراد ، ويتلو القران ، ويحفظه غيباً، ويكتب ويؤلف ، ويدير دفة شؤون الدولة ، ويقوم بأعمال المحكمة والقضاء
والسلطة ، وبعد أن يدخل " مسجد غسل خانه مسجد الدرة " المعروف في
داخل القلعة الحمراء فيصلي المكتوبات والتراويح والنوافل حتى ينتصف الليل ، فيتناول قليلاً من الطعام ، وقليلاً ما يهجع وينام ، ويحمى بفية الليل بالقيام ، ويحمى بعض الليالي ذات الخيرات والبركات كلها ، وهكذا يفضي شهر رمضان " .
ويقول المؤرخ وهو يصف حاله عند احتضار 5 :
" علبته الحمى العام الواحد والخمسين من جلوسه ، الموافق 18 ا اهـ، والتزم الصلاة بالجماعة - رغم شدة ا،لمرض - أربعة أيام ، لكمال تورعه وتقوا 5 ، وكان قد كتب وصية من قبل ، أوصى فيها بأن ينفق اربع روبيات ونصف روبية - وهي ما بقي مما اكتسبه بيده بخياطة القلانس - فيشترى بها
ما يحتاج إليه في التكفين والتدفين ، وتوزع ثمانمئة وخمس روبيات ، وهي ما
حصلت له من أجرة كتابة المصاحف ، على الفقراء والمساكين ، ولما كان يوم
الجمعة 28/ذي الفعدة عام 51 للجلوس ، الموافق 118 اهـصلى السلطان

صلاة الفجر ، ثم اشتغل بالتهليل ، حتى فارق هذه الدنيا الفانية
بعد أن تعالى
النهار ، ورحل للأبد إلى دار القرار "(1) .
عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسباَ وأمره بأن ينهى
الناس عن جميع
المحرمات ، خاصة عن شرب الخمور ، وتناول الحشيش وجميع
المسكرات ،
وجميع الفواحش ، ويمنعهم - قدر المستطاع - من جميع
السيئات والمنكرات .
ويقول المؤرخ في حوادث ووقائع السنوات من عام 1 1
للجلوس إلى 1 2
للجلوس ، الموافق عام 078 1 هـ.
"كان السلطان يزداد - كل يوم - اهتماماً باجراء الأحكام
الشرعية
وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر
فرامين (أوامر
رسمية) مفصلة لإلغاء الضرائب غير المشروعة التي كانت تبلغ
مئات الآلاف
من الروبيات كل عام ، وكانت تدخل في الخزانة السلطانية ،
وكان يأمر ب!غلاق
الحانات والخمارات ، ومكامن الريبة والفساد " (2).
ويزيد قائلاً:
" أمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء ، ونهى عن اجتماع الناس
تحت قصر

(1) " الإمام السرهندي " ص
( ) 30 0 .
(2) أيضاً ص 302 .
( ) أيضاً ص 302 .

ويقول المؤرخ نفسه:
" وصدر الأمر في تلك الأيام - بأن المسلمين عند مقابلة السلطان ينبغي أ ن
يقتصروا على ان يقولوا : السلام عليك ، ولا يضعوا أيديهم على رؤوسهم مثل
الكفار ، ويجب على الحكام والأمراء أن يتبعوا ذلك مع الخاصة والعامة "(1) .
يقول الدكتور محمد إقبال الشاعر الإسلامي المشهور في إحدى قصائده :
" ذاك السلطان أورنك زيب ذو المجد السامق الذرى الذي تباهي به الأسرة
الكوركانية(2) وتعتز به ، علا به نجم المسلمين ، وارتفعت مكانتهم ، ونالت به
الشريعة الإسلامية عزها وكرامتها ، كان السهم الاخير في كنانة الإسلام ،
للحرب الحامية بين الكفر والإيمان ، تعرضت الأمة الإسلامية لمحنة عطيمة
بسبب بذرة الإلحاد والزندقة ، التي بذرها أكبر(3) وسقاها ونماها ، والتي
نشأت - مرة ثانية - في فطرة داراً شكوه ، وكانت شموع القلوب في الصدور
خامدة مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك.

(1) و أيضاً ص 4 0 3 .
(2) الأسرة المغولية التركية.
(3) هو السلطان جلال الدين أكبر التيموري ، جد السلطان أورنك زيب ، الذي خطط
تحويل شبه القارة الهندية من الإسلام إلى البرهمية ديناً وحضارة وفلسفة ، ونفذ كثيراً
(4) من ذلك بمساعدة من حوله من العلماء الملحدين ، ورجال البلاط

ونسيج وحده في صف الملوك والسلاطين ، ومثالًا فريداَ في زمرة الزهاد والناسكين "(1) .

ويقول الأديب الكبير المؤرخ الأستاذ علي الطنطاوي في كتابه " رجال من التاريخ " :

" حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل ، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره ، وكانت بيده مفاتيح الكنوز ، وكان يعيش عيش الزهد ، ما مد يده ولا عينه إلى حرام ، ولا أدخله بطنه ، ولا كشف له إزاره ، وكان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا ارغفة معدودة من خبز الشعير ، من كسب يميثه من كتابة المصاحف لا من اموال الدولة.

هذا هو الملك الذي قلت أنه كان بقية الخلفاء الراشدين ، وما رأى الناس بعده ، وقلما رأوا قبله مثله ، رحمة اللّه على روحه الطاهرة "(2) .

وقد شرح اللّه صدر صاحب كلمة التقديم أن ينشر ما جاء في الجزء السادس من كتاب والده العلامة السيد عبد الحي الحسني (م ا 34 اهـ) الذي أسماه " نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر " في ثمانية أجزاء في تراجم أعلام المسلمين في الهند ، ويعاد طبعه للمرة الثالثة باسم "

(1) " رموز بيخودي ، الديوان الفارسي ص 98 .

(2) رجال من التاريخ للأستاذ علي الطنطاوي ، مقإل " بقية الخلفاء

إيماناً بتأثير الإسلام في الأجيال والعهود المختلفة والأسر الحاكمة المطلقة.

وقد سبق لكاتب هذا التقديم أن أفرز ترجمة السلطان المظفر البطل الناصر لدين الله ، السلطان صلاح الدين الأيوبي فاتح بيت المقدس (1)، ومعيد فلسطين والقدس إلى دولة الإسلام والمسلمين ، من كتابه " تاريخ دعوت وعزيمة " الجزء الأول ، نقله إلى العربية الأستاذ محمد أجمل الإصلاحي الندوي ، وطبعته مكتبة دار الفلم في دمشق ، وها هو القسم الثاني من سلسلة أبطال الإسلام والملوك الصالحين ، المنفذين لأحكام الشريعة المطهرة ، المقيمين لدولة الإسلام ، والعائشين في ظل أحكام الشريعة والدين تطبيقاً وتنفيذاً ، وحماية وحمية ، عسى أن يكون في ذلك حافز لأولي الأمر وأصحاب السلطة والنفوذ في الأقطار الإسلامية والمجتمعات المسلمة ، للاحتذاء بحذوهم ، ومثير لغيرتهم الدينية ، وحميتهم الإسلامية ، وما ذلك على الله

I*I ء

(1) قد سبقت هذه الترجمة في صفحة 36 من

شيخ ا!سهـالم احمر بر لمحبر الرحيي الرّهلويما
خطواته في الإصلاح والتجديد (1)

قام الشيخ احمد بن عبد الرحيم إلدَّهلوي (1114 - 176 اهـ) المشهور بالشيخ ولي اللّه بعملية التجديد والإصلاح ، وهو أحد حكماء الإسلام ونوابغه وكبار المفكرين الإسلاميين (في الهند) ، من طراز الإمام الغزالي ، وشيخ
الإسلام ابن تيمية ، وقد لاحظ خمس نقط في حياة الشعب الهندي .
خطته في الإصلاح :
ا - إن كثيرا من المسلمين قصَّروا في فهم التوحيد الإسلامي ، واحاطت بعقيدتهم غيولم من الجهالات والظنون الفاسدة ، وال!عادات الجاهلية ، فلا بدَّ
من إبراز هذا " التوحيد " في نقائه ووضوحه ، وشرح ماكان عليه أهل الجاهلية من اعتقادٍ في اللّه ؟ حتى يظهر الفرؤا بين عقيدتهم وبين ما جاء به
الإسلام .
2- يجب أن يكون للشعب اتصالٌ مباشرٌ بالكتاب والسث! ، وقد حالى العلماء بينه وبين دراسة القرآن وفهمه ، بعأ تعذر فهمه للعامة ، وخوف انحلالى سلطتهم الروحية ، وسيادتهم العلمية ، فلم يترجموا ألفاظ القران إلى
لغة البلاد ، ولم ينشروا كتب الحديث ، فلا بدَّ إذاً من نقل معاني القرآن وأحكامه إلى لغة البلاد ، والإقبالى على كتب السن! وحديث رسولى اللّه -!يم -.
3- ثقافة علماء الهند ضعيفة ضئيلةٌ في العلوم الدِّينية ، وبضاعتهم مزجاةٌ

1) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها الثاني ، المجلد الواحد

في الحديث خصوصاً ، فلا بدَّ من نشر علم الحديث ، فدرس الصحاح ، والموطأ ، واقبل على دراسة هذه الكتب ، حتى اصبحت للهند مكانةٌ مرموقة
في العالم الإسلامي في خدمة الحديث ، بفضل جهود هذا البيت العظيم ومؤسسته.
4 - لاحظ أنَّ العالم الإسلامي سوف يستقبل عصرًاً عفلياً ، وثورةً فكريةً، فلابدَّ من شرح نظام الخلافة في الإسلام ، وأساليب الإسلام ، وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، فألَّف كتباً لا تزال فريدةً في مكتبة الإسلام العامرة ،
(حجة اللّه البالغة) و (إزالة الخفاء في خلافة الخلفاء) .
5 - لاحظ انَّه لا امل في نهضة الأسرة الملكية الهندية ، وتجديد شباب الدولة التيمورية ؟ لأنه - كما قال ابن خلدون - :
" إذا نزل الهرم بدولة لايرتفع " فلافائدة في بذل القوة لإصلاحها وتقويتها ، ولا بدَّ من إعداد جماعةٍ تحدث انقلاباً إسلامياً ، وتؤسس دولةً إسلاميةً جديدةً على أسالت! ديني علمي جديد.
نجاحه في عمله:
قام الشيخ ولي اللّه واصحابه بمهمة هذا التجديد الإسلاميِّ خير قيام ، فنشروا العلم الصحيح ، وأذاعوا مصادر الدين الأولى ، وألفوا كتباً دسمةً قويةً
مبتكرةً ، تمهد العقول والنفوس لإحداث انقلابٍ إسلامي ، وإنشاء دولةٍ إسلاميَّةٍ ، وخرَّج تلاميذاً ورجالأ يقومون بهذه المهمة ، وقام بعده نجله الاكبر
سراج الهند الشيخ عبدالعزيز الدَهلوي (م 239 اهـ) فدرَّس وألَّف، وخرَّج ، وخلَّف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول ، نشروا علم الحديث، وشمروا عن ساق الجدِّ ، في نصر الدين ، ومحاربة البدع ، والدعوة إلى الكتاب والسنة ، وتزكية النفوس ، حتى نفقت سوق الحديث ، وقامت دولة
العلم ، واستعدَّت النفوس للنصر المؤزر للدين.
لم يقتصر الإمام الدَّهلوي على هذه الخطابات الخاصَة لهذه الطبقات الخاصَّة من الناس ، بل شدَّد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية،
والبدع والشعائر غير الإسلامية التي تسرَّبت إلى المجتمع المسلم ، وشاعت

فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهنادك ، ومواطنتهم بعدَة قرون ، وعدم الاهتمام بالسنَّة المشرفة ، والحديث الشريف ، وغفلة العلماء ، وتقصيرهم ، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسؤوليتها ، وفقدان الحسِّيَّة الدينية ، فالتزم بها المسلمون التزاماً شديداً.

شنَّع الشيخ عبد العزيز الدهلوي على تلك المعتقدات الباطلة ، والأوهام والخرافات الجاهلية ، وتقليد غير المسلمين ، واتباعهم ، وعابهم عليه ، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العفلية والفنون الحكمية لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالًا ، ويرونها هيِّنةً خفيفةً ، أو يتغاضون عنها فراراً من الوقوع في المشاكل ، ومعارضة الجماهير.

الإمام احمد بن عرفان الشهيد + رحمه الفه - ورفقته ، وتاثيرهم في الحياة :

وفي الربع الاول من القرن الثالث عشر الهجري قام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (1 120 - 246 اهـ) الذي تخرج على الشيخ عبد العزيز - ومعه الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني بن الشيخ ولي الله الدَّهلوي - فدعا الناس إلى الدين الخالص ، والتوحيد ، واتِّباع السنة ، وحارب الشرك ، والجاهلية، والبدع محاربة سافرةً شديدةً ، وبث في الشعب روحاً دينيةً قويةً لم تعهد من قرونٍ متطاولةٍ ، ودعا الناس إلى الإيمان ، والإحسان ، والتقوى ، والجهاد ،

وتدلىُّ الإحصاءات الدقيقة الأمينة للمنتفعين بهذه الدعوة ،
والتيار الدينيِّ
القويِّ العاصف ، على قوة تأثير الإمام أحمد بن عرفان الشهيد
- رحمه الله - ،
واتساع نطاق من انتفع به ، وتغيَّرت حياته عقائدياً وعملياً ،
وخلقياً ، فقد

الشعخ إسماعيل الشهيد - رحمه اللّه - :
أما الشيخ إسماعيل الشهيد ، فقالى الشيخ محسن بن يحى الترهتي في
" اليانع الجني " :
" - إنَّه كان أشدهم في دين اللّه ، وأحفظهم للسنَّة ، يغضب لها ، ويندب
إليها ، ويشنِّع على البدع وأهلها " .
وقال! العلامة صدِّيق بن حسن القنوجي (م 307 اهـ) في " الحطة بذكر
الصحاح الستة " في ذكر الشيخ ولي اللّه بن عبد الرحيم الدَهلوي :
إن ابن ابنه المولوي محمد إسماعيل الشهيد - رحمه اللّه - اقتفى أثر جدِّه
في قوله ، وفعله جميعاً ، وتمَّم ما ابتدأه جده ، وأدَّى ما كان عليه ، وبقي
ما كان له ، واللّه تعالى مجازيه على صوالج الأعمالى ، وقواطع
الالمحوال!،
وصحاح الأحوال! ، ولم يكن ليخترع طريقاً جديدأ في الاسلام ، كما يزعم
الجهالى ، وقد قال! اللّه تعالى:
" مَا كاَنَ لِبشًرٍ أَن يُؤتِيَهُ اَدلَّهُ اَئكِنبَ وَائحُكمَ وَاَفبُى تُئمَ لَمُولَ لِلنَّاصس
كُونُواْ
عِب!صا لى مِن دوُنِ اَلئَهِ وَلَبِهن كوُدؤُاْ رَبَنِينَ لمَا كنُتُ! تُحَدُّونَ اَلْكِتَبَ وَبِمَا
كنُمُض تَذرُسُونَ"
أ آل عمران : 79) ، وهو رحمه اللّه تعالى أحيا كثيراً من السنن المماتات
، وأمات
عظيماً من الأشراك والمحدثات ، حتى نال! درجة الشهادة العليا ، وفاز
من بين
أقرانه بالقدح المعلَّى ، وبلغ منتهى أمله ، واقصى أجله.
أما كتاب " تقوية الايمان " فإته كتاب أصبج شعاراً وعلماً للذَعوة إلى
التوحيد ، وبيان الحقِّ الصريح ، وقد نفع اللّه به خلائق في شبه القارة
الهندية،

لا يحصيهم إلا من احصى رمال عالج ، وحصى البطحاء ، وقد بلغ عددهم
إلى ملايين من غير شأ.
وقد صدر هذا الكتاب عن قلبٍ جريح يتقطَع بمشاهدة ماكان عليه
المسلمون في ذلك اليوم من بعدٍ من التعاليم الإسلامية ، وخضوعٍ للوثنية
الهندية ، وتمشُكٍ بالعادات الجاهلية ، وقد زاد في تأثيره وقبوله ، دموع
عينٍ
باكيةٍ على الإسلام ، ودآ زكي أريق في سبيل إحياء هذا الدين ، وإدالته من
الجاهلية ، وتاسيس حكومةٍ شرعثةٍ تقوم على منهاج الكتاب والسنة ،
ويكون
الدين كلُى لئه.
وقد قرن - رحمه الله - الذعاء بالدعوة ، والجهد بالجهاد ، والشهادة للحقِّ
بالشهادة في الحق ، وذلك لباب التوحيد ، وغاية الإخلاص ، وكمال
الصدق ، وتمام الوفاء ، وصدق اللّه العظيم:
" مِنَ اَتمُؤمِنِينَ رِجَال صَدَقُوأ مَا عهَدُوأ اَلئَهَ عَليهِ فَمِنهُم مَن قَضَئ نَخبَكُل
وَمِنْهُم مَن يخظِرُ
وَمَا بَذَلُوْا لتدِيلَا " أ الأحزاب : 123 فكان لكتابه من القبول والتاثير ،
والذيوع
والانتشار ما لايكون إلا لكتابات كبار المخلصين ، والعلماء العاملين،
والدُعاة المجددين.

وسرُ قوَة الكتاب صراحته ، وتشخيصه للأدواء ، ومظاهر الشرك
،
ومواضع الانزلاق ، وانه يضرب على الوتر الحساس ، ويصيب
ضعف
الاعتقاد ، وما فتن به المسلمون في العهد الأخير من الغلؤ ،
والتقديس،
والتعظيم ، وتقليد الأمم الوثنية ، والعادات الجاهلية في
صميمه ، وقد اعتاد
الناس ألا يفزعوا للمواعظ والخطب التي تلقى على المنابر ، أو
البحوث
العلمية التي تتناول موضوع التوحيد والشرك بصفةٍ إجمالي!
عامَّةِ ، إذا لم

واسقامهم ، وحذَد مواضع فتنتهم ؟ لم يسعهم ان يتغافلوا عنه ، فأعلنوا.
الحرب عليه ، ونادوا بعدائه ، وهذا شان الدَّاعي المخلص الذي ملكته
الفكرة ، واستحوذ عليه الشعور ، وتذؤَق القرآن ومنهج الأنبياء في دعوتهم
تذوقاً حقيقياً ، فإنَّه يتدبَز القران ، ويرضي ربه ، ويريح ضميره ، ويبرىء
. (1)
دمته.

مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنه والعاملين بالحديث:
ونشطت حركة نشر الحديث ، والذَعوة إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع
والخرافات بعد ما قام تلاميذ الإمام ولي الله الدَّهلوي ، وانجاله ، وأحفاده
بتدريس كتب الحديث ، ومعاداة البدع ، والعادات الجاهلية المحلية ، وقام
السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد - رحمه اللّه - ، والعلامة محمد إسماعيل
الشهيد -رحمه اللّه -، بالدَّعوة إلى الدين الخالص ، والعقيدة الصحيحة
السنيَّة ، والرجوع إلى ما كان عليه السَّلف الصالح والقرون المشهود لها
بالخير ، ونشطت العفول ، وتحركت الهمم ، وكثر الدعاة إلى الدين،
والمكافحون للفساد ، وكثر المعتنون بعلوم الكتاب والسنَّة ، والمؤلفون في
المقاصد الدينية ، في اللغة الأردية الشعبية في أسلوبٍ سهلى واضح .

(1) نقل العلامة الندوي هذا الكتاب إلى العربية وسماه : " رساله التوحيد أ وقد اطلع
(2) عليه أْحد الأساتذة السعوديين الكبار ، فقال : " هذا منجنيق التوحيد !
.

" رزقه النّه سبحانه عمراَ طويلاً ، ونفع بعلومه خلفاَ كثيراَ من اهل العرب والعجم ، انتهت إليه رئاسة الحديث في بلاد الهند ، وكان ايةً ظاهرة ، ونعمةً
باهرةً من اللّه سبحانه في التقوى ، والديانة ، والزهد ، والعلم ، والعمل، والقناعة ، والعفاف ، والتوكل ، والاستغناء عن الناس ، والصدق ، وقول انحق ، والخشية من اللّٰه سبحانه ، والمحبة له ولرسوله -ءلمجييه - ، وكان شديد
الإنكار على ما خالفه من المذاهب ، مُداعباً ، مزَاحاً ، متواضعاً ، حليماً ، ذ ا

!ځ؟-3

(1) ليرجع إلى الجزء الثامن من كتاب " الإعلام بمن في تاريخ الهند

السن! ا!مالم احمر بر لمحرفا!
مجدّد القرن الثالث

الحمد للّه رلت العالمين ، وصقَى الله على سئدنا ومولانا محقَدٍ وعلى آله
وأصحابه الطَاهرين الطيبين ، ومن اتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدَين.
أما بعد ! فلم تزل سنَة اللّه في عباده ولا تزال - ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً-
أن يبعث فيهم - وقد أخذ الشيطان قيادهم ، وذهب بهم النسيان مذهبه حتى
" ل!واْ اَللَّهَ فَأَلنسَهُتم أَنفُسَهُتم " أ الحشر : 9 1 1 - مذكراً مبشراً منذر اً.
فترى أنَ الإنسان يذكر شيئاً فكأنَه لا ينساه ابداً ، ثم يضرب عنه صفحاً،
فكأنه لم يكن قطُ على ذكرٍ منه " وَكَاَنَ اَقيِلضنَنُ أَتحزً شَئ: جَدَلَا " أ الكهف:
54 ، .
" وَلَقَد عَهِذنَا اكَ ءَادَمَ مِن قثلُ فَنممِىَ وَلَتم نَجذ لَإُ عَرما " أ طه : 115 ، ،
" وَلَبِهن مَئعتَهُؤ !اجمآءَهُئم حَتَّى لنَسُوأ اَلذتحرَ وَكاَنوا فَؤما بُو! " أ الفرقان : 18 ، ،
" فَلَمَّالنسُوأ مَاذُئحِرُوأ بِه هتَحْنَا عَلَيهِض أَتوَبَ صُلِ شَىءً حًئئ اذَافَرِحُواْ بِمَاَ أُولؤاْ أَخَذْنَهُم
بَفتَة فاذَا هُم مُتلِسُونَ " أ ا!نعام : 44 ، ، " فَلَمَّالشُواْ مَا ذُئحِرُوأ بِهِء أَنجَتنَا الَذِينَ يَخَفتَ
عَنِ اَلشُوَءَ وَأَصَذْنَا اَئَذِجمتَ ظَلَمُو) بِحَذَابم دئممِى بِمَاكاَنوُأ يَفسُفُوتَ " أ ا!عراف : 165 ،
،
" فبِمَا نَقضِ!م مِّيثَقَهُم لَعَئهُخ وَجَحَقنَا قُلُوبَهُغ قَسِيَة !كُرفوُتَ اَلحَ!عَن
ئَوَاضِعِهِ! وَنسُوا حَظا مِمَا ذُكِرُواْ بِهء " أ المائدة : 13 ، ، " وَلَا تَكوُلُوْا ؟ تَذِينَ دنَمُواْ اَدئَهَ
فَأدنسَحهُتم أَنفُسَهُتم " أ الحشر : 19 ، ، فلا بذَ من التذكير ولا غنى عنه " !وَاَتْلُ

1) هذه أول مقالة للعلامة النَّدوي كتبها وهو في الخامسة عشرة من عمره ونشرها العلامة
رشيد رضا في مجلته الغراء " المنار " في عدد (ذي الحجة) 349

عَلَخهِغ نَبَأَ لؤُحً إذ قَالَ لِقَؤمِمِ! يَقَوْ! إن كاَنَ كَبُرَ عَلئ! مَقَاىِ وَتَذبهِيِرِى ئايَتِ أللَّهِ فَعَلَى ألئَهِ
تَونَحَتتُ فَأخمعُو) أَتبكُتم وَشُرَكاَبَهتُم " أ يون! : 71 ، ، " وَذَ!زهُم بِأَنممِ أللَّهِ"
أ إبراهيم : ه ، ، " فَذَكِرِ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَ!ر " أ الغاشية : 1 2 ، .
وكان محمد !ر خا تم النبيين " مَاكاَنَ ط !بَآ أَصَم مِّن رِّجَالِكُتم وَلَبِهن رَّسُولَ اَدلَّهِ
وَصَاتَوَ ألئبتنَ " أ ا!حزاب : 40 ، به أكمل الله للبشر دينهم ، وأتئمَ عليهم لْعمته.
مجددو الأمة ومصلحوها بعده :
قال !يم : " لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من
خالفهم " رواه الشيخان ، وغيرهما وفي السنن : " إن الله يبعث على رأس كل
مئة عامٍ من يجدِّد لهذه الأمة امر دينها " رواه أبو داود ، وغيره .
فلم يزلً في هذه الأمَّة من جدَّد لها أمر دينها ، وأيقظها وقد طال بها
الكرى ، وبثَّ فيها روح الحياة والعمل.
وأرجو ان يكون السيد الإمام أحمد بن عرفان مجدِّد القرن الماضي ، وأنا
على ثقةٍ وبصيرةٍ إن شاء اللّه ، فمنه كان عصر النهضة الإسلامية ، وإليه يرجع
فضل النشأة الحاضرة .
حالة الهند العامَّة في عهد نشأته:

انتهت الحرب السياسية التي دارت بين المسلمين واليسوعيين في الفرن
الثامن ، وذهبت على أثرها السياسة الإسلامية ؟ إذ ذهبت الحمية الإسلاميَّة،
وسكرة العزَّة المدنيَّة ، وفقد العالم الإسلامي نشاطه وروحه ، ولم يبق يومئذٍ
من الإسلام إلا اسمه ، ومن الدين إلا رسمه.
طرات على الهند حوادث سياسيةٌ ، فكثر المفسدون ، واخذوا يعيثونِ فيها
فساداً ، ويغرسون بذور الفتنة استئثاراً بالإمارة ، فلم يكن فيها من يكبج

يقتل بعضهم بعضاً ، وكانوا مع الحروب الدَاخلية يحاربون عدواً آخر وهو
الفرنساويون ، فانكسروا ، وانكسر الفرنساويون ، وال الأمر إلى الإنكليز.
أما ملوك دهلي (1) فبقوا كأعجاز نخل خاويةٍ ، أو خشب مسندةٍ ، حتى إذا
استشهد المغفور له السلطان طيبو الذي حارب الإنكليز ، ودفع عن
المسلمين
سنة تسع وتسعين وسبعمئة وألف ميلادية ؟ ضاقت على المسلمين أرض
الهند ، وكادت تلفظهم.
إنَ مما امتاز به العرب عن غيرهم أنَهم إذا دخلوا قريةً غئروا دينها،
ومدنيتها ، واجتماعها ، ومعاشرتها ، وآدابها ، ولسانها من غير جبرٍ ،
ولا استكراه ، وانقاد أهلها رضاً وطاعةً لهم ، وحباً وكرامةً لطاهر
عواطفهم
الملية ، ولكرمهم وتقواهم ، وحسن معاملتهم لهم.
وأما ملوك الهند وفاتحوه ؟ فقد خلوا من تلك العواطف الملية الطاهرة ،
وإنما ألجأتهم إليه مطامعهم ، فزحفوا ، وفتحوا عليه وحكموا ما شاء الله أ
ن
يحكموا ، فداس أكثرهم أحكام الإسلام ، وشرائع الدِّين ، كما يظهر من
أعمالهم المنكرة التي يأباها كلُّ ذي ضميرٍ حي فضلاً عن المتدينين.
فالتيموريون لما استقرَّت بهم الحكومة أراد بعضهم ان يستتب أمره ، فلم
يجد بداً من معاضدة الوثنيين له ، فألان جانبه لهم ، حتى ازورَّ جانبه عن
المسلمين ، ومال إليهم ميلاً شغله عن الدين ، بالرغم من المتدينين ،
فتزوج
فيهم ، وخرَّ لأوثانهم ، وصار كأنَّه واحد منهم ، لا يخيَّل لأحدٍ أنه مسلم ، ثم
أمرهم بعبادة شخصه ، فخرُّوا له سجداً ، وكفَّروا له(2) .
فهذا كان شأن الحكومة الإسلامية في الهند في ربيع حياتها ، أو ريعان
شبابها ، فما ظنُّك بها في وهنها وهرمها؟
اتخذوا القران هزؤاً ، بل كان تلقينه والاستمساك به ذنباً لا يغفر ، فلم
(1) دهلي : مهد الحكومة الإسلامية ومدفنها كانت بغداد الهند وقرطبتها
عدَة قرون .
(2) يقال : كفر الرَجال للملك مثلاً : إذا خضع له ، فوضع يده على صدره
وطأطأ رأسه
وانحنى تعظيماَ له.

يكن يوجد للقرآَن ترجمة في أي لسان إلا الترجمة الفارسية المنسوبة إلى الشيخ
سعدي رحمه اللّه ، حتى إنَّ الشيخ العلامة ولي اللّه بن عبد الرحيم الدَّهلوي
حين ترجمه خشي على نفسه ، واضطر أن يهاجر من الهند.
وأمَّا الحديث فلم يبق إلا روايات وأساطير كأساطير ألف ليلة وليلة ، كانوا
يسجدون بين يدي القبور سجودهم بين يدي اللّه ، فكان القبر قبلتهم التي
يتوجهون إليها ، وملجأهم الذي يلجؤون في شدائدهم وحاجاتهم إليه ، فكانوا
يزينونه ، ويزخرفونه ، ويطوفون به ، ويعكفون عليه ، وكانت تعقد عليه
الاشواق ، وتجتمع عندها المواكب ، وكلُّ امرىءً رضي بشيخه رائداً ، وإلى
النجاة قائداً ، حتى إذا توفي أحدهم دفنت معه صحيفة عليها اسم شيخه،
ونسبه ظناًانَها تقيه سوء العذاب .
ثم المتصوفون - تصوفاً مبتدعاً - احلّوا ما حرم اللّه ، وجعلوا المنكر
معروفاً ، والباطل حقاً ، واعتدوا وأسرفوا ، واتبعوا اهواءهم ، فضلُوا
وأض!وا ، ونبذوا كتاب أدلّه وراء ظهورهم ، واتَّخذوا دينهم لهواً ولعباً ، ولذةً
وطرباً ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، وكان الإسلام يومئذٍ كالمسيحية
ما هي إلا أوهام ، ومعتقداتٍ ، وأسماء سموها استغناءً بها عن الأعمال .
أخلاقهم ومعاشرتهم:

فسدت أخلاقهم فساداً ما وراءه غاية ، كانت أنديتهم أندية الرِّجس،
زينتها المومسات ، حتى إنَّ كبار الأشراف كانوا يرسلون صغارهم يتعلمون
منهنَّ الاَداب ، وكانوا يشتغلون بالقمار ، والخمر ، والمسكرات ، والملاعب
السَّافلة ، ولم يكن لهم شغل عنها.
وأما الامراء ؟ فقد جرى بينهم من الأمور من الامور السَّافلة الدنيئة
ما لا طاقة لذي شرفٍ ولا ادب على سمعه.

لم يأت على المسلمين حينٌ من الدَهر مثل هذا الحين ، فقد ابتلوا بلاءً
عظيماً ، ذهبت ريحهم ، وخابوا ، وخسروا لما فقدوا الدّين والسياسة،
فكانت الأمَّة كمريضٍ نهكته الأمراض ، وبلغت منه مبلغها ، وجرت مجرى
الرّوح والدَّم ، وثقلت عليه وطأة الدَاء ، وذهب رئيس أعضائه ، وحارت فيه
الاظباء ، وبلغ اليأس منتهاه .
فما ظنك برجلٍ قام لمعالجته ؟ ما ظنّك برجل قام في مثل هذا الوقت
لرأب الثَّأي(1) ، ورتق الفتق ، ما ظنّك برجل قابم للمدافعة عن المسلمين لما

و لا د ته:
ولد في غرَّة المحرم الحرام سنة إحدى ومئتين وألف - وقيل : في صفر-
من أسرةٍ كريمةٍ ببلدة (رائي بريلي) من أعمال لكهنؤ في زاوية جدَه السيد علم
اللّه النفشبندي البريلوي ، من ذرية الامير الكبير بدر الملة المنير شيخ الإسلام
الامير قطب الدين أحمدبن محمد المدني ، ومن أبٍ كريمٍ اسمه السيد
عرفان ، ينتهي نسبه إلى حسن بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما.
دراسته:
لما بلغ الرابعة من عمره دخل المكتب ، ومرَّت به سنوات لم

(1) الثّأيُ والثّأي : الخرْم ، والفساد ، والضعف ، وأثر الجرح ، يقال : رأب الثاي

القراءة ، فقال أبوه : دعوه وشانه ، وكلوه إلى اللّه سبحانه ، فأعرض عنه،
ولما بلغ الثالثة عشرة من عمه عكف على القرآن ، وعني به ، فكان يتدثره
ليلاً ونهاراً ، فعلت مداركه ، وصقلت مرآة قلبه ، ولبم تكد نفسه تقنع من
خدمة الضعفاء ، وأبناء السبيل ، والأرامل ، والأيتام ، فكان يذهِب إلى
بيوتهم ، ويقضي حوائجهم ، ويستقي ، ويحتطب لهم ، ويجتلب اي!متعة من
السوق ، قائماً صائماً محيياً ليله في دعاءَ أو صلاةٍ تضرُّعاَ.
من رائي بريلي إلى لكهنؤ:
لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره حتى ذاق مرارة اليتم ، فاضطرَّ أن يتوئَى
أمر أسرته ، وألجأته قلَّة الوسائل إلى مهاجرة الوطن ، فشخص إلى لكهنؤ مع
سبعة رجال من عشيرته ، ولم يكن لهم إلا فرس واحدٌ كانوا يتعاقبون عليه
(يتناوبونه) وهو يترك نوبته لهم ، واحتاجوا إلى حضَال يحمل أثفالهم،
فسألهم أن يضعوها على رأسه ، وألخَ عليهم ، وجعل ينشدهم الثه،
فوضعوها ، وبلغ لكهنؤ فاحتملها ، فلقيه أحد رجال السياسة ، فاحترمه،
وأحسن مثواه ، وفوَّض إليه خدمتين من الخدمات العسكرية فأعطاهما لرجلين
من رفقائه ، وكان يصنع له طعاماَ جيداً كل يوأ فلا يأكل منه ،

١) الشيخ الإمام العالم الكبير العلأَمة المحدث عبد العزيز بن ولي الله بن عبد الرحيم

أبي سعيد(1) ، وابن أخ السيد نعمان (2) احترمه غاية

وبعضهم حخة الله ، ولد ليلة الخميس لخمس ليال بقين من رمضان
سنة تسع
وخمسين ومئة وألف (159 اهـ) حفظ الفرآن الكريم ، واخذ العلم
عن والد 5 ،
فقرأ عليه بعضاً ، وسمع منه بعضاًآخر بالتحقيق والدراية ، والفحص
والعناية ، حتى
حصلت له ملكة راسحة في العلوم ، ثم أخذ عن أجلة اصحاب والد 5
ما فإته وانتفع
بهم ، كان - رحمه الله تعالى - احد أفراد الدنيا بفضله ، وآدابه ،
وعلمه ، وذكائه،
وفهمه ، وسرعة حفظه ، اشتغل بالدرس والإفإدة ، وله خمس عشرة
سنة ، ضدرس ،
وأفاد حتى صار في الهند العلم الفرد - تخرج عليه الفضلاء ، وقصدته
الطلبة من
اغلب الأرض ، وتهافتوا عليه تهافت الظمان على الماء ، وكان مع
الأمراض المؤلمة
1) والأسقام المفجعة - لطيف الطبع ، حسن المحاضرة ، جميل المذاكرة
، فصيح
المنطق ، مليح الكلام ، ذا تواضعٍ ، وبشاشةٍ ، وتودُدٍ لا يمكن الإحاطة
بوصفه،
وجملة القول فيه : إن الله تبارك وتعالى قد جمع فيه صنوف الفضل
وأشتاته التي
فرقها بين أبناء عصره في ارضه . مختصراَ من كتاب " نزهة الخواطر
وبهجة المسامع
والنواظر ا للعلأمة الفاضل السيد عبد الحي رحمه الله الرائي بريلوي
ناطم ندوة
العلماء سابقاَ.
السيد الشريف أبو سعيد بن محمد ضياء الدين بن آية الله بن الشيخ
الأجل علم الله
2) النقشبندي البريلوي أحد العلماء الربانيين ، ولد ونشا ببلدة رائي بريلي
، ثم رحل
إلى دهلي ، ولازم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الذَهلوي ، وأخذ عنه

مسجد الأكبر ابادي عند صنو 5 عبد القادر ، وأوصا 5 به ، فتلقى منه شيئاً نزراً
من العلم ، بايع الشيخ عبد العزيز ، وأخذ عنه الطريقة حتى نال حظاً وافراً من
العلم والمعرفة ، وفاق الأقران ، وإتى بما يتحيَّر منه أعيان البلدة في العلم
والمعرفة ، وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومئتين والف (1222 هـ) .
ثم غلب عليه شوق الجهاد في سبيل اللّه ، فذهب إلى معسكر الأمير
المجاهد . ... نواب ميرخان ، ولبث عنده بضع سنين ، وكان يشتغل
بالحرب ، ويقوم ويصفَي حتى تورمت رجلا 5 ، وكان يحرضه على الجهاد ،
فلما رأى ائه يضيع وقته في الإغارة ، ويقنع بحصول المغنم ؟ تركه ، ورجع
إلى دهلي ، فدخل في بيعته الشيخ عبد الحي بن هبة اللّه البرهانوي ، وكان
فاضلاً متضلِّعاً إماماً عالماً كبيراً ، والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدَهلوي ،
وكان ممن يشار إليهم بالبنان ، فجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً،
فكأن اللّه جمع قلوب أهل التقوى على محبته ، والدُعاء له ،

بريلي ، وبايع السيد محمد بن علم الله البريلوي ، ولازمه زماناً ولما توفي السيد
محمد المذكور لازم ولده محمد عدل ، وأخذ عنه الطريقة ، ثم ساح البلاد ، وأدرك
المشايخ الكبار ، منهم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي ، وخلق اخر من

إسماعيل ، وكانت أرملةَ كبيرةَ السن ، ثم توارث فيهم.
وكان الشيخ إسماعيل بن عبد الغني ، والشيخ عبد الحي بن هبة الله
المذكورين ، وخلق اخر من العلماء والمشايخ في ركابه يأخذون عنه الطريقة،
ويكتسبون عنه ، فلبث ببلدة " رائي بريلي " ما شاء الله ، ثم سافر إلى لكهنؤ،
فبايعه ألوف من المجال ، وتلفاه الوزير معتمد الدولة بالترحيب والإكرام ،
[illegible]

الحجُّ قبل الجهاد ، ف!ته تمرينٌ له ، وتحريضٌ عليه ، فالوقوف بعرفة يشبه
القيام في ساحة الجهاد ، وفي السعي يين الصَفا والمروة والطواف ما يزيد
شوقاَ إلى الشهادة ، فاللّه قبل أن يأمر بالجهاد بئن أحكام الحج وشعائره ، وقال
!يم : " أفضل الجهاد حبئٌ مبرور " وقال عمر رضي الله عنه : شدُوا الزحال في
الحج ، فإنه احد الجهادين ، رواه البخاوي " فاراد السئ!د ا؟ لإمام ألا ينزل
بالعدو حتى يحجَّ ليزدادوا شوقاَ إلى الشهادة ، وخلوصاً دئه ، واستعداداَ في
سبيله ، ولتبلغ شهرتهم ونشاطهم أشدَها.
وكأن الناس امتنعوا عن الحج لما رأوا شرَ الأعراب (البدو) وفسادهم،
فأراد أن يحعى هذا الركن العظيم ، فسار رحمه الله ومعه سبع وخمسون وسبعمئة
من أصحابه ، وليس معه إلا دراهم معدودة ، فركب ، وبذلها على المساكين،
وقال : نحن أضياف اللّه ، لا نلجا إلى الدَينار والدرهم ، ومرَ

وعزَب لهم الشيخ عبد الحي كتاب " الصَراط المستقم " للشيخ إسماعيل، وحجَّ ، وزار ، وقفل بعد سنة حتى وصل إلى " رائي بريلي " في سنة تسع وثلاثين ومئتين وألف ، فلبث بها سنتين.
وبعث الشيخ إسماعيل والشيخ عبدالحي إلى بلادٍ شتَّى للتذكير والإرشاد ، فدارا البلاد ، وهدى الله بهما خلقاً كثيراَ من العباد .
وكان السيد الإمام يتجهَز للهجرة والجهاد ، فخرج مع أصحابه في سنة إحدى وأربعين من بلدته ، وسافر إلى بلاد أفغانستان ، فلما وصل إلى بلاد " بنجتار " وقف بها ، وحرَّض المؤمنين على الجهاد ، وبعث اصحابه إلى " كابل " وكاشغر ، وبخارى ليحرضوا ملوكها على الشركة والإعانة ، فبايعه الناس ، واجتمع تحت لوائه ألوف من الرَجال ، فرجع إلى الهند.
الجهاد :
" وَمَا ل! ! نُقَتِلُونَ فَى سَبِيلِ ألئَهِ وَاَتم!تَقحعَفِينَ مِى ألرئِيَ لِ وَألنِسَا وأتونِذَ نِ الَذِيئَ يَقُولونَ
رَئنا أَخرِجْنَا مِق هَدهِ أنقَريَةِ اَلظَّالِرِ أَهلُهَا وَاَضعَل لَناَ مِن ئَدُنكَ وَ-لعا وَآَجحَل ئَنَا مِن لًدُنكَ نَصِيزا "
أ النساء : 175 ، وكان يومئذٍ على بنجاب قومٌ طوال الشعور ، يقال لهم " سيكه"
وهم قومٌ أولو بأسِ شديدِ ،" نهض كبيرهم " كرونانك " في زمان بابر " مؤسس
الحكومة التيمورية في الهند " ولد سنة 1490 م وهو صاحب ديانتهم ، وله كتابٌ فتصدَّى لقتالهم بعض الملوك التيمورية في الهند فلجؤوا إلى الجبال حتى
ضعف أمر المسلمين ، فغلبوا على " بنجاب " فأوقدوا للمسلمين نار الحرب ،
ومنعوهم العذب ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وأجلسوهم الخوف (1) واستح!وا دماءهم وأعراضهم ، ومنعوا مساجد اللّه أن يذكر فيها اسمه ، وسعوا في خرابها،
فبعث إليهم الشيخ إسماعيل وكان رحمه الله بالغاً في الشجاعة والإقدام ، وتعلَّم فنون الحرب ، والمسابقة ، والرمي ، والسباحة ، حتى صار لا يدانيه أحد فيها ، فرجع وأخبره بما رأى فعزم على الرحيل ، وكتب إلى الدولة

(1) اي : ألزموهم

الإنكليزية ألا يتعرَّض لها ، فلم تتعرَّض له ، فسار على بركة اللّه ، ومعه عشرة
الاف ، فأتى كابل ، وبشاور حتى أقام على موضع " حوشيكي " .
ثم قدم " نوشيره " وعسكر هناك وكتب إليهم كتاباً إتماماً للحجَّة ان أجيبوا
دعوتنا دعوة الإسلام ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب اللّه ، وأقمنا على
أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، او الجزية نقبل منكم
فنكف عنكم ، وإن احتجتم إلينا نصرناكم ، فان أبيتم فالمناجزة ، ولستم اجرأ
على الموت منا ، وهو أحبُّ إلينا من الخمر والفسق إليكم ، والسلام على من
اتبع الهدى .
فسرحوا القائد " بده سنكه " في عشرة آلاف ، فأقام على بضع أميال من
" نوشيره " وبينهم وبين المسلمين نهر.
فلما بلغ السيد مسيره تعبًّا للقتال ، وولى الحروب رجالًا ، فجعل على
المقدمة الشيخ إسماعيل ، واستخلف على الميمنة الشيخ محمد يوسف،
وعلى الميسرة محمد يعقوب ، والشيخ " بدهن " وعلى الساقة إلهي بخش
خان ، وعلى القلب رجالًا ، وكان بنفسه على الميمنة ، وسيَّر تسعمئة متبوع
معروفين بالنجدة والبأس ، وأمَّر عليهم " إلهي بخش خان " وأمرهم بالإغارة
ليلاً ، فأغاروا عليهم ، واشتدَّت الحرب ، وطال القتال ، حتى كان لهم الفتج
بإذن اللّه ، وانهزم الكفار ، وولَّوا الدبر ، وكانوا كما تفدَّم عشرة آلاف ، فقتل
منهم سبعمئة ، وأُصيب من المسلمين اثنان وسبعون ما بين قتيل وجريح ، ولم
تزل الوقائع تفع بينهم وبين المسلمين ، فكانت الدولة للمسلمين عليهم،

ولكن أتى من الخوانين والا!اغنة ما استنكره دوو الرأي والعلم ، فاتفقوا
علص أن يبايعوه ، فتكون الأمة أمَّةً واحدة ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن
المنكر ، فمن تولى منهم اتبع غير سبيل المؤمين وولاه اللّه ماتولى
" وَمَن يُظَقِقِ ألرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُ آتهُدَى وَيَتَّبِغ غَئرَ سَبِيلِ آتمُؤمِنِينَ نُوَيةص‌ء مَا تَوَلَى
وَنُضلِهِ‌ءجَهَنَّمَ وَسَآ ب مَصِيزا " أ النساء : 15 1) .

فبويع في جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين ومئتين وألف ، وخطب له،
وذكر اسمه على المنابر ، فازدادوا عدداً وقؤَةً ، حتى بلغ عددهم إلى مئة
ألف ، ولكن تعصب أعداء الله ورسوله في شأنه ، وشأن أتباعه فنسبوا طريقته
إلى محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه اللّه ، ولقبوهم بالوهابية ، وزين لهم
الشيطان قولهم ، فصدوا عن السبيل ، وابتغوا الفتنة ، وقلبوا له الأمور ،
ورغبوا إلى الكفار ، وصاروا أولياءهم في الخفاء ، ولم يألوا

وقدمت الوفود وفيها الشيخ العلآمة عبد الحي ، ومعهم أموال ، وغنائم،
فأخصبوا ، وكان قد فني الزاد ، وأعوز القوت حتى أكلوا الخبط ، وأغاروا
على موضع " دمكله " وصار الشهيد في اثني عشر رجلاً ، فأغار على موضوع
" شنغزي " فعزم وقتل من الكفار يومئذ مئة ، وأهدى إليه " سليمان شاه "
عظيم " كاشغر " جاريةً ، فلم تزل معه حتى استشهد ، فذهبت إلى " تونك"
حيث أقامت حتى توفيت وولد منها ابنته السيِّدة هاجر.
ولماعلم المنافقون أنَّه ظهر له مكرهم ، وغدرهم جعلوا يحاربونه
علانيةً ، ونصبوا له العداوة ، فقاتلهم على مواضع كثيرةٍ ، وفتح الله له،
وجرح أميرهم " يار محمد خان " فمات منه ، فحنق أخوه " سلطان محمد
خان " وناهز حصن " هند " وفيه ستون رجلاً أو يزيدون ، [illegible]

محمد خان يستعفيه ، ويسأله أن يترك له تلك البلاد ، فعفا عنه
وأجابه.
وأمَّر على القضاء الفاضل السيد مظهر علي رحمه اللّه ،
واقيمت الحدود
والأحكام الشرعية ، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى غدر عدو
اللّه ، ونفض
العهد ، فقتل السيد القاضي والأمراء والعمال على الصَّدقات .
فلما بلغه - رضي اللّه عنه - الخبر أراد الهجرة من تلك
الأرض ؟ لأنها
أرض فساد وبغي وغدر ، فجمع الناس ، فشكر لهم ، ودعا
لهم ، ثم ودعهم
فبكوا ، وقالوا : لا نطيق فراقك ، فأصحبهم كرهاً منه.
وأمر على تلك البلاد فتج محمد خان ، وأمره بتقوى اللّه ،
وطاعته،
والاستعانة بالثه في الأمور ، والرجوع إلى كتاب اللّه ، ثم غادر
تلك البلاد فما
فارقهم حتى هجم الكفار عليهم ، فأخذهم اللّه بغدرهم ونفاقهم
فقتلوا ونهبوا
ولم يبق منهم إلا القليل.
ووصل السيد - رضي اللّه عنه - موضع راج دواري من أعمال

وسدَّ الطرق والثغور ، وأجلس على ثغر بعض من لم يكن ينبغي ان يعوَّل
عليهم ، فأخذوا منهم الرشوة ، ودلوهم عليه ، وأدخلوا الثغر ، فلم يشعر
المسلمون بهم حتى هجموا عليهم ، فبادر السيد وبادروا يفاتلونهم ، ووثب
الشيخ إسماعيل ، فشق صفوفهم ، وخرقها ، وجعل لا يرتفع له شيلمحد
إلا
حطد4.

إذ أتاه الرجل من ورائه فعلاه بالسيف فرضي النه عنه وأرضاه
لم يزل قائماً
حتى برد فوقع ، وأكرم الله من أكرمه يومئذٍ بالشهادة وبقي

وأما السيد - رضي الله عنه - فلقي ربه ، فبلغ منتهى أمله ، واقصى اجله- رضي اللّه عنه وارضاه - وتفرَق الناس فيه ، فمنهم من يقول : إنه استشهد،
ومنهم من يقول - وهو الضال - : إئه غاب ، وسيخرج ويملأ الدنيا /قسطاَ وعدلَا.
وللناس فيما يعشقون مذاهب.
وذهب بزوجته وابنته الشيخ " ولي محمد " إلى "طونك " وتفرقت الجماعة بعده وآخرون لجؤوا إلى الجبال ، فلم يزالوا قائمين بأمرهم إلى يومنا
هذا 3 لم يضرَهم من خالفهم.
الطريقة:

وهنا أصل عظيم لا يجوز إهماله ، ولا بدَ من معرفته ، وبه تعرف مزية السيد الإمام على غيره ، وكبير فضله ، وعظيم شانه ، بما خصه الله تعالى بفضله ، ومنَ عليه ، وأيده إلى الصراط المستقيم ص ، وهو أن القوم اخئصروا على العلوم ، والمعارف ، والأحوال ، والمواجيد ، والأذواق ضرباً عن الشريعة ، وحسبوها من المقاصد ، فأفسدوا الأمر ، فبيَّن أئه لا بدَ من اتباع الشريعة ، والانتماء إلى النبي ع!يو ، واقتفاء آثاره ، والحرص على اتباع سنته، وهديه ع!يم ، وهو أقوم وأهم ، ولا تكون السعادة إلّا به ، ولا يتمُّ الأمر بدونه ، وهو الأصل ، فسدَ بذلك طريق الإلحاد على كثيرٍ ممَّن يتستَّر بزي الصوفية ، أنكر أهواءهم الزائغة ، وردَّ على المبتدعين ، ونقض بدعهم، ومكائدهم ، وحيلهم ، وما أحدثوا ، وفرق بين البدعة والسنَّة ، وأن الشريعة متكفلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، ولا يوجد مطلبٌ يحتاج في تحصيله إلى غير الشريعة ، وامَا الطريقة والحقيقة فهما خادمتان للشريعة وتحصيلها ، ولتكميل الشريعة لا غيو ، فسدَّ اللّه به ثلمة ظاهر الدين ، كما رقع به خرق باطنه ، فهذب 3 به ما شاء .
ونظر في الطريفة واجتهد ، ثم بيَّن أنَّه لابدَ للسالك من أن يكون اللّه ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وان يكون أشدَّ حباَ للّه ، وهذا أصل الإيمان ، وأن يقدَمه على نفسه ، وما أمر به على ما تأمر به نفسه ، ثم يلتذ به ، حتى

ينشرح له صدره ، وتفزَ به عينه ، وتطمئن له نفسه ، ولا يرتاح إلّا إليه،
ويشتغل عن غيره ، وأن يتتثع اثار النبي ع!يم ، فالسعادة موقوفة عليه ، ومعلقةٌ
به ، ويواظب على الأعمال ، ثم أن يحجي قلبه بالموعظة ويعمره بذكر اللّه،
ويزكَي نفسه ، ويهذب أخلاقه ، ويجتنب الرذائل كالبخل ، والحسد،
والكبر ، والكذب ، والرِّياء ، والسمعة ، والطمع ، والحرص ، وغيرها مما
نهى اللّه عنه ، وما يمنع عن نزول بركاب اللّه ورحمته ، وان يبتعد عما يشغله
عن طاعة اللّه [illegible]

جماعة

الشمخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي :
الشيخ العالم الكبير العلامة المجاهد في سبيل اللّه الشهيد إسماعيل بن
عبد الغني بن ولي اللّه بن عبد الرحيم العمري الدَهلوي احد أفراد الدُّنيا في
الذكاء ، والفطنة ، والشهامة ، وقوة النفس ، والصلابة في الدين ، ولد بدلهي
لاثني عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومئة وألف ، وتوفي والده في
صباه ، فتربى في رعاية عمِّه الشيخ عبد القادر بن ولي اللّه الدَّهلوي ، وقرأ عليه
الكتب المدرسية ، واستفاد من عمِّه الشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبد العزيز
أيضاً ، ولازمهم مدَّةً طويلة ، وصار بحراً زاخراً في المعقول والمنقول ، ثم
لازم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي ، وأخذ

" كاغان " وكان نادرة من نوادر الزمان ، وبديعة من بدائعه الحسان ، مقبلاً
على اللّه بقلبه وقالبه ، مشتغلاً بالإفادة والعبادة مع تواضعٍ ، وحسن أخلاقٍ ،
وكرم وعفافٍ ، وشهامة نفس ، وصلابة دين ، وحسن محاضرة ، وقوة
عارضة ، وفصاحةٍ ورجاحةٍ ، فإذا جالسه منحرفُ الأخلاق أو مَنْ له في المسائل
الدِّينية بعض شقاقٍ جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار ، ويجمع
الضت والنون فلا يفارقه إلا وهو عنه راض ، وقد وقع مع أهل عصره قلاقل
وزلازل ، وصار أمره أحدوثةً ، وجرت فتن عديدة في حياته ، وبعد مماته،
والناس قسمان في شأنه فبعضهم مفصِّرٌ به عن المفدار الذي يستحقه ، بل يرميه
بالعظائم ، وبعض اخر يبالغ في وصفه ويتعصَّب له ، كما يتعصب أهل الفسم
الأول عليه ، وهذه قاعدة مطَردةٌ في كلِّ من يفوق أهل عصره في امر.
وأمَّا مختاراته في المسائل الشرعية فمنها : أنَّه ذهب إلى أن رفع اليدين في
الصَّلاة عند الافتتاح والركوع والفيام منه والقيام إلى الثالثة سنة غير مؤكدة من
سنن الهدى ، فيثاب فاعله بقدر ما فعل إن دائماً فبحسبه ، وإن مرَةً فبمثله،
ولا يلام تاركه ، وإن تركه مدَّة عمره ، ومنها ان رفع المسئحة في أثناء التشهيد
عند التلفظ بكلمة التوحيد ثابتٌ بحيث لا مردَّ له ، وإنَّ في مسألة القراءة خلف

وكذلك وحدة سائر المذاهب الأربعة أيضاَ ، فلا يلزم متبعها
نقصان كما
لا يلزم متبع المذهب الحنفي.
والحاصل : ائه لا يجوز التزام تقليد شخص معتن مع تمكن
الرجوع إلى
الروايات الدَالة على خلاف قول الإمام المقفَد -بفتج اللام -
والتقليد المطلق
جائز ، وإلا لزم تكليف كل عامي ، صانَ قول الصحابي من
السئة في حكم
الرفع ، وفهم الصحابي ليس بحجةٍ لا سيما إذا كان مخالفاً لأجلة
الصحابة
رضي اللّه عنهم.
مصنفاته:
وأمَّا مصنفاته فهي عديدةٌ أحسنها كتابه " الصراط المستقيم "
بالفارسي جمع
فيه ما صخَ عن شيخه السيد الإمام قولًا وفعلاً ، وفيه بابان من
إنشاء صاحبه
الشيخ عبد الحي بن هبة اللّه الصديقي البرهانوي ، ومنها :
(إيضاح الحق
الصريح في القبر والضريح) في بيان حفيقة السنَة والبدعة ،
ومنها (منصب
إمامتط) في تخصيص منصب النبوَة والإمامة ، وهو مما لم
يسبق إليه.
ومنها رسالة في مبحث إمكان النظير وامتناع النظير ، كلُها
بالفارسية،
ومنها : مختصر له بالعربي في أصول الفقه ، ومنها : رسالة

1) نقل العلامة الندوي هذا الكتاب إلى العربية أسماه " رسالة التوحيد !
وقد اطلع عليه

وقال الشيخ محسن بن يحمى الترهتي في اليانع الجني : إنه كان أشدَهم
في دين الله ، وأحفظهم للستة ، يغضب لها ، ويندب إليهَا ، ويشنِّع على
البدع ، وأهلها ، من مصنفاته كتاب الصراط المستقيم في التصوُّف،
والإيضاح في بيان حقيفة السئة والبدعة مشهوران ، يرغب الناس فيهما،
ومختصر فى اصول الفقه وقزَة العينين (صوابه تنوير العينين) انفرد فيها

قال السيد صديق بن حسن القنوجي في أبجد العلوم - بعد ما نقل تلك
العبارة ، أقول : ليس في كتابه الذي أشار إليه وهو المسمَى (برد الإشراك)
في العربية وبتقوية الإيمان بالهندية شيء مما يشان به عرضه العلي ، ويهان به
فضله الجلي ، وإنما هذه المقالة الصادرة عن صاحب اليانع الجني ، مصدرها
تلميذ الشيخ فضل حق الخير آبادي ، فإنَّه أول من قام بضدَه ، وتصدَى لرده
في رسائله التي ليست عليها أثارة من علم الكتاب والسنة.
وقال (في الحطَّة بذكر الصحاح الستة) في ذكر الشيخ ولي الله بن
عبد الرحيم الدَهلوي : إنَ ابن ابنه محمد إسماعيل الشهيد اقتفى أثر جده في
قوله ، وفعله جميعاً ، وتمَّم ما ابتداه جدُه وأدَّى ما كان عليه ، وبقي ما كان
له ، والنّه تعالى مجازيه على صوالح الأعمال ، وقواطع الأقوال ، وصحاح
الأحوال ، ولم يكن ليخترع طريقاً جديداً في الإسلام ، كما يزعم الجهال ،
وتد تال تعالى : " مَا كاَنَ لِبَشَرٍ أَن يُؤتَيَهُ أدئَهُ أئكِئبَ وَاَلحُكمَ وَألئبُؤَةَ ثُئمَ يَقُولَ
لِلنَّاسَ كوُنُوا بَاصا لى مِن دوُنِ اَلئَهِ وَلَبِهن كوُلؤُأ رَئِنِنَ يمَا كنُتُ! تمُمُونَ اَتكِئبَ وَبِمَا
كنُتُض تَدرُسُونَ " أ اَل عمران : 79) .

الإيقان ، كيف وقد ثبت في محله أنَ الرجل العامل بظواهر الكتاب وواضحات
السنة أو بقول إمام آَخر غير إمامه الذي لا يقلده لا يخرج عن كونه متمذهباَ
بمذهب إمامه ، كما يعتفده جهلة المتفقهة ، ويتفوَّه بها الفقهاء المتقشفة من
أهل الزمان ، المحرومين من حلاوة الإيمان ، وهو رحمه اللّه تعالى أحيا كثيراَ
من السنن المماتات ، وأمات عظيماً من الإشراك والمحدثات ، حتى نال درجة
الشهادة العليا ، وفاز من بين أقرانه بالقدح المعلَّى ، وبلغ منتهى أمله،
وأقصى اجله ، ولكن أعداء اللّه ورسوله تعصبوا في شأنه ، وشأن أتباعه،
وأقرانه ، حتى نسبوا طريفته هذه إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب النَّجدي ،
ولفبوهم الوهابية ، وإن كان ذلك لا ينفعهم ولا يجدي ، لأنهم لا يعرفون
نجداً ولا صاحب نجد وما له به ولا بعقائده في كلِّ ما يأتون

مولانا عبد الحي

الشيخ الإمام الكبير العلاَّمة عبد الحي بن هبة اللّه بن نور الله الصدِّيقي
البرهانوي ، أحد العلماء المشهورين ، وعباد الله الصَالحين ، ولد بقرية بُرهانه
- بضم الموحدة - ونشأ بها ، ودخل دهلي ، فلازم الشيخ عبد

1) لو كان هذا المؤرخ يعرف عقيدة صاحب نجد لعلم سبب نسبة هؤلاء إلى طريقته،

مفرطاً ؟ لأنَّ عمَّته كانت في بيت الشيخ عبد العزيز ، ولأن عبد العزيز قرأ الفقه
على جدِّه نور الله ، ولذلك زوجه الشيخ المذكور بابنته ، وأقرأه بعد ما ترك
التدريس لإخوته ، كما في مقالات الطريفة.
وكان عبد الحي مفرطَ الذكاء ، قويَّ الحفظ ، شديدَ الاشتغال بالبحث
والمطالعة ، حلو الكلام ، وفصيح المنطق ، درس ، وأفاد مدةً بدهلي ، ثم
لازم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي في حياة شيخه عبد العزيز،
وأخذ عنه الطريقة ، وسافر معه إلى الحرمين الشريفين سنة سبع وثلاثين
ومئتين وألف ، فحبئَ ، وزار ، وعرَّب الصراط المستقيم لأهل الحرمين،
وبعث إليه القاضي محمد بن علي الشوكاني بعض مصنفاته مع الإجازة العامة
لمروياته ، ورجع إلى الهند مع الإمام المذكور ، وساح البلاد والفرى بأمره
سنتين ، فانتفع به خلقٌ لا يحصى بحدٍّ وعدٍّ ، ثم سافر معه إلى خراسان سنة
إحدى وأربعين للجهاد ، فتوفي بها على فراشه ، وكانت آخر كلمة رطب بها
لسانه : اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى.
قال محسن بن يحيى الترهتي في (اليانع الجني) : إنَّه كان من أحسنهم
(يعني اصحاب الشيخ عبد العزيز) خبرة بالففه ، وأمرسهم بالكتب
المدرسية ، رأيت له رسالةً في حثِّ الناس على تزويج أياماهم ، وردعهم عن

ولعبد الحي مصنفات غير ما ذكره الترهتي منها : البابان من الصراط
المستقيم بالفارسي في السلوك على طريق الولاية ، ومنها : تعريب الصراط
المستفيم ، ومنها رسالة في حكاية المناظرة التي جرت بينه

وكان آيةً من آيات الله سبحانه في التقوى ، والعمل وتأثير الوعظ ، وققَة
الأمل ، وإيثار القناعة في الملبس والمأكل ، كثير الصَّمت ، شديد التوكل،

يعثر في المدح لعدم إمكان الإحاطة به ، توفي لثمان خلون من شعبان سنة
ثلاث وأربعين ومئتين والف بقرية خارا من خراسان ، فدفن بها (من نزهة
الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للعلاَّمة السيد عبد الحي) .
مولانا ولايت علي الصادقبوري :
الشيخ الإمام العالم المحدّث ولايت علي بن فتج علي بن وارث علي بن
محمد سعيد الهاشمي الصادقبوري العظيم آبادي ، أحد العلماء الرتَانيين ، ولد
بصادقبور سنة خمس ومئتين وألف ، واشتغل بالعلم مدة ببلدته ، ثم سافر إلى
لكهنؤ ، وقرأ الكتب المدرسية على الشيخ أشرف بن نعمة النّه اللكناوي ،
وبايع سيدنا الإمام أحمد بن عرفان البريلوي الشهيد.
ثم رجع إلى بلدته ، واقام الجمعة والجماعة ، اشتغل بالتدريس والتذكير
مدَّةَ ، ثم لازم شيخه السيد أحمد المذكور ، وأخذ الحديث عن الشيخ
إسماعيل بن عبد الغني الدَهلوي ، وسافر معه إلى خراسان ، وجاهد في الله
مدَّةً ، ثم بعثه شيخه السيد أحمد إلى بلاد الدَكن ، فسافر إلى حيدرآباد ، وأقام
بها زماناَ ، وهدى اللّه به بعض عباده ، ثم سمع بشهادة السيد في معركة
بالاكوت فرجع إلى بلدة عظيم اباد ، وأقام بها سنتين ، ثم سافر إلى الحجاز ،
فحبئَ وزار ، وأسند الحديث عن الشيخ عبد الله سراج مفتي الأحناف بمكَّة
المكرمة ، ثم راح إلى اليمن ، ونجد ، وحضرموت ، وغيرها من

اللون ، أزج الحاجبين ، كث اللحية ، يلوح على وجهه علامات الفكر،
ومخايل الذذ ، والافتقار ، وكان حريصاً على اتباع السئة السنئة ، لم يزل
يتتبع السنن في كتب الحديث ، والسير ، ويعمل بها كما في الدز المنثور .
وقال القنوجي في (إبقاء المنن) : إئي لقيته في قنوج ، وحضرت في
تذكيره ، فما رأيت أحداً أسرع تاثيراً منه.
مات في شهر الله المحرم سنة تسع وستين ومئتين وألف (نزهة الخواطر،
وبهجة المسامع والنواظر ، للعلأَمة السيد عبد الحي رحمه الله تعالى) .
مولانا كرامت عليى الجونبوري :
الشيخ الصَالح كرامت علي بن امام بخش بن جار الله بن كل محمد بن
محمد دائم الصديقي الحنفي الجونبورى أحد أكابر الفقهاء الحنفية ، ولد لسبع
عشرة خلون من المحرم سنة خمس عشرّة ومئتين والف بمدينة جونبور .
وقرأ بعض الكتب المدرسية على الشيخ أحمد علي الجرياكوتي ، وبعضها
على مولانا أحمد الله الأنامي ، وبايع على يد السيد الإمام أحمد بن عرفان
الشهيد البريلوي ، ولازمه زماناً ، ثم سافر إلى بنكاله ، ودار البلاد للإرشاد ،
وكان الناس بدويين جاهلين ، لا يعرفون التمدُن ، ولا يلبسون الثياب إلا
ما يسترون به عوراتهم ، وكانوا يفزُون من أهل الحضر ، فاحتال ، وصرف
مالَاجمَاً على الباسهم الثياب الرفيعة ، واطعامهم الأطعمة

والسيد محمد الإسكندراني ، وكان قليل الخبرة بالحديث ، مات يوم الجمعة
لثلاثٍ خلون من ربيع الآخر سنة تسعين ومعتين وألف " برنكبور " من أعمال
بنكاله كما في مفيد المفتي وغيره " نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر
للعلأَمة السيد عبد الحي " .
مولانا محمد علي الرامبوري :
الشيخ العالم المحدِّث محمد علي بن عنايت علي بن فضل علي الحسيني
النفري الذَهلوي ، ثم الرامبوري ، كان شقيق العلامة حيدر علي ، وصنوه
الصغير ، وتلو 5 في العلم والعمل ، أخذ الطريقة عن السيد الإمام المجاهد
أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي ، ولازمه مدَّةً من الزمان ، فاستخدمه السيد
ورخَّصه إلى مدراس (1) فسار إليها واشتغل بالإرشاد والموعظة ، وكان في
تأثيره تذكيرٌ عجيمب ، تاب على يده الكريمة ألوفٌ من الرجال والنساء ، وأنابوا
إلى اللّه سبحانه ، ورفضوا البدع والأهواء ، حتى نهض زعماء البدعة ودعاتها
إلى خصامه ، وكفروه ، وأحرقوا " تقوية الإيمان " للشيخ إسماعيل بن
عبد الغني الدَّهلوي ، فثارت الفتنة العظيمة ، وكان جمال الدين بن علاء الدين
اللكهنوي رأس تلك الفئة العادية ، كفَّره ، وسعى إلى الحكام ، فأمروا بجلائه

(1) كذا في الأصول والمراد : أنَّه أجازه

الشيخ أحمد علي الجرياكوتي ، والمطولات على الشيخ إسماعيل بن عبد الغني
الدَّهلوي ، والشيخ عبد الحي بن هبة اللّه البرهانوي ، وأخذ الطريفة عن السيد
الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي ، ولازمه برهة من الزمان ، ثم رجع
إلى جونفور ، ونزع الجامع الكبير عن أيدي الشيعة ، واقام فيه الجمعة
والجماعة ، وعمَّره بالمدرسة القرآنية ، ثم سار إلى " باندا " ودرَس به
سنتين ، ثم عاد إلى جونبور ، ولبث بها زماناً ، ثم سافر إلى الحرمين
الشريفين مع خاله المفتي محمد غوث الجونبوري سنة أربع وستين ومئتين
وألف ، فحبئَ ، وزار ، ورجع إلى الهند ، ودرَّس ، وأفاد بها مدَّة ، ثم هاجر
إلى مكة المباركة مع عياله سنة اثنتين وسبعين وتوفي بها ، وكان عالما محدِّثاً
فقيهاً زاهداً ، جمع العلم والعمل ، والورع ، وقيام الليل ، والسداد في
الرواية ، وقفَة الكلام فيما لا يعنيه ، وققَة الخلاف على أصحابه ، انتفع به
وبدروسه خلق كثير من اهل الهند ، ومن مصنفاته : القويم في أحاديث النبي
الكريم ، والأسلم في المنطق ، ورسالة في الناسخ والمنسوخ ، ورسالة في
معرفة أوقات الصَّلاة ، ورسالة في الهيئة ، ورسائل عديد! في الففه والسلوك .

ا!ما"
ال!ت؟ لي يو! حثهه مر ا!نحاف

قاد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله (1201 - 246 اهـ)
حركةً إسلاميةً كبرى في شبه القارة الهندية ، لم يعرف لها نظيز في الشمول ،
وعمق التأثير ، ومشابهة الدَعوة الإسلامية الأولى ، لا في قرنه الثالث عشر
الهجري ، بل في عدَّة قرونٍ من تاريخ الإسلام والمسلمين الاخير ، وطلَ
يناضل على أوسع جبهةٍ نعرفها من إصلاح المجتمع ، وتربية الزجال ، والوعظ
والإرشاد ، والكفاح ، والجهاد ، ولم يكن تأثيره مقصوراً على العهد الذي نشأ
فيه ، والجيل الذي عاصر 5 ، والمجال الذي عمل به ، بل خلف أثراً عميقاً
واسع المدى على الجيل الذي أعقبه ، وعلى دعاة الإصلاح والعاملين في
المجال الإسلامي ، الذين جاؤوا بعد 5، كالحركة الفرائضية في بنغال
الشرقية ، والدَعوة السلفية في الهند ، ومركز الدعوة والتربية في " صادق فور

1) قد وضع كثير من الفضلاء بحوثاً علمية ، وألقوا محاضراب قيمة في جامعات

الشعبية استخدمت لغة أردو كأداة تفهيم ، وغرس للمعاني العميقة في قلوب
الدَهماء والجمهور ، فاتجهت إلى تسهيلها وتهذيبها ، وإحلالها مكان الفارسية
التي كانت لغة العلم والتأليف في زمنه ، وإبعادها عن التنميق والصناعة
اللفظية التي كان يعتمد عليها الأدباء والشعراء ، ونشأت مكتبة ذات قيمةٍ في
اللغة والأدب .
إته دعا إلى الدِّين الخالص (1) ، وأشعل في الفلوب شعلة الإيمان ،
والحماسة الإسلامئة ، والجهاد في سبيل اللّه ، ونظَّم جماعةً كبيرةً وأحسن
تربيتها الدِّينية والحربية ، وخرج معها مهاجراً في سبيل اللّه (في 7 من جمادى
الاخرة سنة 241 اهـ) من طريق بلوجستان ، وأفغانستان ، إلى حدود الهند
الشمالية ، ليتخذها مركزاً لدعوته ، وليتقدَم منها إلى الهند ؟ لإجلاء
الإنجليز ، وتأسيس دولةٍ إسلاميَّةٍ على منهاج الكتاب والسنة ، وإثارة الغيرة
الإسلامية في نفوس المسلمين ، وأولي الأمر ، وقادة الرأي ، وأنذرهم
بالخطر المحدق بالوجود الإسلاميِّ ، ونبههم على نوايا

1) دعوة السيد أحمد الشهيد والشيخ إسماعيل الشهيد - في اللغة الأردية والأساليب الأدبية في الهند.
للاطلاع على دعوته السافرة القوية إلى التمسك بعقيدة التوحيد القرآنية النقية ، ونبذ الشرك والبدع ، يرجع إلى كتابه " الصرإط المستقيم " بالفارسية

بالإسلام ، ونطق بالشهادتين ، وليدخلوا في السلم كافةً ، لا يشوبه غرضٌ
سياسيئ ، أو طموح شخصيئ ، أو علؤ في الارض او فساد(1) .
وكان هذا ال!فر الشاق المضني من الهند مع جيشٍ من المهاجرين لا يقل
عن جهادٍ ، ولا يتغفَب على صعوباته إلا الإيمان القوي ، والعزم الراسخ،
والفكرة المتغلغلة في الاحشاء ، القاهرة للشعور بالألم والتعب ، مصدقاً
لقوله
تعالى : " ان تَكوُدؤُا يخلَ!ونَ فانهُصْ يَأْلَمُوتَ كَمَا تَألَمُودت وَلرخونَ مِنَ
اَدئَهِ مَا لَا
يَرخوهمثَ " أ النساء : 1104 ، فقد اعترضت لهم في الطريق صحارى
قاحلة،
لا ماء فيها ، ولا ميرة ، ومفاوز يتلف فيها الإنسان ، ويتيه فيها الخرَيت،
وعبروا ممر " بولان " مدخل أفغانستان ، وهو كنفقٍ طويل في الجبل
يمتد على
خمسةٍ وخمسين ميلاً ، يكتنفه جبلان يبلغ ارتفاع بعضهما إلى 5700 قدم ،
ويبلغ المضيق بينهما في الغالب إلى 400 أو 500 ذراع ثم ممر " كوزك"
الضيق الهائل الذي هو في جبل " التوبة " قبل قندهار .
واستُفبل السيد في " قندهار " و " غزنين " و " كابل " استقبالًا ملوكياً،
لم يستفبل مثله عالم ، او قائدٌ ، أو حاكم منذ مدَّةٍ طويلة ، وأقبلت عليه
البلاد
حكومةً وشعباً إقبالًا فيه الحماس الدَيني ، والكرم الأفغاني ، والآمال
البعيدة ،
والتبرم من الاوضاع ، والاستشراق إلى قيادةٍ مخلصةٍ تنقذهم من هذا
التفكك ، وعدم الثقة ، والخضوع للحكومات السّلالية والعشائرية ،
وتستخدم
طاقاتهم التي فتحوا بها الهند مراراً لصالح الإسلام ، والجهاد ، والشهادة
في

وواصل السير إلى " بشاور " ف " هشت نغر " حيث تهافت
عليه الناس
تهافت الفراش على النور ، حتى وصل إلى " نوشهر 5 " في
18 من جمادى

1) اقرأ مجموعة رسائله بالفارسية ، وكتابه " الصراط المستقيم "
الفصل الخاص

وبويع بالإمارة والإمامة في 12 من جمادى الاَخرة سنة 1242 هـ، وقرئت
باسمه الخطبة ، ودخل الناس في بيعته أفواجاً ، وجاءه أمراء المناطق،
ورؤساء القبائل ، وكبار العلماء فبايعوه على الشَمع ، والطاعة ، والجهاد في
سبيل اللّه ، وكتبوا إلى حكام " بشاور " يخبرونهم بذلك ، فاستحسنوا فعلهم،
وابدوا استعدادهم للدخول فيما دخلوا فيه ، وأرسل السيد الامام ، والعلامة

وبدا الحرب مع " السيخ " على الطريقة الإسلامية (1) مطابقاَ للسنَّة
النبوية ، وقد احتلوا " بنجاب " واستولوا عليها ، وكانت لهم سيطرة على
حدود الهند الشمالية الغربية والقبائل الأفغانية الحرَة ، وهددوا سلامة
أفغانستان ، وزحفوا إليها مراراً ، وتعرَض المسلمون الذين كانوا يشكلون
الأكثرية في " بنجاب " وحكموها منذ القرن الخامس الهجري للإهانة،
والإبادة ، والاضطهاد الدِّيني ، فكان لا بدَ من انتصارٍ لهم ودفاعٍ عنهم ، ودرء
الخطر عن البلاد الإسلامية الصميمة ، وكانت لبنجاب أهفية

(1) الدَعوة إلى الإسلام اولَا ، ثم الجزية ، ثم القتال ، الطريقة التي تناساها ملوك المسلمين ، وزعماؤهم منذ زمنٍ طويل.
(2) 1780 - 1839 م وصلت مملكتَه إلى كابل شمالًا وغرباَ ، وإلى شواطىء نهر " جمنا " جنوباً وشرقأ ، اقرأ للتفصيل كتاب "!،'أ 3 ،أؤ،'،" لمؤلفه اح"حسا 3 أ 3 ،ا أ 3 م أ 3 ك!.

 الإمام الذي لم يوث حقَّه من الإنصاف والاعتراف
والجنرال ألارد ، وظهر من المجاهدين من الشجاعة ، والحنين
إلى الشهادة ،
والطاعة للأمير ، والتأدُّب بآَداب الشرع في الحرب والسلم ، ما
جدَد ذكريات
القرون الأولى.
وأسسوا فعلاً دولةً شرعيةً في الحدود الهندية الشمالية والغربية
، تشتمل
على " بشاور " وما جاورها من البلدان والقرى ، ونفذوا الحدود
الشرعية،
وطبفوا النظام الإسلامي ، المالي والإداري تطبيقاً دقيقأ ،
وشهد التاريخ
نموذجأ للخلافة الإسلامية الراشدية ، بعد ما توالت قرون طويلة
على حكومات
المسلمين شبه "العلمانية " و" الزمنية " فيما يتصل بالأحكام
الشرعية،
والقوانين الإسلامية.
ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، فوقع ما تكرر في التاريخ الإسلامي
من نزوة
الأهواء ، وهجوم الجاهلية الجريحة الموتورة ، فلم يرض هذا
الوضع القبائل
التي تقطن هذه المنطقة لاصطدام هذا النظام بمآَربها
الشخصية ، وأعرافها
الفبلية الجاهلية ، فقام بعض امرائها ، ورؤساء القبائل يقودهم
سلطان محمد
خان حاكم " بشاور " وهو الذي منحه السيد أحمد ما فتحه من
بلاده ، بعد
ما أعطى العهود والمواثيق ، وأقسم باللّه جهد أيمانه أنَّه

(1) يقارب عددهم مئة وخمسين رجلاً من صفوة المسلمين ولبابهم.

وفي طريقهم إلى كشمير ، وقعت المعركة الحاسمة الأخيرة في وادي
" بالاكوت " مع جيش " السيخ " الذي كان يقوده الأمير شير سنغ بن رنجيت
سنغ ، وقد دلّه بعض المسلمين الماجورين إلى هذا الوادي الضيق الوعر
المسالك ، ووقعت المعركة الحامية ، واستشهد الإمام السيد أحمد ، وصاحبه
العلامة محمد إسماعيل بن عبد الغني (ابن شيخ الإسلام عبد الرحيم المعروف
بولي اللّه الدَّهلوي) وكبار أصحابهما بعد بطولاتٍ نادرةٍ ، وشجاعةٍ خارقةٍ
للعادة ، وذلك في 24 من ذي القعدة ، عام 1246 هـ، (6 من مايو سنة
1831 م) .
واتخذ خلفاء السيد وأصحابه - وعلى رأسهم الشيخ ولايت علي العظيم
ابادي وأخو 5 وأولاده - مركزاً لهم في " ستهانه " المنطقة القبائلية الحرَة ،
وانتقلت المعركة من " السيخ " الذين ضعف شانهم ، وفقدوا السلطة (1) ، إلى
الإنجليز الذين استولوا على الهند ، وأسسوا فيها حكومةً منظَّمةً قويةً ، وقد
كان هذا الانتقال من مقاصد 5 الحقيقية والغاية القصوى

1) استولى الإنجليز على المملكة التي أنشأها رنجيت سنغ - الذي حاربه السيد أحمد الشهيد - في سنة 1849 م ، يعني بعد شهادة السيد بثماني عشرة سنة ، وانقرضت
هذه الدولة انقراضأ كليأ.

2) اقرأ كتاب ح 3!ح ا؟!؟!* أ!ح 53 ح؟+ (محاكمة قضية الوهابية الكبرى) وكتاب - 3 ح،،اول + . * .* " 3 ول !+ا ا! ثاولالأ ول!ا 4 ول ا 3 لماه ،، - (مسلمو ا لهند) .

3) اقرأ فصل " امتداد تاريخ الجهاد والبطولة " وفصل " من الشنق الى النفي " في

ولا يلينون ، ولا يستكينون ، حتى كانت ثوة 1857 م ، التي تزعمها المسلمون ، وأسهم فيها المواطنون ، وأخفقت لأسباب يطول ذكرها ، وقوبل زعماؤها بصفة خاصَّةٍ والمسلمون بصفة عاقَةٍ بوحشيةٍ نادرةٍ (1) واستتبَّ الأمر للإنجليز ، ودخلت الهند في الحكومة البريطانية بصورة عامَّة.

وبقي هذا الوضع إلى 947 ام ، حين نالت الهند الاستقلال ، وكان التقسيم ، وقامت الجمهورية الهندية ، وقامت دولة باكستان المسلمة ، وهي تشتمل على أكثر المناطق التي كانت مركز نشاط المجاهدين وكفاحهم، وكانت في مقدمة مخطط هذه الحركة الإصلاحية الجهادية ، وهدفها الأول ، وإن كانت النسبة بعيدة ، والتفاوت عظيماً بين ما أراده السئد الإمام ، ودعا إليه ، وجاهد في سبيله ، وبين ما قامت له باكستان ، ومثَّلته على المسرح السياسي ، والإداري ، والخلقي.

لشتان ما بين اليزيدين في الوغى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

كان هذا المخطط السياسيُّ الحربيئُ الذي اتبعه السيد الإمام أفضل مخطَّطٍ يُتصور في الفترة التاريخية التي وضع فيها هذا المخطط ، وفي الوضع الدقيق المعقد الذي كان يواجهه ، لا يدرك سلامته ، وبعد غوره ، وبعد النظر الذي

(1) المؤلف " إذا هبت ريح الإيمان " .
اقرا كتاب العلامة الندوي " المسلمون في الهند " فصل " الدور الذي قام به

وسائلهما المتوفرة وجيوشهما الجرارة ، وذلك لسياسة الإنجليز المؤسسة على قاعدة " فزق تسد " ولعدم وجود منطقؤ حرَّة بعيدة عن النفوذ الإنجليزي يمارس فيها النشاط الجهادي الخالص بطمأنينؤ ، وثقةٍ .
والمخططات السياسية والعسكرية توضع دائماً على التحرِّي للأفضل الأسلم ، والتأمُّل المخلص ، واستشارة أهل النصح والإخلاص ، ويضتمُ إلى كلِّ ذلك -إذا كان الفائد دينياً يريد وجه الله وإعلاء كلمته - كثرة الدعاء والابتهال ، والاستخارة ، ثئمَ التوكل على اللّه ، ولا شك أنَ السيد الإمام قد استوفى هذه الشروط ، ولم يقصِّر فيها أيَّ تقصير.
ولا يجوز تسليط مقاييس عصرية ، أو محلِّية على شخصيةٍ أو حركةٍ سبفتا في الزمان ، او اختلفتا في المكان ، والحكم على محاولةٍ مخلصةٍ جادةٍ تفانى فيها صاحبها ، ووضع فيها اعزَّ ما عند 5 ، بنتائج ظهرت بمشيئة اللَّه تعالى، ولحكمة يعلمها ، فإذا كان هذا هو الميزان الوحيد والحاكم على الاعمال بالإخفاق والنجاح ؟ خسرنا أجمل ما عندنا في التاريخ الإسلامي من جهدٍ ، وجهادٍ ، وسعي ، واجتهادٍ ، فانَ المعوَل على النية ، وبذل! ما في الوسع، وتحرِّي الصِّحَة والصواب ، لا على النتائج ، والمكاسب " تِنَ اَتمُؤمِنِينَ رِجَا؟ صَحدَقُواْ مَا عَهَدُوأ اَلنَّهَ عَلته هَضنهُم فَن قَضَى نَحبَ! وَمِخهُم مَّن يَنئَظِرُوَمَا بَدَلُوْا تديلأ" أ الأحزاب : 23 1 .

ومن خصائص دعوته وجماعته التي تلفت النظر ، أنَّها كانت تجمع بين جهاد النفس وجهاد العدوّ ، وبين الحبِّ دته ، والبغض دئه ، وبين الزهد والعبادة ، والحمتة الدينية ، والعزَة الإسلاميَّة ، وبين السيف والمصحف، والعقل والعاطفة ، وبين التسجيج في المسجد والبيت في ظلام الليل ، وبين التكبير في ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، وبين الذَعوة إلى " الدِّين

ومن مآثره الجليلة : أنَّه احيا ركن الإسلام " الجهاد في سبيل اللّه " حسب
تعاليم الإسلام ، وآدابه ، وطريقة النبي !لمجيم وأصحابه بعد فترةٍ زمنيةِ طويلةِ،
كاد يندرس فيها هذا الركن ، ويطوى في صحائف السنَة المطهَّرة ، والسيرة
النبوية ، وتاريخ المجاهدين الأولين ، والغزاة المخلصين الذين كانوا يقاتلون
لتكون كلمة النّه هي العليا ، وليكون الدين كفه دلّه ، ولا يبتغون به عرضاً من
الحياة ، أو تشييد ملكِ ، ودولةٍ لأسرتهم ، وأبنائهم ، وقد أهمله ملوك
الإسلام ، أو استغلوه لفضاء مآربهم ، أو إشباع شهوة الملك والفتج ، وشغل
عنه -أو عجز - دعاة الإصلاح ، والمعفَمون ، والمربُّون حتى كادت الأمة
الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، تجهل قيمته ، وأهميته ، وفضله،
ومكانته في الإسلام ، وحتى أصبج أقلَّ أهميةً من كثيرٍ من أبواب الفقه (1)
داخلاً في قائمة المستحبات والعزائم الطويلة.
وقد كان ضرر هذا الإهمال على العالم الإسلامي كبيراً وفادحاً ، فقد عاث
فيه المفسدون ، واجترأ عليه السفلة وأراذل الناس ، وخضدت شوكة الإسلام

1) كما يقول وزير السيد وترجمانه العلامة إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي في رساله
له إلى أحد علماء الهند ومشايخها : " إن الجهاد قد صار الاهتمام به عند العلماء

2)

الإمام الذي لم يوخ حقَه من الإنصاف والاعتراف 131
على الهند من شر وضرر ، وخئم به عليه بسببه الذكُ والهوان فليسرح طرفه في
أطرافها عند كتابة هذه السطور في سنة 233 اهـ، وما آَل إليه أمرها ، وما
تردَت فيه من ضعفٍ واستكانةٍ ، وذ 4 ومهانةٍ ، وبؤسٍ وشقاءً ، وكيف نزعت
عنها البركة ، وفارقها البهاء .
وقد عاش " الجهاد " بفضل جهاده في إحياء هذا الركن العظيم ، واحتلَّ
مكانه في حياة المسلمين ، وتفكيرهم واهتمامهم ، وفي الادب الإسلاميِّ،
والشعر الهندي (1) ، حتى زالت هيبة الموت ، والجراحة في سبيل اللّه ، وحنَّت
النفوس إلى الشهادة حنين الطائر إلى وكره ، وتنافس الشبان ، والأثرياء ،
والمتنعمون في الهجرة والجهاد ، وألفوا حياة التقشُف والخشونة ، والإيثار
والفداء ، وكانت الأبيات التي قيلت في الحثِّ عليه ، والشوق إلى الشهادة
ترنيمةً تنوم بها الأمهاب أبناءهن ، وينشدنها في مناسباتٍ كثيرةٍ .

1) افرأ القصيدة الرنانة في فضل الجهاد لأحد أئمة الشعر الهندي في منتصف القرن
الثالث عشر الهجري ، وصاحب مدرسة أدبية شعرية خاصة الأستاذ مؤمن خان
الدَهلوي (268 اهـ) المعروفة بمزدوجة الجهاد ، والقصيدة المثيرة الحماسية
للعالم الفقيه الشيخ خرم علي البلهوري (271 اهـ) التي كانت تقرأ أمام صفوف
المجاهدين عند المعركة في معركة السيد الإمامٍ ، وقد نظم أحد أبناء أسرته هه

 الإمام الذي لم يوث حقه من الإنصاف والاعتراف
المسلمون في اكثر أنحاء العالم الإسلاميئَ ، وفي أطول مدَّةٍ
من تاريخهم.
ولو لم تكن للسيد الإمام ماثرةٌ غير إحيائه لهذين الركنين ،
وتحبيبهما إلى
نفوس المسلمين ، صهآعادة اعتبارهما وقيمتهما في حياتهم ،
لكفاه فخراً
وعظمةً ، فكيف ، وله مآثر جانبيةٌ أخرى ، كإحياء ركن الحجَ في
الهند ، الذي
تعرض لحملة علمية وفقهية تحاول إسقاط فرضيته عن
المسلمين في الهند،
لحيلولة البحار ، وكثرة الأخطار(1) ، وسنة تزويج الأيامى الذي
كان المسلمون
في الزمن الأخير يتعيَّرون منه ، ويعدُونه سبةً وعاراً ، قد يؤدي
إلى مطاردة من
يرتكب هذه الجريمة ، وإقصاء الزوجين ، ومصارمتهما ، وأصبح
ذلك عرفاً
في البيوتات الشريفة ، والأسر الكريمة ذات النسب والحسب ،
وقد ظهر ذلك
في آخر الدولة المغولية بتأثير الاختلاط بالهنادك الذين يحرمون
نكاح الأيم
تحريماً باتأ ، وقد ألف في الدفاع عن هذا العرف الجاهلي
وتبريره بعفكبار
العلماء كتباً ورسائل.
وكذلك تزويج العوانس في القبائل الأفغانية اللأَتي تعرضن
لتعطيله أ و
تأخيره تأخيراً عظيماً (بسبب المحافظة إلى الأعراف الأفغانية)

(1) اقرأ عنوان " مجتمع إسلامي متجول " في كتاب العلامة الندوي "
(إذا! هبت ريح
(2) الإيمان " .
اقرأ عنوان " يد إدئه مع الجماعة " و" تجديد النظام الشرعي في

.(1)
ولكن لن يكون من المغالاة في شيءً إذا قلنا : إن أيَّ شحصيةٍ وحركةٍ
- باستثناء رسول الإنسانية محمد !يد- لم تكن هدف التضليل ، والكتابة التي
تتسم بعدم الشعور بالمسؤولية في أوربة ، كما كانت شخصية الإمام المجاهد
السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، وحركته التي شرحناها آنفاً.
ولعل بعض القراء يخطر بباله ا! نصيب المصلح الكبير ، والدَاعي الشهير
إلى التوحيد ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب (115 1 هـ- 06 12 هـ) من معاداة
الكتَاب والمؤلفين وخصومه من العلماء ، وأشباه العلماء ، وافترائهم
وتضليلهم ، لم يك اقلَّ من السيد بل كان أكثر ، واعظم منه ، ولكن لا يعزبن
عن البال ، أن الشيخ لم يكن هدف المؤلفين الغربيين ، وتجريحهم ، وتجنيهم
مثل ما كان السيد ، لأنَ الأحوال السياسية لم تقتض ذلك ، ولم تقم حرب بين
أتباع الشيخ وبين قوَّةٍ أجنبيةٍ استعمارية ، كما كان الشأن مع السيد وأتباعه في
الهند ، وجلُّ ما كتب في الردِّ على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وتنفير
الناس عنه ، كان بالعربية ، والتركية ، والفارسية ، والأردية ، لغات
المسلمين الشرقية ، أما اللغات الأوربية فما دعت الحاجة إلى استخدامها
للدَعاية ضد 5 ، ونسج الأساطير ، والافتراءات حوله ، ويبدو كأن الكتَّاب في
هذا الموضوع لم يتحملوا أيَّ جهد ، ولم يشعروا بأيّ حاجةٍ إلى دراسة
مخلصةٍ ، ومطالعةٍ جدّية في هذا الموضوع ، أو أنهم اعتمدوا على الشائعات
فقط ، أو اَثروا صناعة التاريخ بدلًا من كتابة التاريخ ، فكل ما كتبو 5 ، كان
نسيج خيالهم ، أو أنَّهم قصدوا كتابته لأمرٍ ما في أنفسهم.
إنَ النهضة الأخيرة في أوربة التي تسقَى (! +،33 أ،ولس!ول) أدت إلى حريَّة
الفكر ، وروح البحث عن الحفيفة ، والتماس الثدق ، وتحفل الجهد في
سبيل العلم ، والتحقيق ، وتجنيب العصبية الدينية ، ورفض الإيمان
بالخرافات والثفة بكل شيءً بدون التنفيب عن حقيقته وبيئته ، كانت تحمل

1) هذا الفصل الخاص بنقد المؤلفين الغربيين من تعريب الأستاذ واضح رشيد
الندوي ، لما جاء في مقال للعلامة الندوي تفديماً لكتاب " سيد أحمد

 الإمام الذى لم يوث حفه من الإنصاف والاعتراف
على الاعتفاد بأنَّ الكتاب لن يكونوا بعد هذه النهضة الفكرية
فريسةً للعناد
الدَيني ، والعلمي ، والفكري ، والأغراض السياسية اثناء الكتابة
على موضوعٍ
علميئ ، وتاريخيئ بحت ، والبحث عنه ، بل إنَ الكتاب
سيقومون بمحاولةٍ
مخلصةٍ جادَةٍ للبحث عن الواقع ، كطالبٍ باحثٍ عن الحق.
وخاصَّةً كان يتوقع من الكتاب ورجال القلم في المنتصف الأخير
للقرن
التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين اثهم سيتجنبون ضيق
الفكر ، ويبدون
تسامحاً ، وسعة صدر ، وطول أناة ، ويؤثرون تحقيقاً غير مُتحيز
، كما ابد 51
كتاب القرون الوسطى ، ومؤلفوها ؟ الذين عاشوا في ظل

لم يكن السيد أحمد الشهيد شخصيةً أسطوريةً ، أو حكايةً من حكمايات
ألف ليلة وليلة ، أو نجطلاً من أبطال ما قبل التاريخ ، إنه نشأ ، وترعِرع ،
وتربى في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي ، وكان مركز تعلمه
وتربيته ، ونشأته تلك المنطقة العامرة من مناطق الهند الشمالية ؟ التي كانت
تحتلُّ من ناحية العلم والأدب ، والمدنية والثقافة ، والأهمية السياسية المكانة
الأولى ، وكانت تعرف في الحكم الإنجليزي الولايات المتحدة لآجرا واودها
(ll 4 لماه عة !3!ول مه 3 ص! ح،أ أ 357! 4 ص!،أوللا)(1) .

ثم قامت صلته مع الأسرة الوليي اللهية الشهيرة في دهلي ،
التي طبقت
الآفاق ، وذاع صيتها في مجال العلم والتعليم والتربية ،
وخضعت لها الهند
بكاملها ، وكانت أسرته اسرة الأشراف الحسنيين الشهيرة في

(1) وهي تعرف الآن بالولاية الشمالية ("3 ص!4!3! 3

الإمام الذي لم يوخ حقَه من الإنصات والاعترات 135
لشرفها ، والزهد والوقار ، والغيرة الدِّينية في سائر المناطق المجاورة ،
وكانت دائماً موضع ثقةٍ واحترامٍ لدى ملوك دهلي المغول ، واعترفوا بعلو
نسبها وشرفها ، وتضقَنت جميع الكتب الفارسية في السير والتراجم ، تراجم
أشهر رجال هذه الأسرة النبيلة ومناقبها(1) .
ثم إئه انضم إلى جيش أمير خان أحد الأمراء الأفغانيين الطامحين ، في
منطقة " سنبهل " (أترابرديش) لنيل التربية الحربية والفروسية ، طوعياً،
وكان قد حظي خلال هذه المدة باحترامٍ فائقٍ ، ثم إنَ حياة الأمير أمير خان
أيضاً واحواله لم تكن مظلمةً ، فلم تكن له أقيَ علاقةٍ مع البندار(2) (3 اء،4!ا!)
وقد ألفت عدَّة كتب عنه.
ولما رجع السيد إلى وطنه أمَّه العلماء ، والمشايخ ، والأشراف ،
والأمراء ، وبايعوه ، ولازموا صحبته بحمب واحترام للاستفادة منه ، وللوصول
إلى درجة الإحسان ، والتحفي بصفات الإيمان ، وتقاطروا عليه تفاطراً
لا يوجد له نظير في الهند في العهد الأخير ، وقام السيد بجولات واسعة

1) ليرجع إلى كتب التراجم والسير ، وخاصة كتاب " نزهة الخواطر وبهجة المسامع
والنواظر" لمؤلفه العلامة السيد عبدالحي الحسني مدير ندوة العلماء سابقاً،
(م 341 أهـ) في ثمانية أجزاء بالعربية ، طبع دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد

2) ''

الكثيفة العمران ، الواقعة على ضفة نهر " الكنج " (3!!،ا!قأ)
من وطنه " رائي
بريلي " إلى " كلكتا " التي كانت منتهى سفر 5 البرّي ، وساد عليها حماس
جديدٌ ، ودخلت مدنٌ كثيرةٌ على بكرة أبيها في بيعته على التوبة والجهاد ،
وانخراط الناس قاطبةً في سلك الإصلاح والتربية ، لم يشذ منهم إلا شاذٌّ .
ووصل إلى مكة المعظمة ، والمدينة المنورة سنة 237 اهـحيث قوبل
بحفاوةٍ لم تلقها شخصية دينيَّةٌ من أبناء بلدٍ عجمي منذ مدَّةٍ طويلةٍ ، وكان ذلك
العهد الذي كانت جماعة المصلج الشهير الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه
الله تلقى مطاردةً ومحاربةً من الحكومة التركية ونوابها ، وكان ذكر اسمها
محرماً يسوق إلى عقابٍ أليم ، مثيراً للشكوك والريبة ، فلا يوجد أيّ دليل على
لقائه مع أي زعيمٍ من زعماء هذ 5 الجماعة ، وقد كان ارتقاؤ 5 الفكري قد تمَّ
وبلغ ذروته قبل هذ 5 الرحلة ، والدليل على ذلك أنَ كتابه " الصراط المستفيم"
الذي لم ينسج على منواله ، قد تئمَ تأليفه في سنة 233 اهـقبل وصوله إلى
الحجاز بأربع سنوات ، والكتاب يدلّ على نضج فكر 5 ، ونبوغه ، واقتناعه
العظيم بما يقرر 5 ، ويدعو إليه ، وليس اقتباس داعية ، او عالمٍ من آخر ممن
سبفه في ذلك ، أو فاق بعيب ، وقد جرت سنة اللّه بذلك ، واستمرَّ عمل تلقيح
الأفكار

رحلةٍ رسميةٍ للعصر الحاضر ، ثم إنَّه لم يقطع صلته عن الهند من ذلك
المكان ، فأقام صلته مع الهند ، واطلع العلماء الهنود على خططه
ونواياه ،
وخطواته برسائل تتعقَق بالدَّعوة والنظام الرسمي ، لا تزال محفوظةً لدى
أسرٍ
كثيرةٍ ، ومكتبات في الهند ، ومكتبة إنديا آفس الا! ،!؟اسا حجأممه ءأ 4!
((في
لندن ، وكانت التقارير للعمليات العسكرية التي قام بها ، تسخل ، وتقيَّد،
حتى اثناء الحرب في ساحة القتال .
إنَّ الاهتمام الذي أبداه الكتاب بحياة الإمام الشهيد الذي استشهد في 6
من
مايو 1830 م - 17 من ذي القعدة 246 اهـفي " بالاكوت " وتسجيل كلِّ
حادثٍ صغيرٍ وكبيرٍ له علاقة بحياته ، يتعذر أن يلاحظ في تخليد حياة أفي
مصلحٍ أو زعيمٍ خلال القرون الأخيرة الماضية ، ويستحق أن يذكر في هذا
المجال مجهودان :

مجهود بذل بطريمّةٍ منطمةٍ واجتماعيةٍ بأمر النواب وزير الدولة أمير
إمارة
تونك فور شهادة الإمام ، حيث اجتمع لفيف من أصحاب الإمام في
تونك من
الذين لازموا صحبته مدةً طويلة ، وشاركوا في عملياتٍ حربية معه ،
وتعرَّفوا
عليه عن كثب ، وكانوا معه ليلاً ونهاراً ، فسجَّلوا انطباعاتهم ،
ومعلوماتهم،
والأحداث التي شاهدوها بأمِّ أعينهم ، ولعله هو أوَّل عملٍ مجمعي
(حأولح 4،حول(
تحقَّق ، وهذا السجل الحافل للوقائع المخطوط يعرف ب " وقائع
احمدي "
وهو في أربعة مجلدات كبار ، وهي محفوظة في مكتبة ندوة العلماء
.
والسفر الآخر الموثوق به ، هو الذي ألفه السيد جعفر علي النفوي
(م 288 اهـ) بالفارسية باسم " منظورة السعداء في احوال الغزاة
والشهداء "
وينحدر مؤلف هذا السفر القيم من أسرةِ ساداتٍ وعلماء في مديرية

وأجمع كتابٍ ، وأكمله على الموضوع كتاب " سيد أحمد شهيد " للكاتب
الباكستاني الكبير ، واديب الأردية المشهور ، المرحوم الأستاذ غلام رسول
مهر ، رئيس تحرير صحيفة " انقلاب " في أربعة مجلدات ضخام مجموع
صفحاتها 1921 ، ويكاد يكون هذا الكتاب موسوعةً في سيرة هذا الإمام ،
وحركته ودعوته ، والتعريف بجماعته وكبار أصحابه ، وقد طبع في " لاهور "
وتلقي بالقبول والعناية في الأوساط العلمية والأدبية.
ولكاتب هذه السطور كتاب " سيرة سيد أحمد شهيد " باللغة الأردية
كذلك ، وقد ظهر هذا الكتاب في مجلدٍ واحدٍ يبلغ عدد صفحاته 462 ، سنة
1939 م ، وقد كتب له البحاثة الإسلامي الكبير العلاَّمة الدكتور السيد سليمان
الندوي رئيس مجمع دار المصنفين (في اعظم كره الهند) مقدمةً بليغةً لها
مكانة في كتاباته الأدبية ، وكان ذلك مشجعاً كبيرأ للمؤلف الشاب الذي كان
لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره ، وكان الكتاب باكورة مؤلفاته ، وكان

وقد صدر ا خير اً كتاب " سيد احمد شهيد " " 4 حح‌ط،ط 3 4!ولط ول -4 ألأأ!3 "
باللغة الإنجليزية في الأسلوب العصري الحديث ، مؤسساً على دراسةٍ
واسعةٍ ، وعلى وثائق تاريخيةٍ ، وتقارير رسميةٍ ، وشهاداتٍ أجنبية ، لصاحبه

البحوث ، والرسائل العلمية ، والكتب الكبيرة في باكستان ، وأوربة، وامريكا.
ومع الأسف أنَّ مكتبة اللغة العربية لاتزال قليلة البضاعة في هذا الموضوع ، وقد بقي العالم العربي يجهل هذه الشخصية الفذة ، والأعلام من
جماعته المخلصة ، وأهمية دعوته ، وحركته زمناً طويلأ ، ولعلَّ اول مجهودٍ بذل في هذا السبيل هو مفال هذا الكاتب المسهب ، الذي نشره المرحوم العلامة السيد رشيد رضا في مجلته العالمية " المنار " الغرَّاء في سنة 349 اهـ-
350 اهـ(1) (931 ام) ، واهتتمَ بهذا المقال ، فنشره رسالةً مفردةً أسماها
ترجمة " السيد الإمام احمد بن عرفان الشهيد ، مجدد القرن الثالث عشر "(2)
ونفدت في مدَّةٍ قريبة ، وكان مؤلف هذه الرسالة لم يتجاوز الثامنة عشرة من
عمره ، فلم تكن في مستوى الكتب التي تؤلف عند النضج الفكري ، والدراسة
الوافية ، والتجربة الواسعة.
وقد وفق الكاتب لوضع كتابٍ متوسِّط في أسلولب قصصي شائق ، جمع فيه حكايات من تاريخ هذه الحركة الكبيرة ، وصاحبها العظيم ، تلقي الضوء
على مراميه البعيدة ، وتأثيره العميق ، وأخلاق من صحبه ، وتأثر به ، مع استعراضيى مجملى لتاريخ هذه الدَّعوة ، ومراحل حياة صاحبها ، اسماه " إذا
هبت ريح الإيمان " صدرت منه ثلاثة طبعات من لكهنؤ ، وبيروت .
ومن يجهل هذه الشخصية الكبيرة المعروفة التي سُجِّلت حياتها بهذا الاهتمام والتفصيل بأقلام اصحابها ومعاصريها ومن أتى بعدهم من مولده إلى
شهادته ، وأضيء كل جانبٍ من جوانب حياته اللامعة ؟! لايجهل هذه الشخصية إلا من أغمض عينيه ، وطبق منافذ السَّمع والفؤاد ، وصفَم على ألا

(1) ظهرت الحلقة الأولى من هذه السلسلة في مجلة " المنار ! عدد ذي الحجة سنة
(2) 1349 هـ، مإيو سنة (1931 م) .

المتاهات الفكرية ، والحديث المترجم بعد أن تنور كل جانسب من جوانب هذ5
الحركة ، وسُجِّل كلُّ حادثٍ من الأحداث المتصلة بها بطريقٍ عصريّ منظَم،
يكشف عن تناقض للعصر الجديد ، وضلالٍ علمي غريسب لاً مبرر له.
نفدِّم فيما يلي بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الموقف المضفل
الذي اتخذه كثير من كتاب الغرب ؟ الذين اشتهروا بالتنفيب ، والبحث الدقيق
على الموضوعات التاريخية ، واختاروا ذلك شعاراً لهم.
قال " هيوكس " : (ثاء"!لا+ مما ا"،،ع 3ء+اه؟+) في " قاموس الإسلام "
(8+ءاثا ا آه ل!،قي !ه أ أحا!) في مقال " الوهابية " :
" ثم لما توجه رجل مضطرل! قلق من الهند إلى مكة للحجَ للتكفير عن
ذنوبه ، فقبل تأثير المبشرين الوهابيين هناك الذين كانوا ينشرون دعوتهم
الوهابية سرياً في الحجَاج ، عاد اللصنُ ، وقاطع الطريق السيد أحمد الذي
ينحدر أصله من " رائي بريلي " بعد تأدية مراسم الحج في مكة عام 822 ام
بعزم إعادة الهند الشمالية بكاملها إلى راية الإسلام " .
وقال " أولف كيرو " (ءه،،صأ آ!اه) في مفاله (!!؟،،! ء؟+) : " الأفغان "
صفحة 301 :

" كان السيد أحمد متبعاً لأمير خان الذليل في زمانه ، والذي كان حشد
قواتٍ مرتزقةً في وسط الهند خلال عمليات الإنجليز ضد " البندار " وبعد أ ن
تشتت جيش أمير خان فقد السيد أحمد وظيفته " .
ويقول الا 4"ء+ .!) في مقال " المسلمون في الهند البريطانية " س!"+)
(ءأ 4!ا ؟ثا أ أ أ-اكا !ه ثا،+أ اك!لا 7 صا ه .

" ولد السيد أحمد في أسرةٍ غريبة ، لعفَها كانت مكونةً من
أفرادٍ يعيشون
على وظائف عادية ، وقضى حياته بين 1809 - 818 ام كجندي
في جيش
الأمير خان البنداري ، الذي صار فيما بعد أمير تونك ، ولعقَه لم
يكن يتميز

الإمام الذي لم يوث حقَه من الإنصاف والاعتراف 1 4 1
في الهند في كتاب " المسلمون الهنود " (5!،+'ا،5 دالملا !!أ 4!(*داه)
ص 60 - 61 :
" طرد السيد أحمد بتهمة كونه وهابياً بذلةٍ وإهانةٍ من مكة " .
وقال في صفحة 24 :
" وهكذا وصل إلى " بومباي " في العام التالي متستراً في ملابس الحاج
ليكتم حياته التي قضاها كقاطع طريق " .
هذ 5 هي بعض النماذج النادرة لكتَاب التاريخ المتحضرين والباحثين
" المحققين " ، التي تنمُّ عن الكتابة بدون مسؤولية وتحم ، ولم يكن ذلك
يتوقع من المؤرخين للقرن العشرين الذين تتوفر لديهم تسهيلات السفر،
وفرص الحصول على معلوماٍپ دقيفةٍ ، والبحث عن الواقع طبقاً للمبادىء
المفرَّ،رة للتاريخ.
ومما يؤسف له : أنَ كتاب الشرق الأوسط وآَسيا الذين اضطروا إلى
الكتابة عن الوهابية والمهدوية ، وحركة الجهاد في الهند ، قد حذوا حذوهم،
وقلدوهم تفليداً أعمى واعتمدوا على هذ 5 المصادر ، ولم يأتوا بشيءً من
تلفاء
انفسهم سوى نقل ما كتبه هؤلاء المؤرخون الأوربيون .
ومما يزيد في العجب والشكوى صنيع أولعك الكتاب العرب الذين كان
يمكنهم الحصول على معلوماتٍ صحيحةٍ عن طريق الاستفادة -مباشر او
غير
مباشر - من المواد العلمية والتاريخية في الهند ، والذين كانت تربط بينهم
وبين
أولى الأفكار الصحيحة والاتجاهات السديدة من علماء الهند ، والمؤسسات
والمراكز العلمية والدينية ، صلاتٌ وثيقةٌ ، وقد جربوا ما نسجته الأغراض
السياسية والعصبية الحزبية من افتراءاتٍ ، وأكاذيب ضدَ المصلج الديني
العظيم في الفرن الثاني عشر الهجري الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه
النّه
(م 06 12 هـ) ، تراكم بها الغبار الكثيف على شخصيته وأعماله ، وقد
احتجوا
فعلاً ضدَ هذا الموقف ، وانتقدوه ، وندَدوا به.
وإليك قطعةً كنموذج من كتاب " الشيخ محمد بن عبد الوهاب "(1) :

(1) تاليف العلامة أحمدبن حجر بن محمد ال ابو طامى بن على

"كذلك غزت الدَّعوة بعض المقاطعات الهندية بواسطة أحد الحجاج
الهنود ، وهو السيد أحمد ، وقد كان هذا الرجل من أمراء الهند ، وذهب إلى
الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن اعتنق الإسلام (1) ، سنة 1816 م ، فلما
التقى بالوهابيين في مكة اقتنع بصحة ما يدعون إليه ، واصبح من دعاة ءالمذهب
الذين تملكهم الإيمان ، وسيطرت عليهم العقيدة "(2) . . . إلخ.
إنَّها في الواقع نتيجة مؤلمة ومؤسفة للتطمُّل على مائدة الكتاب الأوربيين،
والثقة ا اء،ملة بكل ما يفولون ويكتبون ، وعدم السعي وراء البحث والتنفيب
عن الحقِّ بطريقٍ مباشر ، وقد وقع فريسة هذه السطحية ، والتقليد الأعمى
الدكتور أحمد امين (3) الكاتب والأديب المصريُّ المشهور ، صاحب سلسلة

" وقام في الهند زعيم وهابيّ اسمه السيد أحمد ، حبئَ سنة 822 ام ،
هناك امن بالمذهب الوهَّابي ، وعاد إلى بلاده ، فنشر هذه

الشرعية بقطر ، وقد قدَم له ، وصححه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله بن
باز ، وقامت بطبعه ونشره المملكة العربية السعودية ، في مطبعتها الحكومية بمكة
(1) المكرمة عام 1395 هـص 88 - 89 .
(2) لم يتنبه المؤلف وهو يكتب بقلمه كلمة " السيد " أن الرجل كان مسلماً قد ورث
(3) الإسلام كابراً عن كابر فما معنى اعتناقه - يا ترى - للإسلام بعد؟

الهند ، واقام حرباً عواناً على البدع والخرافات ، وهاجم الوعاظ ورجال الدين
هناك ، وأْعلن الجهاد ضدَ من لم يعتنق مذهبه ، ويقبل دعوته ، وإنَّ الهند دار
حرب ، ولقيت الحكومة الإنجليزية متاعب كثيرة شاقة من أتباعه ، حتى استطاعت إخضاعهم (1) " .
ولعل عدد الأخطاء التاريخية إذا لم نقل -المغالطات - في هذه القطعة الصغيرة لا يقل عن عدد السطور التي اشتملت عليها ، وهي من الوضوح بمكانٍ لا تحتاج فيه إلى نفيٍ ومناقشة ، يعرف ذلك بداهة من كان له إلمام قليلٌ
بسيرة هذا الإمام ، وتاريخ دعوته وجهاده ، ومن كان له اطلاعٌ عابرٌ على تاريخ
الهند في هذه الفترة الزمنية ، وما ذلك إلا لانَ معلوماته مستعار!أْو- مستقاةٌ من
مصدر إنجليزي ، عوَّل عليه كلياً ، ولم ير حاجة إلى ان يدرس سيرة الرجل،
وتاريخ دعوته وجهاده دراسةً وافيةً م أصيلةً ، أو يذاكر في هذا الموضوع ، من له
خبرة به من رجال الهند ، والعلماء الذين كانوا يزورون مصر بين حينٍ واخر،
ولو فعل ذلك لوضعه في طليعة " زعماء الإصلاح في العصر الحديث ،" بدل
سيد أحمد خان صاحب حركة التعليم العصري الغربي في الهند ، والسيد أمير
علي صاحب كتاب (+أ،اث!ا آه 314 ا"3) " روح الإسلام " وقد نبهت الدكتور على
ذلك شخصياً في بعض لقاءاتي معه في مصر ، في يناير سنة 1951 م ، وقد
جرى الحديث عن كتابه المذكور ، ونبهته على مكانة الإمام السيد احمد
الشهيد ، والعلأَمة إسماعيل الشهيد ، وعلى الاخطاء التي صدرت من قلمه في

(1) زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص ا 2 .
(2) راجع كتاب العلامة الندوي " مذكرات سائح في الشرق العربي " ص 37 رملاحطاته

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً على النفس من وقع الحسام المهنَد
ولا أدلّ على عظمة المرء وجلالة شأنه ومكانته الحقيفية ، من شهادات

يقول أحد الكتاب ، والمؤرخين الهنود ، الذي طبق صيته الشرق والغرب ، وهو المؤلف الكبير النواب السيد صديق حسن خان (أمير بهوبال
م 307 اهـ) ، ذلك الذي شهد بأمِّ عينيه تأثير تعليم السيد وتربيته ، وعاشر
طائفة من أولئك الأفراد الذين تربوا في مدرسته مباشرةً ، وذلك في كتابه
" تقصار جيود الأحرار " :
" إنَّه كان آيةً من ايات اللّه في هداية عباد 5 ، هـاصلاح حالهم ، والرجوع
بهم إلى اللّه وعبادته ، وبلغ خلقٌ كثيرٌ ، وعالمٌ بأسره إلى درجة الربانية
" والإحسان " بتعليمه وتربيته ، وتزكيته القلبية والجسمية ، وتطهرت الهند من
أدناس الشرك ، والبدع ، والخرافات ، والأوهام ، بفعل مواعظ أصحابه
وخلفائه ، واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة ، ولا تزال مواعظه وتعاليمه تفعل
فعلها ، وتؤتي أكلها " . ويضيف قائلأ:
" وقصارى القول : إننا لا نعلم رجلاً يدانيه في جلالة شأنه ، وفضله في
أيّ جزءً من أجزاء العالم المعاصر ، وما جنا 5 الخلق من المنافع الإيمانية،
والمكاسب الزوحية من هذ 5 الجماعة الحقَّة ، لم ينالوا عشر أعشار 5 من العلماء

والكتاب ، والسنَّة ، وقام خلفاؤه ، وأتباعه المؤمنون بجولاتٍ واسعة في
البلدان والقرى ، وهدوا مئات الألوف من الناس إلى منهج الشريعة
المحمدية -على صاحبها الصَّلاة والسلام - فمن حالفهم التوفيق الإلهي،
وكانوا سعداء أخذوا يسيرون على هذا الدرب الفويم ، وبث أتباعه في
جميع النواحي حتى يواصلوا القيام بالتربية والإرشاد ، وتلقين التوبة،
والذين كانوا يكرهون الصلاة والصيام ، ويتعاطون الحشيش ، وكان الخمر
والأشربة المحرَّمة قوام حياتهم ، ويصدعون على رؤوس المحافل
والمجالس ، -سخرية واستهزاءً- بأنَّ الصلاة لم تأمر بها الشركة الهندية
الشرقية الحاكمة في الهند ، وأنَّ الصيام لم يفرضه مجلس (حكومي) فضلاَ
عن الزكاة والحج ، وكانت الرشوة والزنى ، وإيذاء عباد اللّه ، والربا،
شغلهم الشاغل ، وقد عمَّ الاختلاط فيما بين الرجل والمرأة دون نكاحِ
شرعي ، كالبهائم والأنعام مما كثر به أولاد الزنى ، وكان هناك مئاتٌ في
الشباب والشيوخ لم يختتنوا كاليهود والنصارى ، فتاب هؤلآء ، واولئك
كلهم ؟ بفضل تعليم السيد وتربيته عن ذنوبهم ، واستغفروا اللّه ، وتناكحوا ،
واختتنوا ، وعادوا إلى حياة الطهر والصفاء ، والعفَّة والحياء ، وحسنت
سيرتهم ، وصاروا أتقياء يخافون اللّه ، وكان يبايعه في وقت واحد

الطريقين معا!1) (يعني : عنوا بالتعليم إلى جانب التأليف
والتصنيف) .
ويفول أحد العلماء في اوائل هذا القرن ، الذين لهم خبرب!
واسعةٌ بأحوال
الهند وأخبارها ، وهو الشيخ عبد الأحد : " أسلم على يدي السيد
أحمد رحمه
الله أكثر من أربعين ألف هندوكي ، وغير هندوكي من الكفار ،
وبايعه ثلاثة
ملايين من المسلمين ، ولو وضعنا في الاعتبار سلسلة البيعة
والإرشاد التي
لا تزال متصلة الحلقات ، وتجري حتى اليوم على أرض الله ،
عن طريق أتباعه،
واتباع أتباعه ، ليكون قد دخل في بيعته ملايين الملايين من
الناس "(2).
ويقول العالم الرباني الشهير ، المجاهد في سبيل اللّه الشيخ
ولايت علي
العظيم اَبادي رحمه الله (م 1269 هـ) .
" ما إن دوت دعوته في الهند ، إلا وجعل الناس يترامون عليه
ترامي
الفراش على النور ، حتى كان يبايعه عشرة اَلاف نسمة في
يومٍ واحد،
وتكثّرت جماعته مع الأيام وتوسَعت ، وانسلخ آلاف الناس عن
دياناتهم
الباطلة ، ودخلوا في الإسلام ، وبايعه في مدة ستة أعوام
فحسب ثلاثة ملايين
من المسلمين الهنود ، بالإضافة إلى نحو مئة ألف رجل بايعوه

1) " صيانة الناس عن وسوسة الخناس " طبع 1270 هـ، ص 4 - 5 - 6 .
) " سوانح أحمدي " للشيخ محمد جعفر التهانيسري .
2) " رسالة الدعوة المتضمنة للرسائل التع ا للشيخ ولايت علي العظيم آبادي رحمه
الله ، صه 6 .

" قوة هذه الجماعة الإيمانية وتأثيرها تسترعي الانتباه ، فكلُّ من انضمَ
إليها بالإخلاص ، وتشرف بالبيعة ، عاد من ساعته يكره الدنيا ، ويقبل إلى
الآَخرة ، ويخاف يوم الحساب ، ولا تزال تزداد كيفيته هذه يوماً فيوماً،
ويتخلّى عن كلِّ معاني الشرك والبدع ، ويرسخ في قلبه العظمة ، والمحبة
دلّه،
وتأخذ بمجامع قلبه معاني الإجلال والإكبار والاحترام نحو الشرع
الإسلاميئ،
والحنين إلى الصلاة ، والكراهية لكل من ينحرف عن طريق اللّه ، ولو كان
أباه
أو جدُّه ، أو ابنه وبنته ، أو تلميذه أو أستاذه ، أئاً كان ، فان مخافة الله
تأخذ
من قلبه كلَّ مأخذ ، فلا يبقى فيه مجال للمجاملة أو المداراة ، وكثيو من
الناس
قد انقطعوا عن وظائفهم ، وأعرضوا عن حرفهم إذا كانت غير مباحةٍ لدى
الشريعة الإسلامئة ، أو كم منهم من هجر راحته ، ووطنه ، وخرج للّه لا
يلوي
على شيءً ، واقبل إلى الصَلاة والعبادة بفضل هذه الجماعة عالم من
الناس ،
حتى أضحى المضفلون والخرافيون يؤكدون على أتباعهم الصلاة ؟ مخافة
أ ن
ينفضُّوا من حولهم "(1) .
وهناك عدد من الكتَاب ورجال القلم الغربيين الذين اعترفوا - إلى جانب
الخطأ في الفهم ، أو تقوُّل الكذب عن تعمُّدٍ وإرادة - بالتأثير الخالد العميق
البعيد المدى لحركة السيد الإصلاحية والجهادية ، ولتعليمه وتربيته ،
وبعظمة
مقاصده وأهدافه ، وضخامتها وأصالتها ، يقول الكاتب الأوربي المعاصر
" اسمث " (ط،ا+3 ا اس!*،!،شا 4!ءما ا*) الذي درس الحركات ،
والمؤسسات التي
ظهرت في البلاد الإسلامية دراسة وافيةً في كتابه (لأء3،0 ا+ +3!04
ول !ا +،131)
" الإسلام في التاريخ المعاصر " :
" إلا أنَّ الهدف المنشود من وراء الحركة ، وقوتها النشيطة ذات الحيوية،

(1) نفس المصدر : ص

سيرته الأولى وذلك يدل على مفاصده الصحيحة ، وقد ظفَت فكرة قوَة الإسلام
في الهند باقية في القرن العشرين ، وظفَت تسيطر على المجتمع ، بل وتنفخ
في الروح وتحركه "(1) .
ويقول " هاردي " (لا 34،+ .!) في كتابه " المسلمون في الهند البريطانية"
(! أ 4 ول ا ؟ 3 أ،أع كا ! ه ،+ ا ا 3 لما 7 ص! ؟+) :
" لم يكن السيد أحمد يهدف إلى إعادة الفوة إلى الأسرة المغولية
الحاكمة ، أو الطبقة الأرستفراطية ، المؤلفة من الأمراء والأشراف ، هـانما كان
يرمي إلى إنشاء مجتمع إسلامي مثالي على غرار المجتمع الإسلامي الأول على
حدود الهند ، إنَّه كان يعتقد أنَّ المجتمع المثالي سيكسب المسلمين قوة
تمكِّنهم من التغلب على الهند ، هـاخضاعها للّه في يومٍ من الأيام ، ولم تلق
دعوته ورسالته تجاوبأ لدى الطبقة العليا ، وإنما استجابت لها الطبقة السفلى
من المجتمع الإسلامي في الهند ، وكانت هذه الطبقة - قبل قيام المحتمع
الصناعي - تضم الفلاحين الصغار ، ومثففي المدن والقرى ، والأساتذة
والمعلمين ، وبائعي الكتب ، وأصحاب التجارة والدَكاكين ، والموظفين
الرسميين الذين يشغلون وظائف عادية ، وأولي الصناعات والحرف "(2) .
وكان لهذه الجماعة ودعاتها ، والمشرفين على نشاطها نظالم دقيق ، عميق
الجذور ، واسع النطاق ، قد شمل المناطق الشرقية من الهند ، وكانت شبكة
من الدُّعاة الدينيين ، والجامعين للعشر والصدقات ، والمجندين للمتطوعة
للجهاد ، ومربيهم تربيةً عسكريةً ، لم يطلع على تفاصيلها أحد إلا وملكته
الدَّهشة والاستغراب ، يقول ألدُّ أعداء هذه الجماعة والحركة وليم هنتر
(عص!،!لما+ !لا.!لا) في كتابه " المسلمون الهنود " :
" كان يواصل هؤلاء جهودهم دون ملل وسآمة مثل الإرساليات

(1) لاع 3،0 أ+ ولعص!704 !أ +،4 ا 13 طبع نيويورك 57 9 1 م ، ص 8 .

فوق كل شبهة ، وكانوا يحملون مهارةً على إرسال المعونات المالية، والمتطوعين (إلى مركز المجاهدين) وكان هدفهم أولَا واخراَ هو إصلاح
الدين ، وتزكية النفوس " .
" ولا يسعني أن أتحدث عنهم من غير شعور بالعظمة والاحترام نحوهم،
كان أكثرهم يبدؤون حياتهم كشباب أتقياء نزيهين مستعدين ، ويظلُون مدَّة
حياتهم على حالهم في التفاني في الدين ، وحماسهم للعقيدة - قد عهدت إلى

ويتحدَّث رئيس الشرطة الإنجليزي في مقاطعة بنغال عن انتشار هذه
الجماعة وسلوكها:
" يبلغ عدد أتباع كل مبشرٍ من مبشري هذه الجماعة ثمانين ألف نسمة ا ،
ويعيشون فيما بينهم بمساواةٍ كاملةِ ، كلّ منهم يرى حاجة أخيه حاجته
الشخصية ، ولا يصدُ أحداً منهم عذرٌ ما عن مساعدة أخيه ، كفَما ألمت به
ملمة "(2) .
" واكتسحت الثورة جميع مديريات بنغال الشرقية ، والفلاحون المسلمون
عبر طريق الكنج فيما بين " بتنه " والبحر يرسلون دعمهم المالي أسبوعياَ إلى
مركز الثوار " .
أما ما اثارته هذ الحركة والدَّعوة من روح الجهاد والتضحية ، الفداء

(1) هكذا اعتاد الغربيون أن يسموا هذا الجماعة ، رمن نحا نحوهم من الكتاب .
(2) " المسلمون الهنود " لوليم هنتر ، الرسالة 0 10 ، 13 مايو 1843

بالرحلة إلى " ستهانه " من حينِ لآخر ، ويقومون بالخدمة ، فإن كان العمال الهنادك يطلبون المسامحة لممارسة تقاليدهم الدينية لدى موت آبائهم وأجدادهم ، فإنَّ المسلمين كانوا يطلبون الإجازة لعدة شهور لكي يساهموا في أداء فريضة الجهاد مع " المجاهدين " ولا يدري أي أبِ وهابي متى ينسلُّ ابنه المتحفس في الدين من بيته للجهاد " .

ويقول المستر جيمس أوكينلي ا لأا!س!ولأكل!ه 3 عول!لأ) .

" ولم يكن ضعاف القلوب من مسلمي بنغال أقل من الأفغانيين في الضراوة ، والحماسة للجهاد " .

أما بعد ! ففد آن الأوان لتقييم هذا الإمام الكبير الذي لا ينبغ إلا في قرون متطاول! تقييماً صحيحاً ، وتحديد مكانته بدقةٍ وأمانةٍ في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وفي تاريخ الفكر الإسلامي والبطولة الإسلامية ، ففد أزيج الستار عن جوانب عظمته (1) ، وأهدافه ومراميه ، ومخططاته الإصلاحية والجهادية، وعن سمو همته ، وبعد نظر 5 ، وألمعيته في الزمن الأخير.

ومن فهم هذا الدين وأساغه في إطار قوله تعالى:

" لَقَدْ مَنَ اَلنَّهُ عَلَ اَئمُؤْصمنِينَ إذ بَعَثَ فِيهخ رَسُولا مِنْ أَنفُسِ! يتلُواْ عَلَتهخ ءَايَتِهِء وَيُز!يهِغ وَيُحَفِمُهُمُ اَنكِعَت وَأتحِ!مَةَ لَيان كاَلؤُأ مِن قتلُ لَفِى ضَنَلِ مُبِينٍ " أ آل عمران : 4 16 1 .

والذي تجلَّت عليه آفاق هذا الدين الواسعة ، وأعماقه الغائرة ، وأبعاد 5 المترامية ، بين عقيدةٍ وعبادةٍ ، وأخلاقِ وسلوكٍ ، وتزكيةٍ وتربيةٍ ، وصلةٍ عميقةٍ وثيقةٍ باللّه ، وربانيةٍ قرآنيةِ نبوية ، وسياسيةٍ قويَّةٍ عادلةٍ راشديَّةٍ (2) وفهم الإسلام في صورته الأولى الأصلية ؟ التي مثلها صحابة الرسول ، وتابعوهم بماحسان ، ا لا في صورته المجزأة الممزقة التي انقسمت بين الظاهر والباطن،

(1) أحسن ما كتب في هذا الموضوع وما يلقي ضوءاً على ذلك ، ولو بإشارة وكتابة،

(2) كتاب " منصب الإمامة " ، الفذ ، للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ،

والجسم والروح ، والدين والسياسة ، ولا في الصورة المشوهة التي كانت انعكاساً للفلسفات الغربية ، والتفكير الغربي . ورد فعل من حيث لا يشعر به صاحبها) أنصف هذه الشخصية وأعجب بها ، وأحقَها مكانها اللائق بنوابغ الإسلام وأعلام التاريخ الإسلامي.

وإنما كانت سيرة هذا الرجل ، وفهمه للإسلام ، ونهوضه لإعادته إلى دعوته الأولى ، وقوته الأولى ، نابعاً من دراسة القرآن العميقة . وإشعاعاً من السيرة النبوية ، وحبه العميق لها ولصاحبها ، وقد امتزج كل ذلك بلحمه ودمه ، وسرى في عروقه وجسمه ، ثم كانت تهيئةً من الثه ، وتربيةً منه ؟ لشدة حاجة المجتمع الإسلامي المعاصر إلى مصلحٍ كبيرٍ ينفخ فيه روحاً جديدةً، وحياةً جديدةً ، ولصدق نيته ، وصفاء طوتته ، وتجرُده عن الأغراض ، وحب العلؤ والطموح ،ء وكثرة دعائه ، وابتهاله إلى الله ، فهو لا يقاس على الفادة القوميين والزعماء السياسيين ، ومؤسسي الحكومات والدول ، ومنشئي الجماعات والحركاب .

ومن تذوق " النهج النبوي المحقَدي " في الأخذ ، والردّ، والاستحسان ، والاستهجان ، والأخلاق ، والعادات ، والعبادة ، والدعاء ، والسياسة، والحكم ، النهج الذي نستطيع أن نسميه المزاج النبوي ، أو الطبيعة التي يطبع عليها الأنبياء ، فيعرف ما يجيش في صدورهم ، وما يقلق بالهم ، ويؤرقهم في الليل ، ويشغلهم في النهار ، ويفجر ينابيع قلوبهم ، ويجري السيل من عيونهم ، ويلهمهم الحكمة وفصل الخطاب . ويهدي بهم كبار الضلأَل والمعاندين ، فمن تذؤَق هذا الذوق ؟ ملك المفتاح الذي يفتح به هذا الكنز، ويتعرَّف به على هذه الشخصية الفريدة ، التي أُغلقت على كثيرٍ من القراء ، وأُبهمت على كثيرٍ من الباحثين ، الذين سيطر عليهم التفكير المادي الروتيني، وخضعوا للمقاييس والمفاهيم ، والمثل العصرية.

" وَاَلتَهُ يَهْدِى مَن يَشَاُ اكَ !زَطِ مُّستَقِيي " ا النور : 46 ، .

!! !و!

المفامة الشيحغ رحمة الله بر خليلى الرحمر المنمافي الطيرانويما

يُسعد كاتب هذ 5 السطور أن يكتب في موضوع يتصل بعَلَم من أعلام هذ5
الأمة ، قئضه اللّه للذبِّ عن حوزة الإسلام ، وإظهار الحق ، وإزالة الشكوك ،
وإزالةِ الاوهام (2) ، حين كان الخوض في هذا الموضوع مجازفةً بالحياة ودعوة
للموت الزؤام ، وأتى في ذلك بحجج وبراهين لم يسبق إليها ، ولفي خصومه
على يد 5 من الهزيمة والانتكاس ما لم يلقو 5 من قبل ، وانتهت إليه الرئاسة في
هذا الفن في القرن الرابع عشر المهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) ،
وطبفت شهرته الآَفاق وسفَم له معاصروه وأقرانه وعلماء العالم الإِسلامي
بالإِمامة والزعامة في هذا الموضوع ، ألا وهو مولانا (رحمة اللّه الكيرانوي) ،
مؤلف هذا الكتاب " إظهار الحق " ، ومؤسس المدرسة

1) طُبع الكتاب على نفقة الشؤون الدينية بدولة قطر بعناية سعادة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، مدير الشؤون الدينية ، ومراجعته ، سنة 401 اهـ(980 ام) .

2) تلميح باسماء مؤلفات العلامة الشيخ محمد رحمة دئه الكيرانوي المكي الثلاثة

3)

الذين يتمتعون بأكبر سلطة وقوة في ذلك العصر ، وحكومات قوية ومملكة لا تغرب عنها الشمس ، ومدنية زاهرة دافقة بالحياة والنشاط ، وكان هو بالعكس ينتمي إلى شعب(1) جريح القلب والجسم ، متحالم الأعصاب ، ضعيف الثقة بتراثه وأمجاده ، يعيش في عزلة عن العالم ، ينظر إليه الإنجليز كالمنافس الطبيعي الوحيد ، والخطر الحقيقي على زحفهم وتقدمهم في آسيا

وقد ضعفت معرفة علماء المسلمين - فضلاً عن عوامهم ودهمائهم- بالنصرانية ومصادرها - بما فيها العهد القديم والجديد وشروحهما وتفاسيرهما وتاريخهما - وتطورها وارتقائها ، وما طرأ عليها من تغييرات وتحويلات ، وما مرَ بها من أحداث وما عبث بها من حكومات ومجامع ، كانوا في شغل شاغل بما كانوا يدرسونه من علوم دينية شرعية ، أو فنون عقلية يونانية (2) ،

(111) الشعب المسلم الهندي .

(2) يستثنى من ذلك أفذاذٌ من أصحاب الاختصاص في دراسة الديانات الأجنبية والاطلاع على العهد القديم والجديد ، من علماء أسرة حكيم الإِسلام ولي الله الدهلوي ، الذين كانوا يدرسون التوراة وإِلإنجيل مع ما يدرسونه من الكتب والصحف ، والشواذ من علماء الهند المتبحرين أمثال العلامة السيد

ينابيعها الأصلية ، واستعراض واسعلما كتب عنها ، إثباتاً ونفياً ، وتوثيقاً
ومعارضةً ، ونقداً وبحثاً ، وكان الذي يبدأ بهذه الرحلة الطويلة المضنية يشعر
بأنه سائرٌ في نفق طويل مظلم.
وكانت وسائل هذه الدراسة وموادها مفقودة أو نادرة ندوراً كبيراً ، وقد
وضع أكثرها في اللغات الأجنبية ، وكان من اقربها إلى علماء هذه البلاد - شبه
القارة الهندية - اللغة الإنجليزية ، وكانوا حديثي العهد بها ، وقد زهّدهم فيها
وكرَّهَها إليهم أنها لغة الفاتحين المهينين لهم ، ولا يتوقع وجود هذه المصادر
في هذه البلاد لأنَّ ذلك ينافي مصلحة الدعوة إلى النصرانية ، ويضعف موقف
الدعاة إليها ، ويثير عليهم مشاكل جديدة ، فكانوا على إقصائها من هذه البلاد
أحرص منهم على جلبها أو تزويد المكتبات بها.
كل ذلك كان يعقّد مهمة الشيخ رحمة اللّه وزملائه ، الذين وهبوا حياتهم
للدفاع عن الإِسلام ، ودحفالشبهات حوله ، والوقوف أمام القسس
و(المبشرين) -كما كانوا يسمون أنفسهم - في موقف الدفاع بدل موقف
الهجوم ، وتلك هي الحكمة الحربية (والاستراتيجية) الجدلية التي ما زالت
ولا تزال سياسة القادة المحنَكين ، والحذاق العسكريين ، ولكن ذلك لم يفت
في عضد الشيخ الذي هَيَّاه اللّه ليخوض هذه المعركة الحاسمة التي لا بد أ ن
يخوضها الشعب المسلم الهندي الذي واجه الدعوة المسيحية وجهاً لوجه،
قبل أن يواجهها شعب آخر في قطر إِسلامي أو عربي ، فكان يتوقف عليه مصير

تحدَّاهم تحدياً سافراً ، وقام بجولؤ في مديريات الهند يخطب في المجامع
ويدعو إلى النصرانية ، وكانت المشكلة مشكلة اللغة ، وكان الشيخ لا يعرف
اللغة الإنجليزية ، ولتعلم اللغات الأجنبية سنٌّ طبيعية قد تخطَّاها الشيخ الذي
ظلَّ زمناً طويلاً مشغولًا بالعلوم الدينية والعقلية ،وكان (فندر) لا يعرف إلا
اللغة الإنجليزية ، فأين القنطرة التي تصل بينهما ، وأين الرجل الذي يساعد
الشيخ رحمة اللّه في الاطلاع على المصادر الأجنبية والوثائق المسيحية التاريخية ؟ .
هناك قَيَّضَ اللّه له مسلماً غيوراً - ودلّه جنود السموات والأرض - وهو
الدكتور (محمد وزير خان الأكبر آبادي) ، الذي سافر إلى لندن سنة
(832 ام) يدرس الطب الجديد ، وقد نال فيها شهادةً عاليةً وأتقنَ اللغة
الإنجليزية ، ودرس اللغة اليونانية ، وعُني بدراسة المسيحية من مصادرها
الأصلية ، واقتناء كتبها ، واستصحب هذ 5 المكتبة الثمينة (1) إلى الهند ، وكان
عضد الشيخ الأيمن في هذا الجهاد العلمي الكبير الذي كان جهاد الساعة وواجب الوقت.
ولما أكمل الشيخ (رحمة اللّه) مهمته في الدراسة ، واخذ عدته وعتاد 5
لخوض المعركة وقد استفحل أمر (فندر) ورأى أنَّ الجو قد خلا له فازداد
جراةً وتحدياً ، ورأى الشيخ (رحمة اللّه) انه لا سبيل إلى الحد من نشاط
هؤلاء القسس - وفي مفدمتهم وعلى رأسهم القس (فندر) - وإعادة الثقة إلى
نفوس المسلمين ومفاومة (مركب النفص) فيهم إلا مناظرة فندر في جمع
حافل يحضر 5 المسلمون والمواطنون ، والحكام الأوروبيون والنصارى
والمتنصِّرون ، وكان فندر كثير الإدلال بكتابه " ميزان الحق "(2) فخوراً متبجحاً
به ، ويرى أنه ليس من السهل معارضته ونفضه من علماء المسلمين.

(1) ساهم الدكتور في ثورة 1857 م وهاجر على إثرها إلى مكة المكرمة حيث لحق
بالشيخ رحمة الله ومات ودفن بالبقيع.
(2) صدرت له الطبعة الثامنة باللغة الفارسية سنة 1849 م من آكره ،

حرص الشيخ رحمة اللّه على مناظرة القس (فندر) كل الحرص ، فراسله
في هذا الموضوع وألحَ عليه بالظهور أمام الجمهور وعلماء المسلمين،
واستعان في ذلك بكل من يرى فيه غناءً أو تأثيراً ، ولما رأى الفس أنه لا مناص
له من هذه المناظرة ، قبلها راضياً أو مكرهاً ، وهو لا يقدّرُ نتائجها تقديراً
صحيحاً ، وتقرَر عقد مجلس المناظرة في 11 من رجب سنة 270 اهـ(10
من أبريل 1854 م)(1) في أكبر آباد - آكره ، إحدى مديريات الولاية الشمالية
الرئيسية وأحد مجالات النشاط التبشيري في الهند ، وفي حي من أحيائها
المعروفة بحارة (عبد المسيح)(2) .
بدأ الحفل في اليوم المعين والساعة المحدَّدة ، وقد حضرها ولاة المديرية
من حكام وقضاة وبعض كبار موظفي الثكنة الإنجليزية من الإنجليز ، وحضر
الفس الشهير فندر (3 ح 4!داع) والفس وليم كلين (!،حإح ول،أ إ ا أ*) وعدد كبير
من أعيان البلد ووجهائه ، ومن أبناء البلد المسلمين والمسيحيين والهنادك
والسيخ ، وكان الدكتور محمد وزير خان بجوار الشيخ رحمة اللّه يساعده
ويتعاون معه ، وكانت خمس قضايا موضوع البحث والمناظرة وهي:
ا - التحريف في الكتاب المفدس " العهد القديم والجديد " .

(1) قبل الثورة بثلاث سنوات .
(2) منسوبة إلى أحد المتنصرين من أبناء البلد ، ويظهر من ذلك نفوذ حركة التنصير في

وخارجه ، وكانت حديث النوادي والشغل الشاغل والمقيم المقعد في البلد-
عن اعتراف القس (فندر) بوقوع التحريف في ثمانية مواضع من الإنجيل،
وقد أفزع ذلك الولاة وانصار (فندر) وشيعته ، ولكنه سهم اطلق من القوس

وتزايد عدد الحاضرين في الغد ، وازداد عدد الحكام الإنجليز،
والمسيحيين والهنادك والسيخ وحضرها جتم غفير من المسلمين ، وأصرَ
(فندر) على ان الأخطاء التي وقعت في الإنجيل كانت من سهو الكاتب،
اما العبارات التي تتضمن عقيدة التثليث وألوهية المسيح والفداء والشفاعة
فهي من التحريف ، وقد رد عليه الشيخ بقوله : (إنك ما دمت قد اعترفت
بوقوع التحريف في الإنجيل فقد أصبح هذا الكتاب مشكوكأ فيه برمته) ،
وانتهى البحث عند ذلك ، ولم يرجع القس إلى البحث والمناظرة في اليوم
الثالث (1) ، وكان من الواضج أنه انسحب من ميدان المناظرة ، وكان
انتصاراً رائعاً للجانب الإِسلامي ، قويت به معنويات المسلمين وتشجعوا على
مواجهة الفسس ورد دعاويهم ، وفقدت الدعوة التبشيرية الكثيرَ من اعتبارها
وقيمتها

وبعد عامين قامت ثورة 1857 م التي كانت المحاولة الأخيرة اليائسة
للتخلص من (الأخطبوط) الإِنجليزي وطرح نيره ، وعلى أثر إخفاقها تعرَضَ
المسلمون لرد فعلى عنيف من جهة الإِنجليز الفاتحين الموتورين الذين كانوا
يعتبرون المسلمين أصحاب الفكرة والقيادة في هذا النضال ، والمواطنين
تابعين لهم ، فكان حنقهم شديداً على علماء المسلمين وأهل

(1) راجع للتفصيل " البحث الشريف في مسالتي النسخ والخريف ! في حكاية هذه
المناظرة وخبرها للشيخ رفاعي الخولي على هامث! " إظهار الحق !

في المعركة الدينية ، واسهم في الكفاح ضدهم ، وقد اختفى مدة في قرية
صغيرة ، ولما دخلت الجيوش الإِنجليزية في هذه الفرية أخذ المنجل ، ودخل
في مزرعة ، وتشاغل بحصاد الحقل كفلاح صغير مغمور .
واستطاع بذلك أن ينجو بنفسه ويصل إلى (سورت) ميناء الهند ، ويهاجر
منها إلى البلاد المقدس! ، وكان ذلك في سنة (1862 م) ، يعني بعد الثورة
بخمس سنوات ، وصودرت أملاكه التي كانت كبيرة وواسعة ، وبيعت بالمزاد
العلني ، وكان ذلك في أيام خلافة السلطان عبد العزيز العثماني ، هـامارة
الشريف عبد الله بن عون ، ولما عُرِفَت منزلته العلمية في مكة وبلاؤه في الدفاع
عن الإِسلام سمح له بالتدريس في الحرم المكي ، وتوثَّقت بينه وبين عالم مكة
الجليل الشيخ (أحمد بن زيني دحلان) الصداقة ، وهو الذي كان له الفضل
في التعريف به عند الشريف وعلماء مكة وأعيانها.
وصادف أنَ القس (فندر) بعدما قضى فترةً في الأقطار الاوروبية
كألمانيا وسويسرا وإنجلترا ، أرسلته الإِرسالية الكنسية في لندن إلى
القسطنطينية ليقوم بالدعوة والتبشير في مقر الخلافة الإِسلامية وقلب العالم
الإِسلامي ، وقد قابل السلطان عبد العزيز ، وحكى له قصة المناظرة في
الهند ، وذكر انه كان للمسيحية فيها انتصار على الإِسلام ، وأهئمَ ذلك

وسَنَّ في ذلك قوانين صارمة ، وكثيراً ما كان رالسلطان يجتمع بالشيخ بعد
صلاة العشاء ويصغي إلى حديثه ويحضر هذا المجلس خير الدين باشا التونسي
الصدر الأعظم ، وكذلك شيخ الإِسلام وغيره من كبار العلماء .
واقترح السلطان عبد العزيز والصدر الأعظم خير الدين باشا على الشيخ
بعدما سمعا قصة المناظرة ، وعرفا طولَ باعه وواسع اطلاعه في هذا
الموضوع ، وقوة عارضته واقتداره على نقد المسيحية ومصادرها ، أن يؤكف
كتاباً بالعربية يتناول فيه القضايا الخمس التي دار عليها البحث في مناظرة
(اكره) بالتحقيق والتفصيل ، وقبل الشيخ هذا الاقتراح ، وبدأ في تأليف
كتاب " إظهار الحق " وهو مقيمٌ في الآستانة في شهر رجب 280 أهـوأكمله
في ذي الحجة في نفس السنة يعني في ظرف ستة أشهر ، وقدَمه إلى
السلطان ، ولكنه ذكر في المقدمة أنَ هذا التاليف كان تحفيقاً لرغبة شيخ
العلماء " السيد احمد بن زيني دحلان " ، فكلمه في ذلك خير الدين باشا،
وقال إنه كان امتثالًا لأمر أمير المؤمنين ، فكان اللائق أن ينوّه بذلك إكراماً
لمركز الخلافة وإنصافاً للواقع ، فاعتذر الشيخ وقال : إن هذا العمل كان
واجباً أن يكون خالصاً لوجه الله لا يشوبه غرض دنيوي ، أو تزلف إلى امير
أو سلطان ، وقد سبق أن شيخ العلماء رغب إليه في ذلك ،

بنصه وفضَه ، كما هو الشان مع القرآن الكريم والمؤمنين به(1) .
وقد كان شيخ الإِسلام (تقي الدين أحمد بن تيمية) موفقاً كل التوفيق في إيثار خطة الهجوم في كتابه " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح "(2) ، مع أنَّ قيمة الصحف الأربعة للإِنجيل لا تعدو عند المحققين قيمة كتب السيرة والحديث من الطبقة الثانية والثالثة ، ليس لها سند متصل صحيح ، وقد ألفت بعد رفع المسيج في فترات مختلفة ، وفيها أشياء من كلام المسيج وأشياء من افعاله ومعجزاته (3) .
وقد تفطَن الشيخ (رحمة الله) بدقة دراسته وأصالتها وأصاب المِحَزَّ، فغئر ذلك وجه البحث والجو الذي تقوم فيه المناظرة ، وأفقد الخصومَ الموقف المشرف الذي تمتعوا به واستغلوه زمناً طويلاً.
2- الميزة الثانية : انَ المؤلِّف تجنَّب البحوث الدقيقة التي يعَسع فيها الجدال ويكثر فيها القيل والقال ، بل اعتمد في الكتاب على التناقضات الواضحة والبديهيات الجلية التي لا تقبل التاويل ، واستخرج منها نتائج كنتائج رياضية لا يختلف فيها اثنان ، فقد أثبت انَ التوراة والإِنجيل مليئة بالاختلافات والتناقضات ، وقد وقعت فيها أخطاء فاحشة عدَ منها مئة وثمانية 108 خطأ، وبرهن بذلك على أنها كلها ليست إلهاماً من اللّه ، وأنَّ التحريف قد وقع في " الكتاب المفدس " لا محالة ، من زيادة ألفاظ ، وحذف كلمات ، وعبارات إلحاقية ، وبذلك أصبح هذا الكتاب شديد الوطأة على من يؤمن بكونه صحفاً سماوية منزلةً وصلت إلى البشر عن طريق الوحي والإِلهام .
3- تعرَض المؤلف فيه لمغالطات النصارى وتمويههم ، ورد عليها في

(1) راجع كتاب العلاَّمة الندوي " النبوة والأنبياء في ضوء القرآَن " ، فصل " الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ ! طبع دار القلم - دمشق.
(2)
(3)

4 - وضع المؤلف العلاًمة حقيقة التثليث في النصرانية على محك العقل
ونقدها نقداً علمياً ، يستسيغه كل من رُزق العقل السليم والذوق الصحيح.
5 - لم يكتف المؤلف بنقد المسيحية وعقائدها وصحفها ، بل أضاف إلى
ذلك الحديث عن القرآن الكريم وإثبات أنه كلام الله لا شك في ذلك ، وأجاب
في هذا الصدد على كل ما عارضه به النصارى وما اعترضوا به على القراَن ،
وذكر في ذلك نبذةً من سيرة الرسول !ي! ومعجزاته ، والبشارات التي وردب
في شأنه ، وقد ذكر ثماني عشرة (18) بشارة ، وحقق صحة الأحاديث.
لذلك كان الإقبال على هذا الكتاب كبيراً ، والعنايةُ به عظيمة ، وقد
ظهرت له الطبعة الأولى في عام (281 اهـ) في إستانبول ، ونقله عالم تركي
إلى اللغة التركية وسماه ب " إبراز الحق " ، وقامت الحكومة العثمانية بترجمة
الكتاب إلى عدة لغات .
ونقله أحد الكتاب بالإِنجليزية في الهند إلى اللغة الإنجليزية ، ولا زالت
هذه الترجمة موجودة في مكتبات الهند ، والباكستان (1) .
وترجمه الشيخ (غلام محمد الرانديري) إلى الكجراتية إحدى لغات الهند
الاقليمية . وترجم أخيراً الى اللغة الأردية " بائبل سي قرآن تك

(1) مع الأسف لم ينزل! هذا الكتاب إلى السوق ولا إلى المكتبات في الهند أو إنجلترا

162 العلأمة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي
384 اهـواثنى على الكتاب وعلو مكانته كباق العلماء في الشرق العربي،
منهم الشيخ (عبد الرحمن بك باجه جي زاده) في كتابه " الفارق بين المخلوق
والخالق " ، ومنهم الشيخ (عبد الرحمن الجزيري) عضو هيئة كبار العلماء
في مصر في كتابه " أدلة اليقين " ، والعلامة السيد (رشيد رضا) منشى ء مجلة
" المنار " في تقديمه لإِنجيل برنابا ترجمة الدكتور (خليل
[illegible]

فى جمؤ

الم!مة السير !ريق حسو

يسعدني أن أقدِّم لكتاب أُلِّف عن حياة الأمير السيد (صديق حسن خان)
وآثاره ، وشعوري بهذه السعادة والاغتباط يرجع إلى عدة أسباب سأتناول شرح
بعضها في هذا التقديم القصير.
لقد ولدت في بيت : كان موضعه الاثير الحبيب ، بل هوايته التاليف في
سِيَر الرجال وطبقاتهم ، وتراجم العلماء وأهل الفضل ، وخاصة الذين أنجبتهم
أرض الهند ، ونبغوا في شبه القارة الهندية منذ دخول الإِسلام في هذه البلاد
إلى هذا القرن ، ونشأتُ في بيئؤ كان الحديث الدائر المتكرر في أوساطها
ومتعة المتحدثين فيها ، الإِشادة بالمُثل والفيم الإِنسانية والعلمية ، والتنويه
بسماتِ العلماء الكبار ، ومجالات اختصاصهم وتبريزهم ، والشعائر الغالبة
عليهم ، والتغنّي بنبوغ أصحاب النبوغ ، وعبقريةِ أصحاب العبقريات في
مختلف العصور والأمصار في إكبار وإعظام ، بل في شيء من الهيام ، فثارت
في نفسي ملكة الإِعجاب بمواضع العظمة والنبالة ، ومكارم الاخلاق وعلوّ
الهمة ، وسموّ النفس لدى أفراد البشر بصرف النظر عن جنسيتهم،

إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين ويعدونها من
حثالة العلوم ، وبراية الآَداب(1) ، ويستخدم العلماء الممتازون هذه العلوم
والآداب في سبيل إثبات الدين ، والدعوة إلى اللّه ، ويخرجون لأهل
عصرهم : " مِن بَين فَرْث وَدَ ! ئبًئا ضَا لِصَا سَابَغا !نَرِبِينَ " أ النحل : 6 6) .
ونشأتُ كذلك على حب من يوفقه اللّه ويقويه على الجمع بين الرئاستين
العلمية والعملية ، والحسنيين الدنيا والآَخرة ، والنقيضين (في عرف الناس)
من إمارةٍ أو وزارة في جانب ، والاشتغال بالتاليف والتدريس أو التربيد
والإِرشاد والإِصلاح ، وإزالةِ الفساد في جانب اخر ، ولذلك نشأتُ على معرفة
العلاّمة الأمير السيد صديق حسن خان معرفةً أكثر وأعمق من المعرفة التي تنشأ
عن الكتب ، وتعتمد على السماع والرواية ، وعرفت مواضع النبوغ والعظمة

و يفو ل :
(وكان غايةً في صفاء الذهن ، وسرعة الخاطر ، وعذوبة التقرير ، وحسن التحرير ، وشرف الطبع ، وكرم الأخلاق ، وبهاء المنظر ، وكمال المخبر، وله من الحياء والتواضع ، ما لا يساويه فيه أحد ، ولا يصدق بذلك إلا من تاخَمه وجالَسه ، فإنه كان لا يعدُّ نفسه إلا كأحد الناس)(3) .

(1) البراية : ما يسقط عند نحت القلم ، وهو المرذول الذي لا ينفع.
(2) نزهة الخواطر : 187/8 .

وكذلك كان إعجابي وإكباري بنابغة القرن التاسع الهجري ، وأحد أبناء الهند الأفذاذ (خواجه عماد الدين محمود الكيلاني) ، وزير الدولة البهمنية الكبيرة (813 - 886 هـ) ، تلميذ الإمام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، ومؤلف كتاب " مناظر الإنشاء " ، ومؤسس أكبر جامعة في بلدة
بيدر ، يقول عنه مؤرخ الهند ومترجم نوابغها العلآمة عبد الحيّ الحسني:
(كان عالماً كبيراً بارعاً في المعقول والمنقول ، لا سيما الفنون الرياضية وصناعة الطب والإِنشاء وقرض الشعر ، وكان باذلًا سخياً شجاعاً ، حسنَ العقيدة ، حسنَ الفعال ، يجزل على اهل العلم صلات جزيلة ، ويرسلها إلى
خراسان وما وراء النهر ، والعراق ، وكان لا يأكل مما يحصل له من أقطاع الأرض شيئاً بل يصرفها على مستحفيها ، وكان يحفظ رأس ماله ، وينضيه بالتجارة فيأكل ما يحصل له منها) .
وله اثار باقية في ارض ! الدكن) ، منها المدرسة العظيمة بأحمد اباد بيدر ، وتلك العمارة في غاية الحسن والحصانة لا يوجد لها نظير في بلاد الدكن ، بناها في سنة ست وسبعين وثمانمئة ، وتاريخه " ربنا تقبل منا " . ويقول :
إ تدرَّج إلى الإمارة ، واستوزره علاء الدين شاه البهمني ، وجعله جملة الملك ، ثم لقَّبه محمد شاه البهمني بخواجه جهان)(1) .
وكذلك كان إعجابي بالأمير قائد الجيوش المغولية الأكبر عبد الرحيم خانخانان ، الذي يقول عنه العلأَمة السيد عبد الحي الحسني:
إ لم ينيض من الهند مثله ، ولا من غيرها من الالمحاليم السبعة (2) ، من يكون جامعاً لأشتات الفضائل)(3) .

(1) " نزهة الخواطر " : 3/ 171 - 173 ، وترجم له السخاوي في الضوء اللامع وذكره
(2) طاش كبرى زاده في " مفتاح السعادة " .
(3) لعله يريد في القرن الحادي عشر وما يتصل به.

ويتقدَّم فيفول :
(وكان له من النقادة التامة ، والشهامة الكاملة ، وعلؤَ الهصَة والكرَم ما لا يمكن وصفه ، مع المعرفة للأدب ومطالعة كتبه ، والإشرافِ على كتب
التاريخ ، ومحبةِ أهل الفضائل ، وكراهةِ أرباب الرذائل ، والنزاهة والصيانة، والميل إلى معالي الأمور ، حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده من يساويه في
مجموع كمالاته ، وكان مع ذلك لا يعفي نفسه عن مطالعة الكتب ، فإذا كان
على ظهر الفرس وقت طعنة أو نهضة رأيت الأجزاء في يده ، وإذا كان يغتسل
رأيت الاجزاء في يد خدَامه يحاذونه وهو يطالعها ويغتسل)(1) .
وكذلك الامير الكبير نَوَّاب مرتضى بن أحمد البخاري (025 اهـ) الذي يقولى عنه العلاَّمة الحَسَني:
ا لم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير ، والسخاء والكرم ، والمحبة لاهل الفضائل ، والمَيْل إلى معالي الامور . . " لقبه جهانكير بن اكبر
شاه " بصاحب السيف والقلم)(2) .
وكان من هؤلاء الأفذاذ النوابغ الذين جمعوا بين أشتات الفضائل ، وأنواعِ المحامد والشمائل ، العلاَّمة الأمير السيد صديق حسن خان ، أمير ولاية بهوفال ، وكان اسمه من الأسماء الاولى التي طرقت اذني في طفولتي ، وذلك
بسبب الوشائج والصلات الوثيفة التي كانت بيني وبين أسرة الأمير ، وهي وشائج العقيدة السنية الخالصة ، وارتباط والده العلاّمة السيد أولاد حسن القنوجي الروحي والديني بكبير أُسرتنا وشرفها الإِمام السيد أحمد بن عرفان
الشهيد ، الذي بايعه الاول على الدعوة إلى اللّه ، والعمل بالشريعة والسنّة
والجهاد في سبيل اللّه ، حتى كان موضع ثقته وسفيره الخاص إلى بعض الملوك
والكبراء ، ووشحة القرابة كذلك.

(1) " نزهة الخواطر " : 5/ 222 - 223 .

التي كانت من مواطن أسرتنا بعد شهادة الإمام السيد أحمد ، زيادة على ذلك
كان نجله اكبر العلأمة السيد نور الحسن من أعر أصدقاء والدي ، ومن
توثقت بينهما المحبة والوداد ، والانسجام بين الأذواق والأخلاق ، جاء في
كتابه " نزهة الخواطر " :
(وكان له حبّ زائد لجامع هذا الكتاب ، على أنه أكبر منه سناً وأغزر منه
علماَ ، ويُكثر التردّد عليه ، ويبالغ في تعظيمه ، ويحرص على مجالسته،
ويبث إليه بذات نفسه)(1) .
ولا أزال أذكر مرافقتي لوالدي في زياراته له ، وقد كان يبيت بعض الليالي
في قصره وأنا معه ، وقد توفي في حياة والدي (سنة 1336 هـ) ، فكان كثير
التحشُر عليه دائم الذكر له.
وقدَر الله ، بعد وفاة الأمير السيد نور الحسن ، أن أقضي فترة لا تقل عن
ثلاث سنين في منزله بلكهنؤ مع أخي اكبر الدكتور السيد عبد العلي
الحسني ، مدير ندوة العلماء سابقاً ، كأحد ابناء الأسرة ، وذلك بين العاشرة
والثانية عشرة من سني ، أسمع الكثيرَ من أخبار العلأَمة الأمير ، وأتقفَب بين
أبناء هذه الأسرة النجيبة داخل المنزل وخارجه ، فوعيت الكثير ، وعشت
الزمن الماضي حساً وشعوراً وخيالًا ، ثم لما تقدَمت في السن

(1) راجع للتفصيل " نزهة الخواطر ! : 5/

وعرفه عن كثب ، وقد وُلد مولانا حيدر حسن خان حوالي سنة إحدى وثمانين
ومئتين وألف.
إنَّ جمعه بين الرئاستين العلمية والعملية لا يأتي إلا لأفراد الناس في
فترات قليلة ، وكثرت مؤلفاته التي بلغ عددها إلى اثنين وعشرين ومئتين ، وإذا
ضُمَّت إليها الرسائل الصغيرة بلغت إلى ثلاثمئة ، وقد قام في مجال التأليف
والإنتاج العلمي بما لو قامت به مجامع كبيرة في الشرق والغرب ، لاستحفت
الإِعجاب والتقدير ، وذلك كلُى رغم المآخذ التي لا يخلو عنها كثير من كبار
المؤلفين من تلخيص أو تجريد ، أو نفل من لسانٍ إلى لسانٍ آخر ، او استعانةٍ
بالزملاء والفضلاء ، أو اقتباسيى من مؤلفات سابقة ، ثم تشجيعه للحركة العلمية
التأليفية ، ونشر آثار السلف والعلماء المحققين الناصرين للسنة ، كالعلاّمة
محمد بن علي الشوكاني ، والعلاّمة السيد محمد بن إبراهيم الوزير ، والأمير
محمد بن إسماعيل الصنعاني ، وحكيم الإِسلام أحمد بن عبد الرحيم،
المعروف بوليّ الله الدهلوي . . وغيرهم.
ومن مآثره التي لا تُنسى ولا يغمط حفها ، أذ 4 أمَر بطبع " تفسير ابن كثير"
(مع فتج البيان) ، و " فتج الباري " للعلاّمة ابن حجر ، وقد اشترى نسخة من
" الحديدة " وكانت بخط (ابن علان) ، وطبعهُ بمطبعة لا بولاق في مصر،
وكلَّف طبعه خمسين ألف روبية (1) ، وأهداه إلى أهل العلم ، والمشتغلين
بالحديث في الهند وخارجها ، وقد انتسخ " سنن الدارمي " عند قفوله من
الحج ، والبحز هائج والسفينةُ مضطربة.
ومن ماثره وحسناته انه كان السبب في انتقال العلاّمة الشيخ حسين بن
محسن الأنصاري اليماني الانتقال الأخير الدائم ، وإقامته في بهوفال ، وهو
الذي انتهت إليه رئاسة تدريس الحديث الشريف ، وانتشرت إجازته في الهند

(1) ويبلغ هذ! القدر من المال إلى مليون روبية في

الرئاسة والإمارة ، وطلوع السهيل اليماني في جواره وحماه ، أصبحت بهوفال
محطَ رِحال العلماء ، ومنتجعَ روَّاد الحديث ، وكانت لعلم الحديث نهضة
وانتفاضة لا نظير لها حتى في البلاد العربية ، وفي مراكز هذا العلم القديمة،
ونشطت حركة التأليف والتدريس والشرح في طول الهند وعرضها ، وكان
للسئة وحمَلَتها ، والدعاة إليها جولة وصَوْلة ، وكان لأهل البدع ضعف
واختفاء في ربوع هذه الإِمارة الإِسلامية التي ملك زمام الامور فيها مدة من
الزمن ، وكانت له فيها الكلمة المسموعة ، والاعلام المرفوعة.
هذا وقد لفي الامير من كثير من علماء العرب ومؤرخيهم شبه انصراف
عنه ، وعدم إنصاف ، والسببُ في ذلك يرجع إلى عدم وجود كتاب ألِّف في
حياته وآثاره وتقييمه تقييماً علمياً تاريخياً ، هـازاحة الستار عن مناقبه ومآثره
العلمية والإِصلاحية ، ومكانته في تاريخ العلم والتأليف والإِصلاح والدعوة في
الهند ، ولم اجد أحداً من علماء العرب يعرف علوَّ منزلته ويشيد بفضله،
ويشتغل بمؤلفاته ويثني عليها ، أكثر من العلاّمة (محمد بن مانع) رحمه اللّه،
مدير المعارف الاشبق في المملكة العربية السعودية ، ووزير المعارف في دولة
قطر سابقاً ، فما كنت أحضر له مجلساً في الخمسينات الأولى الميلادية إلا
ويتطرَّق الحديث بمناسبةٍ أو غير مناسبة إلى ذكر العلاّمة الأمير والحاجة إلى
إحياء كتبه ونشرها.
وقد كان من تيسير اللّه تعالى وحكمته أن قَيَّض للكتابة في موضوع حياته
وآثاره الاخ العزيز (محمد اجتباء الندوي) ، الذي اختار هذا الموضوع لرسالة
الدكتوراه التي قدَّمها لجامعة علي كراه الإِسلامية ، وهو حفيد المصلح الكبير
الداعي إلى اللّه الشيخ جعفر علي الحسيني النقوي (م 1288 هـ) ، أحد خلفاء
السيد الإِمام أحمد بن عرفان الشهيد (1246 هـ) وزميل والد العلاّمة الامير

حقه معرفته للغة الفارسية التي فيها عدد كبير من مؤلفات الأمير ، وكان كاتباً
قديراً رشيقاً فيها ، كما كان من الكتاب المعدودين في العربية في الهند الذين
لا يجاوز عددهم رؤوس الأنامل (1) .
وكذلك معرفة اللغة الأردية التي يحذقها كأبنائها ، وفيها عدد من مؤلفات
الأمير أيضاً وأعانته على التاليف القدرة على اللغة الفصيحة والكتابة العربية
السلسة الرشيقة ، والروح النديّة الهادئة المتزنة البعيدة عن الغلوِّ والتطرف ،
والعصبية والتعسف ، وما احسن إذا اجتمعت هذه العوامل القوية - التي قد
تبدو متناقضة - في كتابة كاتب ، وتأليف مؤنف.
وإضافة إلى كل ذلك اعان المؤلف تمكنه من الإِفادة من مكتبة ندوة
العلماء الكبيرة ، ومكتبة العلاّمة الأمير التي أودعها نجلاه الأمير السيد نور
الحسن والسيد علي حسن ، مكتبة ندوة العلماء ، ولاتصاله الالوثيق بندوة
العلماء والقائمين عليها ، وكذلك صلته بالرجال الذين يعتبرون مراجع في هذا
الموضوع ، لذلك كله جاء كتابه حاوياً لوصف البيئة والمجتمع الذي ولد
وعاش ونبغَ فيه الأمير ، والملابسات والأجواء التي اكتنفت حياته ، والعوامل
التي لعبت دورها في تكوينه العفلي والنفسي والعلمي ، ووصف معاصريه
واصدقائه ، والمشاكل التي واجهها ، واتجاهاته وذوقه ، ثم استعرض كتبه
ومؤلفاته ، والدراسة المقارنة لها ومناقشتها، وتحديدُ مكانته العلمية والتأليفية،
ومكانةُ آثاره العلمية والدينية إلى غير ذلك من البحوث النافعة المنيرة .
واشعر وأنا أقرأ هذا الكتاب (2) بغبطة وسرور ، وكنت من ضمن المختبرين

1) ذكر للعلأمة الندوي العلأمةُ محمد بهجة الأثري علامة العراق ، ان في مقدمة
الكتَاب المعدودين الذين لا مغمز في عربيتهم الذين نبغوا في الهند ، العلامة السيد

2)

لثدالمحر ا!س!" : الر 4قور
محمر |قبالى

ولد محمد إقبال في " سيالكوت " مدينة في بنجاب سنة 877 ام ، وهو
سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، اسلم جده
الأعلى
قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف ،
وكان
أبوه رجلأ صالحاً يغلب عليه التصوف .
تعلم محمد إقبال في مدرسة إنجليزية في بلده ، وجاز الامتحان الأخير
بامتياز ، ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير
حسن ، أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر
المعلمين
الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثر في
الشاب
الذكي كل تأثير ، وغرس فيه حب الثقافة والآداب الإِسلامية ، ولم ينس
إقبال
فضله إلى آخر حياته.
ولما قضى وطره في الكلية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضم
إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في
اللغة
العربية والإنجليزية ونال وسامين ، وأخذ شهادة (.ول.!)(1) ، بامتياز ،
وفي
لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير " سيرتوماس أرنولد "
صاحب
كتاب " الدعوة إلى الإسلام " (*،131 مه !!أ"ح،ء3! ء"+) وعميد الكلية

(1) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنجليزي الهندي
تعادل ليسانس في

الأولى البديعة " جبل هماله " وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار،
ونشرها الاشتاذ عبد القادر في مجلته سنة 901 أم ، ونظم عدة قصائد أدبية
توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ،
واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة
(.ول الاأ)(1) في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً وعين على إثره أستاذاً للتاريخ
والفلسفة والسياسعة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية
والفلسفة في كلية الحكومة التي تخرج منها ، واشاد بكفاءته وغزير علمه
الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة
905 أم حيث التحق بجامعة " كامبردج " وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم
الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات

ومن دواعي العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم
يتجاوز إثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته
حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير والسياسي الحاذق
في عدة لغات ، بالمحاماة لكن ما كان هواه المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته

(1) وهى تعادل " الماجستير " فى

المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدة
أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بين فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم
للدين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريرأ لما جزوا به من الخزي والهوان ،
وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما
الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من " قفا نبك " وهما قصيدتان بديعتان
مبتكرتان في الأسلوب والمعاني والغرض ، وقال " النشيد الوطني"
و " أنشودة المسلم " كلاهما سار مسير المثل ، وصار الاول النشيد الوطني
الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية
أنشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين.
ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة 910 ام وما يوم حليمة بسر،
فكان لها في نفسية الشاعر اعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه،
وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والإمبراطورية
الأوروبية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلها دموع حارة في سبيل المسلمين،
وسهام مسمومة في ص!-ور الاوروبيين ، وتتجلى هذه الروح في جميع ما نظم
وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده " البلاد الإسلامية " رد على الوطنية،
و " دعوة إلى الجامعة الإسلامية " و " يا هلال العيد " و " المسلم " و " فاطمة
بنت عبد اللّه " (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و " محاصرة
أدرنة " و " الصديق " و " بلال " و " الحضارة الحديثة " و " الدين"
و " شكوى إلى الرسول " وقد نعى في هذه القصيدة على الزعماء والقادة ،
الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبي ع!يد ، يقول : " أنا
بريء من أولئك الذين يحجون إلى أوربة ويشدون إليها الرحال مرة بعد مرة
ولا يتصل بينهم وبينك أبداً في حياتهم ولا يعرفونك " و " هدية إلى الرسول "

الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهن بالأخبار ، ويقول الحقائق،
وينظم الحكم ، ويشب من حماسته نيراناً ، ويفجر إيمانه وثقته أنهاراً ، وجاش
صدره وفاض خاطره وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غر قصائده منها:
"خضر الطريق " وفيها قطع ، منها " الشاعر والتجول في الصحراء"
و " الحياة " و " الحكومة " و " الرأسمالية " و " الأجير " و " عالم الإسلام "
و " طلوع الإسلام " وكلها آية في الشعر والحكمة وحقائق الحياة ، أما " طلوع
الإسلام " فهي بيت القصيد في شعره لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في
القوة والانسجام ، وقد طبع سنة 924 ام أول مجموع شعره باسم " بانك درا "
يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم
يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير.
ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق
معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتضحت رسالته ، فنشر له عدة كتب
فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة
الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمية ، والانتشار في العالم الإسلامي،
ويتكلم بها قطران مهمان إيران وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير
من أهلها واهل تركستان وروسيا وتركية ، ونشر مجموعتين بالأردية ، فأما
الدواوين الفارسية فهي " أسرار خودي " يعني (أسرار معرفة الذات) و " رموز
بيخودي " (أسرار فناء الذات) و " بيام مشرق " (رسالة الشرق) في جواب
كتاب " جوته " " تحية الغرب " ، و " زبور عجم " و " جاويد نامه " و " بس
جه بايد كرد اي أقوام شرق " (ماذا ينبغي أن تعلمه الشعوب الشرقية)
و " مسافر " و " أرمغان حجاز " (هدية الحجاز) وبالأردية " بال جبريل"
(جناح جبريل) و" ضرب كليم " (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب
محاضرات القاها في مدينة " مدراس " طبعت باسم:
،، ول! ا 3 ، !( ) " !!ا 5 "+ 3 !ا 40 ! 4 ا ص!3 آه !ه أ) ءول 3) فى !ه ء س! " "

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات

كبيرة ، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية والفرنسية والالمانية والطليانية
والروسية ، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور
نكلسن،
فترجم بالإنجليؤية " أسرار خودي " و " رموز بيخودي " والفت ص) في
ألمانيا
وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعر 5 وفلسفته ، وانتخب الدكتور
رئيساَ
لحفلة الرابطة الإسلامية (ص!لا!ءص!سأ ول،311 لاالاا) السنوية التي
عقدت في سنة
1930 م في " إله آباد " وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ،
وانتخب
عضواَ في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثل
مؤتمر المسلمين (س!ح!ص!عس!م+ه! ول،311 لاالاا) في مؤتمر
المائدة المستديرة الثاني سنة
1930 م - 1931 م .
وجاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ، فزار
القطرين
الأخيرين ، وألقى في " مجريط " محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار
مسجد
قرطبة ، وصلى فيه لاول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف
محلى
تربته دموعاَ غزاراً ، وتذكر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية
قرون ، واستنشق في جو 5 وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر ك!أن هذا
الفسجد
العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه
بعد
عهد 5 من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعد من
القطع
الادبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائد 5(1) .
وكان في زيارته لهذ 5 البلاد موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ ، وقابله
السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث
معه
طويلأ ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقية ،

(1) تظهر هذه القصيدة في هذه المجموعة ، انظر ، في

.--(1)

وفي سنة 932 ام لبى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك افغانستان في
بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ،
ورئيس جامعة عليكرة الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ،
وتحدث إليه الملك الففيد طويلاً ، وافضى إليه بذات صدره وبكى طويلاً

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته اخيراً ، وظل
أياماً طويلة رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب
والمقالات ، ويقابل الأصدقاء والزوار والعواد ويحادثهم في شؤون إسلامية
وعلمية ، ومما نشر له في هذه الائام مقالة مستفيضة في الرد على القومية،
تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : " جنة
لأرباب الهمم ، وجنة للعباد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإن في
سبيل اللّه جنة أيضاً " وقال قبل وفاته بعشر دقائق : " ليت شعري ! هل تعود
النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلني موتي

1) ظهرت هذه القصيدة في هذه المجموعة بعنوان " في فلسطين " .
)

لماذا ترجمت شعر

نشأت في عصرٍ وفي بيئةٍ بلغ فيها شعر محمد إقبال قمَة مجده وشهرته،
وفي جيل فتن به أكثر ممَا فتن بشعر شاعرٍ ، وأدب كاتبٍ ، فلا عجب إذا
أعجبت به صغيراً ، وعنيت به كبيراً.
إن أسباب الإعجاب بشعر محمد إقبال كثيرةٌ ، وللمعجبين به أن يتحدَثوا
عن أسباب إعجابهم ، وهي ترجع في الغالب إلى موافقة الهوى والتعبير عن
النفس ، فالإنسان إئما يحمث نفسه ، ويطوف حولها ، ويعيش فيها ، ويحمث
كل ما وافق نفسه ، وترجم عن ضميره ، ولا أبرىء نفسي ، فربما أحببت شعر
محمد إقبال لأنَي رأيته يوافق هواي ، ويعبر عن ضميري وخواطري ، وينسجم
مع عقيدتي وتفكيري ، ويتناغم مع عاطفتي ومشاعري .
قرات شعره في الصبا ، وعنفوان شبابي ، وحاولت أن أنقل بعض قطعه
الأدبية إلى العربية ، ولم أكن قد قرأت له في ذلك العهد إلا مجموع شعره
" بانك درا " وقد صدرت له دواوين فارسية لم اكن قد قرأتها ، وتذوقتها في
ذلك الحين لضعف ثقافتي الفارسية ، وكانت زيارتي الاولى في سنة 1929 م .
وقد صدر في هذه المدة ديوانان جديدان له في أردو بعد فترة

1) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي دا في عددها الثالث والرابع ، المجلد

نتناشد شعر إقبال ، وكان الأستاذ مسعود من شيعة إقبال ، ومن كبار
المتحفسين له ، وكان يغيظنا أنَ طاغور اشهر في الأقطار العربية من إقبال ،
وإعجاب إخواننا العرب والأدباء في مصر ، وسورية بشعره اكثر ، وكئا نعدُ
ذلك تفصيراَ مئا في تعريف شعر إقبال ، وكلما رأينا تنويهاً بشعر طاغور وإطراءً
في مجلةٍ عربتةِ -وما اكثر ما كنا نرى ذلك في المجلات العربية - قوي عزمنا
على ترجمة شعر إقبال ، ورأيناه أمانةً في أعناقنا.
وفي عام 1950 م سافرب إلى الحجاز ، ومصر ، وسورية ، ونشطت في

وفتر العزم لترجمة شعره خصوصاً وقد علمت أن الأستاذ الكبير الدكتور
عبد الوهاب عزام عاكف! على ترجمة شعره بالشعر ، وهو من أجدر الناس بهذا
العمل ، وأقدرهم عليه لجمعه بين الثقافتين الفارسية والعربية ، ولانسجامه
الفكري مع إقبال ، وعفيدته ، ودعوته ، وقد ظهرت له عدة دواوين ، وقد
ذكر لي بعض الأصدقاء : أنَّها لا تؤثر في نفس الفارىء ، لا تثيرها إثارة الشعر
البليغ الرقيق ، ولا تعطي صورةً كاملةً واضحةً لفكرة إقبال ورسالته ، ولا تبرز
شهرته ، وما قيل عنه ، وتصفحت بعض هذه الدواوين فرأيت : أنَّ ذلك
لايرجع إلى ضعفِ في الترجمة ، ونقص في العلم ، أو الفهم ، وهذه

يتشرَب فكرة إقبال ، ثم يصبها في القالب العربي كما فعل ذلك في بعض
مقالاته التي ظهرت في " الرسالة " و " الثقافة " وكانت بارعةً مؤثرةً ، ولكلِّ
لغةٍ جو خاصّ ، ونفستةٌ خاصَّة ، ومنهج تفكيرٍ ، وأسلوب تعبير، وتشبيهات ، ومجازاتٌ تنعلق ببيئتها ، ومجتمعها ، وتاريخها ، ومزاجها،
ومواسمها ، وفصولها ، إذا ترجمت حرفياً ؟ فقدت جمالها ، ومعناها ، ولم
تؤدِّ رسالتها ، وعلى كل فانَ عمل العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام مأثرةٌ
إسلامية أدبيةٌ جليلة ، تستحقُّ كلَّ تقديرٍ ، وإعجاب ، وشكرٍ ، واعترافٍ ،
وهي تدلُّ على علوَّ كعبه في اللغة العربية ، وعلوَّ هفَته ، وجودة قريحته،
وإخلاصه ، ومثابرته ، وحبه للإسلام ، والفكرة الإسلامية ، وقد كان من
سعادة الدكتور محمد إقبال أن يرزق مترجماً ، وترجماناً كالدكتور عبد الوهاب
في علمه ، وفضله ، ونبالته ، ونزاهته ، ولا شكَّ أنَّ روح إقبال مسروري!
شاكر! لعمله ، جزاه اللّه أفضل جزاء ، وكافأه على هذه المبرَّة خير مكافأة .
ولعل الأمد كان يطول على هذه الفترة ، وفتور الهمَّة في الترجمة ، وقد
أشغل عنها لشواغل وعوائق كئيرةٍ ، ولكن حدث ما جذَد في النشاط ، وحرَّك
العزم ، وذلك لأني قرأت في مجلة " المسلمون " التي تصدر

(1) المسلمون العدد الثالث المجلد

وفترت من زمانٍ ، فترجمت قصيدته البديعة في " مسجد قرطبة " في جلسةٍ
واحدةٍ ، وشعرت باستعدادٍ في نفسي ورغبةٍ لذيذةٍ في الترجمة لا أستطيع لها
دفعاً ، وجاءت المقالاب تترى ، ونشرب في بعض المجلات العربية
الإسلاميَّة ، واقتصرت في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها
المرحوم العلامة عبد الوهاب عزام بالتعريب ، وكان لديوانه " بال! جبريل"
أكبر نصيب من هذ 5 التراجم.
أما بعد : فإني لا أعتقد في إقبال! كصمةً ، ولا قداسةً ، ولا إمامةً،
ولا منصب " اجتهاد " في الدِّين ، ولا أبالغ في إجلاله ، والاستشهاد بأقواله.
حيث بالغ كثير من الكتاب المعاصرين والمؤلفين المتطرفين . إنَني أعتقد أنهم
- كما انَّ الحكيم السنائي ، وفريد الدين العطار ، والعارف الرومي - كانوا أرفع
منه مكانةً بكثيرٍ من التأدب بآداب الشرع ، والجمع بين الظاهر والباطن،
والدَّعوة والعملً ، وقد كانت له في محاضراته التي ألقاها في مدراس أفكار
فلسفية ، وتفسيرات للعقيدة الإسلامية قد لا نوافقه عليها ، ولا أعتقد - كما
يعتقد كثير من الشباب المحمّسين - أنَّه لم يفقه الإسلام عالم مثله ، ولم يحط
بعلومه وحقائقه غير 5 ، إنني لم أزل! -والحقّ أحقُّ أن يقال!- في كلِّ دورٍ من
أدوار حياتي وثقافتي معتقداً أئه لا يزيد على أن يكون تليمذاً من تلاميذ الثقافة
الإسلامية النجباء الأذكياء ، درسها دراسةً مخلصةً ، وكان لا يزال! في حاجةٍ
إلى التعضُق والرسوخ فيها ، والاستفادة من معاصريه الكبار(1) وكانت

(1) ولم يزل يستفيد فعلاَ من العلامة الكبير أنور شاه الكشميري ، والأستاذ الكبير
مولانا السيد سليمان الندوي ، ورسائله إليه والى صديقنا الجليل

وعقيدة حازمةٍ عن خلود الرسالة المحمَّدية وعمومها ، وعن خلود هذه الأمة
وصلاحيتها للبقاء والازدهار ، وعن كرامة المسلم ، وأنه خلق ليقود ويسود ،
وعن تهافت المبادىء والفلسفات والدَّعوات التي ظهرت في هذا العصر،
كالفومية ، والوطنية ، والشيوعية ، ووجدت فيه من وضوح الفكرة ، وشدَة
الاقتناع بها ، والتحمس لها ، والشعجاعة في نشرها ، وفي نقد هذه الفلسفات
ما لم أجده مع الأسف في كثيرٍ من رجال الدين ؟ لعدم اكتناههم بحقيقتها،
واطلاعهم على نواياها ، وأهدافها ، وأسسها ، وتاريخها.
وأخيراً ولا اَخراً وجدته شاعر الالموح ، والحبِّ ، والإيمان ، وأشهد
على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري ، وثارت عواطفي ، وشعرت
بدبيب من المعاني والأصسيسٍ في نفسي وبحركة للحماسة الإسلامية في

مر ووائم محم! |

د عا ء طا رق (

" إنَ العالم في حاجةٍ إلى دمٍ عربي زكي ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي
عليله إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أ ن
تسقى بهذا الدم القاني ، وتترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق
دماءنا في هذه الارض النائية لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحل
الربيع بعد انتظارٍ شاقّ طال أمد 5 " .
نزل طارق بن زياد - القائد الشابُّ - بجيشه العربيئ المسلم على أرض
إسبانيا ، مدخل أوربة ، وامر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي
لتتقطع بالمسلمين أسباب الرجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : " أيها
الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا
الصدق والصبر "(2) ، فيثير ذلك فيهم القوَّة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم

(1) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها السابع ، المجلد الثالث،
(2) عام 1951 م .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر ، فلم ير حيلةً إلا أ ن
يضمَّ إلى هذا الجيش قوةً لا تهزم ، لبارادةً لا تغلب ، إنَّها القوة الإلهية ، لبائها
الإرادة الربانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله؟
أما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله
وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ،
وقد قال اللّه : " وَاِنَ جُندَنَااَلُمُ اَئفلِبُونَ " أ الصانات : 173 1 .
هنالك وقف القائد المؤمن يناجي رئه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك
مقلّداً للرسول الأعظم لمج!رِو -قائد الكتيبة المؤمنة الأولى - إذ عبأ جيشه يوم
بدر ، وصفه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي،
ويقول : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد " ، فتأسَّى طارق برسوله
وسيِّده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ، ولا يخطر
منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك،
وابتغاء مرضاتك ، رجا 4 غامضون مجهولون ، لا يعرف سرهم وحقيقتهم
غيرك ، لقد منحتهم طموحاً ، وعلوَّ همَّةٍ ، لا يرضون معه إلا ان يكونوا سادة
العالم ، يحكمون الدنيا كلَّها بحكمك ، وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم
غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ،
لقد ذاقوا لذَة الإيمانِ والحبِّ ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت
عليهم الدُنيا ، وزخارفها ، وشهواتها ، وذلك شان الحبِّ إذا خالطت بشاشته
القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ،

ها إنَّ الازهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل
في حلَّته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الارض النائية،
لتخصب الإنسانية بعد جدبٍ طويل ، ويحلَّ الربيع بعد انتظارٍ شاقّ طال أمده .
لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر - العرب - بنعمٍ فريدةٍ لم
يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدِ ، وشعارٍ جديدِ،
هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان الفوي ،
والذوق الرفيع ، والدَّعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلةٍ من
الناس ، أما العرب ؟ فقد فاجؤوا العالم بصحَّة علمهم ، وجدَّة إيمانهم،
وسلامة ذوقهم ، ودوي أذانهم في السكون المخيِّم على العالم ، والظلام
الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلةٍ ، وقد
وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنَّهم لا ينظرون إلى
الموت كنهايةٍ لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنَّهم يرون فيه فتحاً
جديداً ، وعيشاً جديداً ، اعد يارب ! إلى هذه الامة المؤمنة الحمية
الإيمانية ، والغضبة المؤمنة ؟ التي تجلَّت في دعاء نوح ، فقال : " رَّبِّ لَاورز
عَلَى اَلأَزضِ مِنَ ابمفِربنَ دَيَّارا " أ نوح : 26) ، حتى تصبح صاعقةً على عالم اَلكفر
والفساد ، واخلق فيها المطامح البعيدة والعزائم الفوية الشديدة ،

(1) من " بال جبريل !

في جامع قرطبة (1)

وقف محمد إقبال - في عام 1932 م ، الذي زار فيه إسبانيا- ذلك الفردوس المفقود - في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعرٍ ، وقفة خاشعٍ أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبدالرحمن الداخل ، واخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوئة ، والحبِّ الطاهر ، الذي حمله على بناء هذا المسجد العَظيم الذي أُسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفنِّ

وتذكَّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه ، وشادوه ، وتذكَر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكَر -والشيء بالشيء يذكر - بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوَي في الجؤ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الافَة، فليس له نظير في الأصوات ، والهتافات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الاذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ،

1) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها الثامن ، المجلد الرابع،

وتذكَر بهذا الأذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا
الأذان في الآَفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناَ
بأنَ الأمة التي تدين بهذه العقمدة ، وتعيش بهذه الرسالة - التي كتب لها الخلود
- لا تموت ولا تفنى.
حرك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخيُّ ، وهذا المسجد الغريب
الفريد الذي لم يعرف منبر 5 الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائر5
الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرَك كلٌّ ذلك في إقبال الإيمان ، والحنان ،
والأحزان ، والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة ؟ التي
أسماها " في جامع قرطبة " وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة.
ذكر محمد إقبال : أنَ هذا العالم خاضع للفناء ، وانَ الآَثار التي تخفَفها
الأجيال ، وأنَ البدائع الفنية التي تنتجها العبقرية الإنسانية بين حينٍ وآخر
كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآَثار والمنتجات إلا
ذلك الأثر الذي أكمله عبد مخلم! دئه ، وأضفى عليه حيويته وخلود 5 ؟ لأن
عمله يستمدُّ الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبّه القوميَ الخالص (1)

(1) الحب أو " العشق " كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ،

منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمذَت منه الحياة

ثم يلتفت الشاعر العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويفول له : " تدين أيها
المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحبّ البريء ، ولهذه العاطفة القوئة،
التي كتب لها الخلود ، فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنَّ البدائع الفنية إذا
لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب -الحب - أصبحت مصنوعاتٍ
سطحية من لون ، أو قرميدٍ ، أو حجبر ، أو لفظؤ ، أو كتابةٍ ، او صوت .

ويفول في عفيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعبر محمت : ((إن بيني وبينك أيها
المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة
الأحزان ، إنَ الإنسان في تكوينه ، وخلقه قبضة من طينٍ لا تخرج من هذا
العالم ، ولكن له صدو لا يقلّ عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد اشرق بنور
ربِّه ، وحمل أمانة اللّه . إنَّ الملائكة تمتاز بالسجود الدَّائم ، ولكن من أين لهم
تلك اللوعة ، واللَّذة التي امتاز بها سجود الإنسان ؟ ! " .
وهنا يتذكَّر محفَد إقبال جنسيته ، ووطنيته ، ويتذكَّر أنَّه هندقيُ النجار(1) ،
وأنه من إحدى بيوتات " البراهمة "(2) ، ويتذكَر أنَه أمام أثرٍ إسلاميّ عريقٍ

(1) النَجار : الأصل والحسب.
(2) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى " سبرو " أسلم جده

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمة
الإسلامئة العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى ائه صورب!صادقةٌ
للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكم البنيان ،
كثير الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على اعمدةٍ كثيرةٍ ،
تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقةً بنور
رئها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلًا للملائكة ، ومهبطاً للرحمة
الإلهية ، وهنا يقول في إيمانٍ وثقةٍ : " إن المسلم حيٌّ خالدٌ ، لا يزول ،
ولا ينقرض ؟ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم
وموسى ، وجاء بها النبيون وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض
الأمَة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفلت بتبليغ هذ 5 الرسالة ؟ ! " .
ويعطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمَّة التي يمثلها هذا المسجد،
الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : " إنَ
المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد

ويقبل على المسجد يتحدَّث إليه ، ويناجيه ، ويقول : " لقد كشفت أيها
المسجد العظيم ! عن سرِّ المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصوَّرت ذلك

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموَّه ، وأخلاقه ، وسيرته في
العالم ، فيقول : " إنَّ يد المؤمن هي جارحة القدرة الإلهية ، فهي غلاَّبة،
فتَّاحة ، قاهرةٌ ، ناصرةٌ ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبدٌ تخلَّق
بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلة ، وأهدافه ومطامحه
رفيعة جليلة ، ألقي عليه الحبُّ وكسي المهابة والجمال ، رقيق ، رفيقٌ في

ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد ، فيخاطبه في إجلالٍ وإكبارٍ ، ويقول :
" يا مثابة هواة الفن ! ويا مقصد روَّاد الجمال ! ويا مجد الدِّين الإسلامي ! لقد
سمت بك أرض الأندلس ، وتفدَلسْتَ في أعين المسلمين ، إتك فريد في الفنّ
والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولعك
الرِّجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق
واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على انَّ حكومة أهل الفلوب خدمة وزهادة ،
وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذين كانوا

ثم يخاطب إسبانيا - الأندلس الإسلاميَّ المغصوب - فيتغنى بأرضها التي
تطاولت السماء سمواً ورفعةً ، ويتوخع على أن أجواءها لم تسمع الأذان من
قرون ، ثم يذكر ما مرَ على العالم المتمدن من تقلباتٍ وثوراتٍ

أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرَر الفكر الأوربي،
وتحرَّكت سفينته في يسرٍ وسهولةٍ ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي
اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني -الرومي - شاباً فتياً
بلذة التجديد(1) ، هكذا الروح الإسلامية مضطربة قلقة ، تطلب انتفاضةً
جديدةً ، ولكن متى ذلك ؟ إنَّه سرٌّ من أسرار اللّه ، لا يفصح به اللسان ،
والعالم يتمخَّض بحوادث جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهَّن بالمستقبل " .
ويخاطب نهر قرطبة " الوادي الكبير " ويقول : " إنَّ على شاطئك أيها النهر
العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصرًاً لا يزال في
طيات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنَّها
لا تزال محجوبة عن أعين الناس ، لو كشفتُ الغطاء عن وجه هذا العالم
الجديد ، وبحتُ ما في صدري من افكارٍ وأسرار ؟ لشقَّ ذلك على أوروبة،
وفقدت رشدها ، وجنَّ جنونها " .
ثم يعود مرَّة ثانيةً ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ،
والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : " كلُّ حياةٍ لا تجديد
فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمَّةً
تحاسب عملها في كلِّ زمان سيف! بتار في يد القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا
. . (2)
يق! !ي وجهه شيء " .

ويختم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمةٍ حكيمةٍ مأثورة ، مبنيةٍ على
تجارب واسعؤ ، ودراسات عميقةٍ ، واستعراضٍ وإسعٍ للأدب

" إن كلَّ مأثرةٍ ، وكلَّ إنتاجٍ لم تذب فيه حشاشة النفس ناقص ، وجدير

(1) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب
(2) الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس ، والقومية

النفس قبل أْن يصدر ضرفي من العبث ، والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع ، وعالم الأفكار " .
وهذا هو سرُ الخلود ، والبقاء للآَداب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُ التأثير والخلود في شعر إقبال دمانتاجه.
فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا ؟ .
في ارض فلسطين (1):
ا اقترح الأستاذ علي الطنطاوي على العلامة الندوي ان ينقل بعض روائع إقبال
الشاعر الإسلامي المشهور إلى اللغة العربية ، فلبى العلامة هذه الدعوة ، وقد ارسل
القسط الأول من هذه الترجمة ، وهو تحت عنوان : " في مسجد قرطبة " إلى مجلة
" المسلمون ، الغراء ، وفيما يلي القسط الثاني من هذه الترجمة تنفرد به مجلة " البعث
الإسلامي " وهو هدية إلى الأستاذ علي الطنطاوي خاصةَ وادباء العرب وشعرائهم
عامة ، .

تحرَكت السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في
القدس عام 1350 هـ(1931 م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت
الشَّمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأتها جداول نورٍ نبعت من عيون
الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرورٍ وإلها آ للشعراء ، يجدون فيه الحياة
للقلب ، والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزَّمان ، فأثار ذلك
الشاعرية فى الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير محمد إقبال ،

(1) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي ، في عددها السادس والسابع ، المجلد

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم ، وإثارة قريحته ، فقد غطَت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسانٍ جميلى زاهي اللون ، وهمث النسيم عليلاً بليلاً ، وهفت أوراق النخيل
مصقولةً مغسولةً بأمطار الليل ، واصبحت الرمال في نعومتها ، وصفائها حريراً.

وراى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً ، وأثافيئَ(1) منثورةً هنا
وهناك ، وبقايا من خيامٍ وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب،
تخبر بالقوافل التي اقامت ثم ظعنت.
وطاب المكان ، والزمان للشاعر ، وسمع كأنَّ منادياً من السماء يحثُّه على
أن يلقي عصا التسيار ، ويؤثر 5 باقامته (2) .
حرَّك هذا المنظر البديع - في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه اللّه بجمال
الطبيعة ، والرسالات السماوية - عواطف الشاعر ، وهاجت قريحته ، وتحرَك
الحبُّ الدَفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن،
فيتذكر الإنسان أحبَّ شيءً إليه ، فيحنُّ إليه ، ويتمثَّله ، ويتغنَّى به ، وقد حلَّ
" الإسلام " ، وحلَّت الأمَة الإسلامية في قلبه محل الحبيب الأثير ، وسيطر
حبُّه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه ، وتغنى
بجماله ومحاسنه ، وركَّز آماله ، وأحلامه عليه ، وقال بلسان

(1) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .
الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى

وبنيت هياكل جديد! يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس، والنفس ، والشهوات .
وقد تسرَّبت هذه الوثنية إلى العالم الإسلاميّ والعربيئَ ، أفليس العالم في حاصة إلى ثورةٍ إبراهيميَّةٍ جديدةٍ ، إلى كاسر اصنامٍ يدخل في هذا الهيكل، فيجعل هذ 5 الأصنام جُذاذأ ؟ .
وسرَّح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربيَّ قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته، ورأى العالم العجميَّ قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنَ النظام الماديَّ ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق، ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميَّته ، وفروسيَّته.
ورجا العالم الإسلاميئُ أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربيئ ، ويفاجىء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلَّع العالم إلى الحجاز - معفل الإسلام وعرين الأسود - فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدَّد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدَّة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدَة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد.
وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحوُّل العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحمث ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ،

ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغية المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون " .
ثم يستعرض العاله! الإسلافيَ - وقد عرت شرقه وغربه وعربيه وعجميه- فيحزنه قصر النظر ، وقلة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسفوط الهفَة وققَة
البضاعة (1) في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدّينية -بمعناها الواسع - محرومة من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العفلي، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلاميَّ ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : " إنِّي هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراَ وحرارةً ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي
مضت وأولئك الأبطال الذين رحلوا ، وغابوا في غياهب الماضي ، إنَ شعري
يوقظ العقول ، ويهزُ النفوس ، ويربي الآَمال في الصَدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسةً وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد
سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ، ألا يخفف
اللّه من هذا الجوى ، بل اسأل النّه المزيد والجديد " .
ثم يقبل في شعر 5 إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنَّه ذرَب! حقيرةٌ ، أو قطرب! صغير!ه في جنب هذه
السَّعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرَةٍ فكانت شمساً بازغة، وكيف تجفَى بالجلال ، فكان في الأرض ملوكٌ كباو ساقوا الأمم ، وحكموا العالم ، وكيف تجفَى بالجمال ، فكان زهاد وعئادٌ ، زهدوا في متاع الدنيا، ورفقوا بخلق الله ، ويقول : " إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب،
وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانيةَ ، فاذا تجرَّدت صلاتي من هذا الحنين ؟ لم أر أنها تقرّبني إليك ، لقد وجد عندك العفل والعاطفة ما يعوزهما ، وما يحتاجان إليه ، فأصبج العقل - بعد توفيفك - يغيب أحياناً، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق
بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب " . ويناجي ربه ، ويفول :
(1) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما هم بصدده .

" إنَّ الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد ان أن تشرق الارض
بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد " .
ويعترف أمام اللّه بأنَّه لم يكن سعيداَ في دراساته العلمية الطويلة الواسعة،
وأنَّه قد اتضج له أخيراَ انَّ المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس
علم النخيل تمتَّع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة
والإيمان ، ذلك الصِّراع الذي لم يزل ، ولا يزال قائماَ حامياَ ، ويذكر معركةَ
قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادَّة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها
أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ع!ي! وأصحابه ، ولكلٍّ
حلفاء ، ولكل معسكر "(1) .
فلينظر العالم العربي إلى أيِّ معسكر ينضمُّ ؟ إلى معسكر المادَّة والمعدة ،
أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، هـالى أيِّ رايةِ ينضوي ؟ إلى الراية
الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمَّدية التي
التف حولها أبو بكر وعمر.
في غزنين(2):
سافر محمد إقبال على دعوة من ملك الالمحغان الشهيد نادر شاه عام 933 إم
إلى أفغانستان ، ومرَّ في طريقه على غزنين عاصمة إسكندر الإسلام السلطان
محمود الغزنوي ، وزار قبر الشاعر الحكيم السنائي الغزنوي (3) الذي يعتبره

(1) من " بال جبريل " ديوان شعر إقبال ، قصيدة " ذوق وشوق " .
(2) نشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها الرابع ، المجلد الرابع،
عام 959 ام .
(3) هو من كبار شعراء العهد الغزنوي ، نشأ كشاعر غزل ومديح ، ولقب بملك الشعراء
في البلاط ، ثم جذبه التوفيق الإلهي ، فعزف عن الدنيا ومدائح

أشواقه ، وآماله ، وآلامه ، ونظر فيه إلى العالم المعاصر بعين حكيمٍ شاعر،
ومؤمنٍ ثائر ، وسخله تذكاراً لهذه الزيارة الممتعة التاريخية ، يشكو الشاعر
العظيم ، في مستهلِّ هذه القصيدة ، ضيق هذا الكون ، ويذكر أته مع سعته
التي يوصف بها لايسع لوعته وطموحه ، ويلوم من يرى أنَ هذه الدنيا
- برحابها الواسعة ، وصحاريها المترامية ، ومتعتها الفاتنة - لا تسع فرداً واحداً
رزقه اللّه علوَ الهمَة ، وكبر النفس ، وحرارة الحبِّ ، ويتّمه

ويذكر هنا محمد إقبال ائه لا صراع بين العلم ، والمعرفة ، والحمث،
وإئما هو من تصوير المنتسبين إلى العلم ، ومن ضعف تفكيرهم ، فقد رأوا
فيمن ملكه الحبُّ ، المنافس للعلم والدَين ، وقسوا ، أو أسرعوا في الحكم
عليه ، ويقول : " إن الاستغناء عن المادَة وأصحابها ، والحكومة ورجالها،
هو الحصن الحصين الذي يعتصم به أصحاب النفوس الكبيرة الزكية،
فلا سبيل إليهم ، ولا سلطان عليهم للملوك والأغنياء " ، ثم يقول في دلالٍ
واعتدادٍ : " لا تحاول أيها الملك الرفيع أن تقلِّدني في لوعتي وسكري ، فتلك
نعمةٌ خصَّ اللّه بها بني آدم وحسبك الذكر ، والتسبيح ، والطواف ، الذي جبل
اللّه عليه الملائكة الكرام " .
وهنا يقبل الشاعر إلى العالم الذي يعيش فيه ، فينتقد الشرق والغرب ،

ويتذكر العالم العربي فتحزنه الأوضاع الفاسدة هناك (1) ، يحزنه عبث
الملوك العرب وأمرائهم ، وزعمائهم ببلادهم العزيزة ، والمقدسات
الإسلاميَّة ، ووقوعهم في شباك الأجانب مرَةً بعد مرَةٍ ، وانهماكهم في لذاتهم
وشهواتهم ، فتصدر منه كلمة قاسية لاذعة ، لم يصدرها إلا الإيمان العميق،
والحمية الإسلامية فيفول : " إن هؤلاء الشيوخ والأمراء لا يستغرب منهم أ ن
يبيعوا جبَّة أبي ذر ، وكساء أويس القرني ، ورداء فاطمة الزهراء(2) ، وأعزَّ
المقدسات في كاسٍ يحتسونها ، ولذةٍ ينتهبونها" ، ويقول : " إن نفوذ
الأجانب في جزيرة العرب والأقطار العربية ، وسيطرتهم السياسية على كثيرٍ من
أجزائها ، حقيقة مؤلمة ، يفزع لها كل مسلم ، ويعتبرها كزلزلة ال!اعة،
ورجفة القيامة " . وتمثل بشطر بيت للحكيم السنائي - الذي وقف إقبال على
قبره ، ونظم هذه الفصيدة - قاله عندما ملك التتار العالم الإسلامي من اقصاه
إلى أقصاه ، وهدَدوا الحرمين الشريفين : " لقد ملك التتار مركز الإسلام ،
والعرب - الذين كانت لهم الوصاية على العالم الإسلامي ، وهم مسؤولون
عنه - في نوم عميق لذيذ "

(1) لا ينسى القارىء أن هذ 5 القصيدة قيلت في عام 933 ام .

الحكومات الجائرة المستبدة ، فأحسنت ، ولكن خذلها التوفيق في قطع الشوط
الثاني الاخير ، شوط الإثبات ، والتقرير ، والإيمان الجازم ، والإنسان
لا يعيش على النفي فقط ، ولا يتكوَّن المجتمع ، ولا تقوم الحضارة على النفي
وحده ، فلذلك بقيت أوربة -التي أخضعت العالم لعلمها ، وتنظيمها،
وسخرت الطبيعة لمقاصدها ومصالحها - حائرةً ، مضطربةً ، تائهةً ، لا تملك
العاطفة ، ولا تملك الغايات الصَالحة ، وأصبحت مهددةً في الزمن الأخير
بالانهيار ، أو الانتحار " ، وهكذا لخص محمد إقبال تاريخ أوربة المدني
والفكري الطويل في عبارةٍ وجيزةٍ ، ومقطوعة شعريَّةٍ ، هي عصارة دراسةٍ
طويلةٍ ، وتفكيرٍ عميقٍ .
والشاعر غير متشائمٍ في نظرته وحكمه ، وهو غير يائسٍ من مستقبل
الشرق ، فيقول : " إنَّ الشرق زاخر بالقوَّة والإنتاج ، وتبدو من هذا المحيط
الهادي ، موجة قوية تهزُّ العالم ، وتزلزل أوكار الفساد والاستبداد " ، ويرجع
الشاعر فينعى على الاستعمار الذي يرزح تحته الشرق الإسلاميُّ ، والذي أثر
في تفكيره ومشاعره ، ففقد الشعور بالجمال ، وأصبح لايوثق بآرائه

1) يكني به إقبال عن تأثير الحضارة الأوربية في أخلاق الشرقيين وما يتصوفون به بعد

وبالعكس قد ملكت الأكسير الذي يحول الزجاج إلى حجارةٍ صفَاء ، لا تؤثر فيها السيول الجارفة ، والمعاول الهدَامة ، لقد استطعت أن أقاوم الفراعنة؟
الذي مازالوا مني بالمرصاد ، بفضل اليد البيضاء(1)، التي أخفيها في أكمامي ، ولا عجب ، فانَّ الشرارة التي خلقت لتحرق غابةً بأسرها ، لا يتغلب
عليها الحشيش والهشيم " .
" إنَّ الحب يبعث في الرجل الاعتداد بالنفس ، والاحتفاظ بالكرامة، ويمنع من الوقوف على أبواب الملوك ، والخضوع للمادة والسُّلطان " .
وهنا تأخذه الهزَة ، ويملكه حمث النبي مج!يو ، والإعجاب بشخصيته المعجزة ، ورسالته الخالدة - وهو الموضوع الذي لا يملك إقبال أمامه نفسه-
فيفول : " لا عجب إذا انقادت لي النجوم ، وخضعت لي الأفلاك ، والكواكب ، فقد ربطت نفسي بركاب سيّد عظيم لا يأفل نجمه ، ولا يعثر جدُه ، ذلك هو البصير بالسبل ، خاتم الرسل وإمام الكل ، محمد !ك! ، الذي
وطأت قدمه الحصباء ، فأصبحت إثمداً يكتحل به الشعداء " .
وهنا يفف الشاعر ويقول : " يمنعني الحياء من الشاعر الحكيم - السنائي الغزنوي - والأدب معه ، أن أسترسل في الكلام ، واطيل الموضوع ، وإلا أمامي مجا 4 واسعٌ من المعاني ، والبحر زاخرٌ بالدرر واللآلىء " .
ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني (2):
خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه وص نجيه الرُوحي والفكري - الشيخ جلال الدين الرُّومي - في سياحؤ روحية فكرية ، ومرَ في جولته - الخيالية- بمنازل كثيرة ، التقى فيها بشخصياب ماضيؤ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر والرَجالات ، وتحدَّث معهم في مسائل كثيرة (3) .

(1) كناية عن الإيمان والاستغناء عن المادة .
(2) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها الخامس ، المجلد الرابع ، عام 959 ام .
(ط!)

ومرَّ في رحلته بمنزل بِكْر ، لم يطأه آدميٌّ بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة
بجمالها ، وتمثلت فيه الدُنيا بسهولها ، وجبالها ، وميادينها ، وأزهارها،
وعاش منذ آلاف السنين في عزلةِ من المدنية ، والصناعة

وأقبل إلى شيخه الرُّومي ، فقال وقد قرع أذنه صوتٌ عذبٌ رقيق : ما لي
أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهمٌ ، ام حالم؟
قال الرومي : إنه منزل الصلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسبٌ قريبٌ ، ففد
قضى فيه أبونا ادم يوما أو يومين ، لما هبط من الجنَّة ، قد شهد هذا المكان
زفراته ، وأناته في السَحر ، وبلت دموعه التراب ، يزوره أصحاب المقامات
الرفيعة ، كفضيل ، وأبي سعيد ، والعارفون الكبار ، كجنيد ، وابي يزيد،
فلنقم ولنسرع لندرك الصَّلاة في هذه البقعة المباركة ، ونىال لذة الروح ،
ونعمة الخشوع التي حرمناها في العالم المادِّيّ.
ونهضا من مكانهما مسرعين ، فوجدا رجلَيْن يصليان ، احدهما أفغانيٌّ ،
والاَخر من الأتراك ، ونظر فيهما فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغاني،
يصلِّي خلفه الأمير سعيد حليم باشا ، فقال الرومي : إنَّ الشرق لم ينجب في
العصر الأخير أفضل منهما ، وقد حلا كثيراَ من عقدي وألغازي ، أما الإمام
السيد جمال الدِّين ؟ ففد نفخ في الشرق الناعس روح النشاط ، ودئت بدعوته

وتعلو بها صيحة التكبير والتهليل في القبور ، وكانت قراءةً ترفع الحجاب ، وتتضح بها معاني أئمَ الكتاب .
وندع محمد إقبال يحكي قصته ، قال : " وقمت بعد الصَلاة ، وقئلت يده في أدبٍ ومحبَّةٍ ، وقد قدَّمني أستاذنا الرومي إلى السيد ، وقال : إئه جوَّا
4
جوَّال! في الآفاق ، لا يستقرُّ في مكان ، ويحمل في قلبه عالماً من الاَمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ، ولم يخضع لأحدٍ ، فيعيش حراً طليقاً " .
وأقبل عليَّ السيد جمال الدين ، فقال : حدثني يا عزيزي ! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ، وينظرون بثور
الله.

قلت : يا سيدي ! لفد رايت في ضمير الأمَة التي خلقت لتسخير العالم
معركة حاميةً ، وصراعأ دامياً بين الدِّين والوطن ، لفد ضعف الإيمان في قلب
هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الأمل من سيطرة الدين وسيادته،
فلجأت إلى الوطنية والقومية ، أصبج الأتراك والإيرانيون سكارى بصهباء أوربة
ونشوتها ، واصبحوا فريسة كيدها ودهائها ، أصبج الشرق خراباً بحكم الغرب
وسيادته ، وذهبت الشيوعية ببهجة الدِّين وبهاء الملة.
سمع الأفغاني كل ذلك في صبرٍ ، وأناةٍ ، وفي تألُّمٍ وحزفي ، ثم انفجر
قائلاً : إنَ الباقعة(1) الأوربي هو الذي علَّم أهل الدين الوطنية والقومية ، أما
هو فلا يزال يبحث عن مركزٍ لجميع الشعوب والأوطان ، ولكنه يذر في الشرق

(1) يقال : رجلٌ باقعة اي : ذكيئٌ حذرٌ ، ذو حيلة ، لا يفوته

على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكن النفس الإنسانية أسمى من أن يكون
مصيرها هذا التراب . إنَ آدم ولو خلق من ماءٍ وطين ، فقد يأبى أن يدور حول
هذا الماء والطين . إنَ جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في
الأجواء الفسيحة . إنَ الروح لا تنحصر في الجهات ، وإنَ " الحرَ " لا يعرف
القيود والحدود ، فإذا جعمنَ في " التراب "(1) اضطرب وثار ، لأنَّ الصفور
لا تستريح ، ولا تهدأ في الأوكار .
إنَ هذه الحفنة من التراب ، التي نسميها " الوطن " ونطلق عليها أسماء
" مصر " و " إيران " و " اليمن " ، بينها وبين أهلها نسب ، لا! هذه الشعوب
قد نهضت من أرضها ، ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على
نفسها ، وتنحصر في حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسنائها ونورها
من الشرق ، ولكنها لا تليث ان تحرَّر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على
العالم وتحتضنه ، إنَ فطرتها بريئه من الشرق والغرب ، صمان كان مولدها
وظهورها في الشرق .
أما الشيوعية ياعزيزي ! فإنَ مصدرها ذلك الإسرائيلي ، الذي خلط الحق
بالباطل ، وآمن قلبه ، وكفر عقله ، إن الغربيين فقدوا القيم الروحية

(1) يعني به " الوطن

والأفراد ، وتمتصُّ منها دماءها ، وتتركها أجساداً هامدة .
إنَ " الملوكية " و " الشيوعية " تلتقيان على الشَر 5 والنَّهامة ، والقلق والسأمة ، والجهل باللّه والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية (1)
"حروج " ، وعند الملوكية داخراج " ، والإنسان البائس بين هدين الحجرين قارورةُ الزجاج ، إن الشيوعية تقضي على العلم ، والدين ، والفن،
والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء ، وتسلب القوت من أيدي العاملين
والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادَّة ، وجسمهما قوفي ناضر، وقلبهما مظلم فاجر.
ألا ! من يبلغ " روسيا " ان القرآن وتعاليمه في وادٍ والمسلمين في وادٍ ، لقد انطفأت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت صلتهم عن النَبيّ
محمد -لمجيم . إن المسلم اليوم لا يؤسس حياته ، ولا ينظم مجتمعه على مبادىء
القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدين والدنيا ، لقد ثل عرش قيصر وكسرى ،
ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وتربع عليه ، واقتبس من
العجم الملوكية واساليبها ، وبذلك تغير نظر 5 إلى الحياة ، وتغير منهج تفكير 5 .
لقد حطمت " القيصرية والكسروية " مثل المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري ايتها الأمة الروسية ! من تاريخنا ، عليك بالثبات والاستقامة في معركة الحياة ، ف!ذا كنت قد كسرت هذ 5 الأصنام " الملوكية
والوطنية " فلا تعودي إليها ، ولا تطوفي حولها مرَّة ئانيةً ، إنَ العالم اليوم يطلب أمةً تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرحمة والشدَّة، فاقتبسي عن الشرق ديانته ، وروحاتيته ، لقد أصبحت ديانات الإفرنج ودساتيرهم عتيقةً باليةً ، فلا تعودي إليها مرَةً ثانيةً ، لقد أْحسنت إذ الغيت الألهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي " لا إله " فعليك ان تبدئي مرحلة الإثبات " إلا النّه " ، وهكذا تكملين مهمتك ، وتتمِّين رحلتك العظيمة،

(1) يعني : تجرد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ،

إنك تبحثين عن نظامٍ للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساسٍ
محكم ، وليس

لقد محوت يا روسيا ! أساطير الأولين أسطورةً أسطورة ،
فعليك أ ن
تدرسي الآَن القرآن سورةً سورة ، وما أدراك ما القرآن ؟ إنَّه
نعي للملوكية
والشُخرة ، وحتف! للاكتناز والأثرة ، وحيا! للصُّعلوك ، وبشرى
للملوك ، إنَه يذم الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينففونها
في سبيل
اللّه ، ويح! على إنفاق كل ما فضل جمن حاجة الإنسان ،
ويقول في
صراحة : " لَن تَنَالُواْ اَلِبزَحَىً تنُفِقُو) مِمًا تِحُبّونَ " ا آل عمران :
92 ، ، إنه يحرم
الزَبا ، ويحل البيع ، ويح! على القرض الحسن ، وهل يتولد من
الربا إلا
الشرور والفتن ، والقساوة والضراوة ؟ إنَّ اكتساب الرزق من

إنَه لما قامت دولة القرآن ، اختفى الرهبان والكهان ، أقول لك
ما اؤمن
به وأدين ؟ إنَّه ليس بكتابٍ فحسب ، إئه أكثر من ذلك ، إذا
دخل في
الفلب ؟ تغيَّر الإنسان ، وإذا تغئر الإنسان ؟ تغيَّر العالم . إنَّه

لقد ابتكرتِ تشريعاً جديداً ، ودستوراً جديداً ، فجدير بك أن
تنظري إلى

(1) " فَاضَقفُكئُم وَلَابَغثُكتُم إِلَأ!نَفسٍ وَّصِدَهٍ " ا سورة لقمان
الآَية : 28) .

حديث ومناجاة

جاشت نفس إقبال الكبيرة الدافقة بالحنان ، والإيمان في الثالث من
أبريل سنة 936 ام وهو عليل رهين الفراش في بهوبال (الهند) وقد آلمه
ماكان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي والفراغ الفكري والرُوحي
الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل
الجديد إلى الفكرة الغربية ، ومثلها ، وقيمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ،
ففاضت قريحته بشعير من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدَث فيه إلى النبيِّ ع!ي!
وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلاميِّ ، وففره الروحيئَ ، وانحرافه
عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتويى بعد النشاط ، ومن ضعفب في
العمل (2! يقول :
اشكو إليك - يارسول اللّه ع!يم - هذه الامة التي تسقَط عليها خوف
الموت ، إنَك حطمت الأصنام القديمة ، كاللات ومناة ، وجددت العالم
الفديم الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم

(1) نشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها العاشر ، المجلد التاسع، عام 1965 .

(2) هذا نوع من الأسلوب الشعري عند شعراء العجم يعبرون به عما يجيش في

في الحاجة ، ولكنَ العالم الإسلامي اليوم قد ففد الشيء الكثير من قوَته
وقيمته.
لقد تجوَّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرتُ بلاد العرب ، وديار
العجم ، فرأيت من يقتدي بك ، ويجذَد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ،
ورأيت من يمثل ابا لهب ، ويحكيه كثيراً يوجد في كلِّ زمان ، إنَّ الشباب
الإسلاميَّ قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضمائرهم ، إنَهم في
شبابهم ناعمون برقاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنطر البعيد،
إنَهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلٌ بعد جيل ، حتى أصبحوا
لا يحلمون بالحرية ، ولا يطيقونها.
إنَ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النزعة الدِّينية حتى
أصبحوا خبر كان ، إنَّهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون ان
يتصدَق
عليهم الغرب بكسرة خبزٍ ، أو حفنة شعيرٍ ، إنَّهم باعوا نفوسهم الكريمة
من
اجل لقمةٍ حقيرةٍ ، فأصبحت الصقور التي تحلِّق في السماء عصافير
صغيرةً
لا شأن لها بالأجواء الفسيحة ، والمرامي البعيدة .
إن أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مزجاةٌ لم يخبرو 5 بمركزه
،
ومنصبه ، إن نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغأ
جديداً ، فأصبح في هذ 5 الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلم لا
يعرف
سرَّ الموت ، ولذته ، ولا يؤمن - كما كان يؤمن في القديم - بأنه ا لا غالب
إلا
الله) لقد مات قلبه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكر إلا في المنام والطعام ،
إنَّه
حكم الغرب في نفسه ليتلفى منه رغيفاً ، وقبل متة مئة إنسان من أجل

إنَّ محطم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح آزر ينحت الأصنام
، إته
يشتري من الأفرنج أصنامهم الجديدة ، إنَّ هذا الجيل قد أصبح
في حاجةٍ إلى
بعثٍ جديدٍ ، وإلى أن تقول له مرَةً ثانيةً : قم بإذن الله ، لقد

جديد ثائراً جديداً يؤمن بالله ، ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسم هذه الحضارة ،
ويبطل سحرها.

نفسي فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العنان ، وقف لي لحظةً أبث إليك بالأشجان والأحزان ، وقد تلجلج لساني ، وخانني البيان ، إنني في
صراعٍ بين سلطان الشوق والأدب ، إن الشوق يقول لي : تشجَع ، وتكفم، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، والأدب يقول : إياك والفضول ، فافتح العينين ، وأطبق الشفتين ، ولكن الشوق عصا ثائرٍ لا يخضع للأدب ، إتني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اًللاغب الذي زهد فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجات إلى حرمك ولأمرٍ ما تراميت في
أحضانك ، إن صوتي قد اختنق في حلقومي ، وإن اللهيب عاد لا يتجاوز صدري ، وإنَ أنفاسي قد تجزَدت من لوعة القلب ، ولهيب الصدر ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر.

إن الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف يستقر في الصدر ، كالعاني الأسير، إثه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها، يا لها من علل يعانيها جسدي وروحي ، ولا دواء لها إلا أن تنظر إليئَ من طرفٍ
خفي.

إن هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي
اللطيفة لا تُحتمل مرارتُها ورائحتُها ، فأنا مريض ، لا يحمل إلى طبيب،
فأبكي بكاء الأطفال ؟ إذا جرعوا الدواء المرَ ، وأنا أخادع نفسي وأمزجه
بالحلاوة حتى تسهل إساغته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح

إنني مع عتاد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمددٍ من
الزيتٍ من جدٍيد ، إن وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية

بالروح ، وإن قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد
أن ينقطع رجائي

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن ابطأ بي
عملي في مجال الكفاح ، إنَ مهمتي أصعب وأرقُّ من مهمة فرهاد(1)
الذي
كلف تفجير نهر من لبن من جبل أصم(2) فأنا في حاجة إلى آلاتٍ أَحَدَّ ،
وقوًى
أَشَدَّ ؟ حتى أكمل مهمتي وأحقق رغبتي ؟ إنني مؤمن ، لا أكفر بشخصيتي
ومواهبي ، فاضربني على المسنَ ؟ فإنني حديدٌ من معدن كريم ؟ إنني
وإن
كنت قد ضيعت شبابي ، وأتلفت حياتي ، ولكنِّي أملك شيئاًاسمه " القلب"
إنني أغار عليه ، وأستره من العيون ؟ لأنَّه يحمل أثراً من حافر جوادك
الأصيل ، إنَّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدنيا إنما يتسلَّى برضا سيده
وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً ، يا من منج الكردي (3) لوعة
العرب ، اسمج للهندي أن يمثل بين يديك ، ويتحدث بأشواقه وأحزانه
إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مفروحةً ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاؤه
ما يعانيه من حزنٍ وأليم ، إنَه لا تنقطع ألحانه الشجية كالعود الذي لا راحة
له،
ولا انقطاع ، إنني كحطب في الصحراء مرَ به ركب فأشعل فيه النار "
وأعجل
الركب السير ، فمضى وخلفه " وبقي الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً
ليستهلكه ، ويأتي على بقيته ؟ فمتى يمرُّ به ركبٌ جديدٌ في هذه الصحراء

1) هو بطل أسطورة شائعة في الأدب الفارسي ، خلاصتها : أنه عثق
امرأة اسمها
" شرين " كان يحبها ملك اسمه " خسرو " فلما عرف ذلك الملك
كلفه ان يفجر نهرأ
2) من لبن من الجبل ، فحمله الهيام بعشيقته على ذلك العمل العقيم ،
وأكبَّ على ذلك
3) وانصرف إليه حتى مات ، ويضرب به المثل في الوفاء والتفاني.
يشير إلى أنه كلف نفسه إخضاع الفلسفة الغربية المادية للغايات
الدينية والخلقية

نياحة ابي

زارت روح عمرو بن هشام - زعيم الجاهلية والنخوة العربية - مكَة ، وقد أصبحت بلد الإسلام والتوحيد ، وطهر بيت النّه للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحرم عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزَى ، ولا أساف ، ولا نائلة (2) ، وقام المؤذن

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعطمها بالاباء ، واصبج الناس يعتقدون انَهم من آدم ، وادم من تراب ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، إلا بالتقوى ، وشمع الناس يتلون : " يهأَتها آلًاسُ إنَاظًقنَبهوُمِن بمروَأنثَى وَجَعَلنَبهؤشُعُوبُا وَقبًايلَ لِتَحَارَفُومْ إِنَ أَتحرَمَكُوعِندَألتَهِ أَنقنكتم " أ الحجرات : 13 ، .

وأصغى إلى الناس في غدوّهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو نسبٍ ، ووطنٍ او شعبٍ ، وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيّر احداَ بأمَه ، ا و سواده ، او حرفته ، او حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته ، أو قرشيته، وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبني عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلة في ماثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى

1) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها الثاني والثالث ، المجلد الرابع ، عام 959 ام .

2) كان اكثرها اصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعبهما ،

سيد بني مخزوم ، ويقرُّ عيناً ، ورأى أن الحياة القديمة قد نُسخت وأُبطلت،
وولد مجتمغ جديد قام على أساسٍ من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة،
والتَقوى ، وتغئرت الموازين والقيم ، وتغئرت عقول الناس ونفوسهم ، وسُبم
ينشد في حزنِ واستعجاب :
فما الناس بالناس الذي عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعرف
لقد أشكلت الأمور على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابن
البلد ، وسيّد من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا

لقد كان يرى في الدَين " الجديد " الذي جاء به محضَد ع!يم الخطر،
والضرر على الدِّين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية
القرشية ، والنظام الجاهليِّ ؟ الذي يقوم على النسب ، والوطن ، وتفضيل
الدم والعرق ، ويرى العالم كفَه في حدود " المملكة القرشية " التي قامت في
مكَّة ، ولا يعني بخارج هذه الحدود .
ويرى الفضل كفَه في العرب ، فغيرهم عجمٌ وعلوج ، لايستحقُون
مدحاَ ، ولا يستحقُون رحمةً ، ولا يستحقُون عدلًا ، لقد كان يرى كلَ ذلك
ويتوقَّعه ، وكان من أشدَ الناس حماسةً في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدق
الناس فراسةً في معرفة غايات الإسلام ، ولكنَّه على بعد نظره وذكائه لم يكن
يعرف أنَّ الأمر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأنَّ الإسلام يؤثر في

إِلَّا لِلَّهِ " أ الأنعام : 57 1 و " اتَ اَلأَزضَ لِئَهِ يُورِثُهَا مَن يشَاءُ " أ الأعراف : 128 ، واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفتنوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ، وهل كفر أعظم من قوله : " لا إله إلا الله " ، هـانكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنه طوى بساط دين الآَباء ، وفعل بآَلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللاَّت ومناة جذاذأ بضرباته الموجعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآَلهة ، يا عجباً ! لفد جرَّد القلوبا عن معبودٍ مشهوب يرى ويلمس (1)، وربطها بمعبوب غير مشهودٍ ، ولا يرى ، ولا يلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى واعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يرى وجود ؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجودٌ لغائب ؟ هل يجد الإنسان لذَةً وحلاوةً في ركوعٍ وسجودٍ أمام غائب ؟! .

إنَ دينه حتف! للوطنية ، والقومية ، إنَّه من قريش ، ولكنه لا يفضل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدةٍ واحدةٍ ، ويأكل معه ، أسفاً إنَه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، واكرم العلوج والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم باللئيم ، والجميل بالدَّميم ، وذلَّ العرب ، وذلَّ بنو قصي.

إئنا لا نشك في أنَّ هذه المؤاخاة ، التي يح! عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجميئ ، وقد تحقَّق لدينا أن سلمان مزدكيئ ، وانَّ ابن عبد الله خُدِع به ، وجرَ البلاء والشقاء على الأفَة العربية ، لفد جهل هذا الفتى الهاشميئُ قيمته، وشرفه ، لقد اعمته هذه الصَّلاة التي يصفيها ، هل لعجمي أصل عدنانيئ، وهل لأعجميئ نطق عربيئٌ ، ولهجة مضرتة ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسميه محمد وحياً بكلامكم البليغ الساحر. ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول . ولماذا

(1) يعني به : الأصنام من الحجارة

لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الاكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصبأة ، أغِرْ
عليهم ، وعكرْ عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم
اعجاز نخل خاوية ، يا مناة ! ويا أئها اللات ! فباللّه ! لا ترحلا من ديارنا،
وإنْ رأيتُما الرَحيل فباللّه ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدَّ من الرَّحيل،
فلا تعجلا ، وأمهلانا أياماً نتمتع بكما "(1) .
عودة الجاهلية (2):
مرَّ شاعر الإسلام - في بعض زياراته الرُوحية ، وسياحاته الفكرية - بوادٍ
اجتمعت فيه الآلهة القديمة التي عبدتها أمم الجاهلية ، ونحتت أصنامها،
وتماثيلها ، وبنت عليها هياكل ومعابد ، وعكف عليها ال!دنة والكُهَّان ،
وتغئى بها الشعراء والأدباء ، وكان مجمع الآلهة القديمة من شعوبٍ مختلفةٍ ،
وبلادٍ مختلفةٍ ، وعصورٍ مختلفةٍ ، فهذا إله المصريين القدماء ، وهذا ربُّ
التبابعة ، والأذواء من اليمن ، وهؤلاء آلهة عرب الجاهلية ، وأولئك آلهة
وادي الفرات ، وهذا إله الوصل ، وذلك ربُّ الفراق ، هذا صت سلالة
الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا زوج المشتري .
ثم إنَّهم أشكا 4 وألوان ، فهذا قد سل السيف بيده ، وهذا تقفَد

(1) " جاويد نامه ! لشاعر الإسلام محمد إقبال .
(2) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها السادس ، المجلد الرابع،

ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسَّع في العلم والنظر ، وجاء يتمتَع
بالآثار العتيقة ، ويتحدَث عن مجدنا ، إتها بارقة أمل لاحت بعد مدَةِ ، ونفحةٌ
هثت من أرضٍ حكمناها طويلاَ ، ونعمنا فيها كثيراً.
وكان بعل - إلَه الفينيقيين والكنعانيين القديم - أول من اهتزَّ لهذه الزيارة ،
فأنشا يغني في طربٍ ومرحٍ ، ويفول : " إنَ الإنسان اخترق السموات العلى،
يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا
خواطر تسنح له ، ثثمَ تغيب ، كالأمواج ترتفع ، ثم تتوارى ، إثه لا يرتاح إلا
إلى المحسوس المشهود .
حيا اللّه الإفرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ،
وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ، التي
أتاحها لنا الدهاة الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عفيدة التوحيد،
ونسوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذَّته.
إنهم صحبوا الغربيين مدَةً من الزمان ، وعاشوا معهم ففقدوا ثروتهم،
وضيعوا ذلك الدّين الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بعث فيه الإيمان
واليفين.
إن الرجل المؤمن الحرَ ؟ الذي لم يكن يعرف الحدودلا والجهات ، ولا
يعبد غير الإله الواحد الذي خلق السموات والأرض ، أصبح يؤمن بالوطن،

لقد أعاد سحر الغرب دولة إله الشز والظلمة ، وشبابه ، وأصبح الدين
الإلهي مهدَداَ ، فطوبى لنا ، ولإخوتنا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ،
واعتكفوا في الخلوات والمغارات .
لقد كان عئادنا أحراراَ ، لهم التصرُّف المطلق ، والحرية الكاملة في
حياتهم ، لم نثفلهم بعبادةٍ وطاعةٍ ، وإنَّما طلبنا منهم ركعةً لا سجود فيها،
وقد أثرنا فيهم العاطفة الدينية ، بالأناشيد والأغاني ، فلم تكن صلاتهم إلا
مكاءً وتصديةٍ ، ونغمةً وأغنيةً ، وأفيُ لذةٍ في صلاة لا غناء فيها ، ولا
موسيقا؟!
إن الناس لا بدَ يفضِّلون عبادة طاغوتٍ مشهود ، على عبادة إلهٍ غائب،
ورفي لا يُرى بالأبصار "(1) .
حديث الربع (2):
خيم سلطان الزَبيع ، وانتشرت جنوده في رحاب الصحراء ، وأودية
الجبال ، وقامت دولة الزهور والزَياحين ، ودبَت الحياة إلى الصَخرات
والحجارة حتى كادت تنطق وتنطلق ، وغشيت العالم سحابة من المرح
والسرور ، حتى أبت الطيور أن تستقرَ في أوكارها مرحاً ،

(1) من ديوان " جاويد نامه " .
(2) نشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها الأول ، المجلد الرابع،
عام 959 ام .

الرفق والقوَة ، وهي مع ذلك كفه لا تفقد حقيقتها ، وحياتها متسلسلة في
الفيضان ، مستمر! في الجريان ، ويرى فيها صورة للحياة التي تجري
باستمرار ، وتظهر في ادوارٍ واطوار ، وتلتزم الحركة والتطوُر ، فما لها
من
قرار ، ويستلهم الشاعر الحكيم من مناظر الربيع التي فتقت قريحته ،
وأهاجت
شاعريته ، ومن الدروس التي يلقيها نهر الحياة الفئاض معاني حكيمةً ،
يهديها
إلى الجيل الإسلاميئ الجديد ؟ الذي هو مناط آماله ، ويهيئه لاستقبال
العصر
الجديد ؟ الذي ظهرت تباشيره .
ويقول : " لفد تغير العصر وأوضاعه ، وتكشَفت اسرار اوربة ، وما كانت
تضمره وتُبيته للشرق ، حتى أصبح فلاسفتها ، ودهاتها ، وزعماؤها في
حيرةٍ
من أمرهم ، لقد اْفلست السياسة الأوربية ، واخفقت اساليبها القديمة،
واصبح العالم يبغضر، الإمارة والملوكية ، وثار المجتمع على الأفراد
والسلاطين ، ولقد انتهى دور الراسمالية والثراء الفاحش ، وانتهت هذه
المسرحية التي مثلها الملوك ، وابطال ألف ليلة ، لقد تخطَت اليقظة
العالمية
إلى شعوبِ معروفةٍ بالكسل والسبات العميق ، وتدقفت عيون جبال
همالايا،
وتهيات جبال سينا ، وفاران ، لإشراقٍ جديد " .
ويقبل كعادته إلى أفَته الإسلامية الحبيبة ، ويستعرض العالم الإسلاميئَ،
فيقول : " إن المسلم وإن كان لا يزال متحفَساً في التوحيد ، فقلبه لم
يتجرَد
بعد من نفوذ الوثنية وشعائرها . إن الحضارة ، والتصوُّف ، والدَيانة ، وعلم
التوحيد لا يزال كلُّ ذلك خاضعاً للنفوذ العجمي ، لفد طغت الخرافات على
الحقيقة ، وتاهت الأفَة في الأخبار . إنَ الخطيب (1) يسحر المجتمع
بكلامه
وخطاباته ، ولكنه جافٍ قليلُ الحظَ من الحنان ، ولذة الشوق ، إنَ كلامه
مؤسسن على المنطق والقواعد ، ومشحون بالمفردات الغريبة ،
والتراكيب

(1) يعني به الوعاظ والخطباء الذين يخطبون ويؤلفون في المقاصد
الدينية ، ويعظون

للدين ، فقد ابتلعته الفلسفة العجمية ، و" الشكليات الصُوفية "(1)، لقد
انطفأت شعلة الحبِّ والحنان في المسلم ، فأصبح ركاماً من رمادٍ ، لا شعلة
فيه ، ولا حياة " .
وهناك يدعو محمد إقبال رئه مخلصاً أن يعيد إلى هذه الأمَّة الحياة ، ويعيد
إليها عهدها الإسلاميَّ الزاهر الأولى ، ويدعو أن يلهب في نفسه العاطفة،
ويشعل شعلة الحمث ، فيستمدَ منها قوةً ، وخفة روح ، وسموّاً لا يحظى به إلا
" المحبون المؤمنون " فيطير بجناح الحبِّ ، ويصل إلى ما لا يصل إليه الثقلاء
المادِّيون ، ويدعو أن يخلق اللّه في هذه الأقَة الهامدة الخامدة قلب عليئً،
ولوعة أبي بكر - رضي اللّه عنهما - وأن يبعث في صدورها الآَمال التي ماتت.
وهنالك تأخذ الشاعر أريحية الشعر والإيمان ، فيفول : " حيا الله نجوم
سمواتك ؟ التي تلمع ليلاً ، وعباد أرضك ؟ الذين يحيون الليالي عبادةً
وتلاوةً ، أَحْي قلوب الشباب الإسلامي ، واجعلها خفاقةً حساسة متوجعةً،
وارزقهم يا رب ! حبي ، وعاطفتي ، وفراستي ، وحكمتي.
لقد وقعت سفينتي في لجَّةٍ ، وأحيط بها من كلِّ جانب ، فأخرجها من هذه

(1) إشارة إلى تطور التصوُّف الإسلامي ، وانحطاطه في العصر الأخير.
يشير إلى ما يسنح له من افكار جديدة ونظريات .
(2) يشير إلى الصراع النفسي بين الفلسفة والدين والعاطفة الذي لم

هذه هي ثروتي التي أعتزّ بها في فقري ، وأدعوك يا رب ! ان تقسمها في الشباب الإسلامي ، وتملكهم إيَّاها ، فتصادف محلَّها ، وتصل إلى مَنْ هو أحقُّ بها ، وأهلها " .
وبعد أن يشرح فلسفة الحياة ، ووحدتها في الكثير ، وتطؤرها ، وظهورها في مظاهر شتَّى ، وحرصها على الحركة والتغير ، وفرارها من الهدوء والجمود ، وقوَّتها ، وسرعتها ، كلّ ذلك في عمقٍ ، ودقَّةٍ ، وهو قطعة فلسفية
أدبيَّةٌ ، تستحقّ الدراسة والعناية من تلاميذ الفلسفة ، وعلمائها ، وروَّاد الأدب
يهيب بالشباب الإسلامي ، ويفول له ، وهو يعرف اندفاعه إلى المادة والشهوات ، وغرامه الشديد بالوظائف والمرتبات :
" إنَّ الرزق الذي يفقد الأبيَّ الكريم كرامته ، ويرزأه في حرّيته وشرفه سمّ
زعادت ، إنَّ الفوت المفبول هو الذي يظلُّ معه الرجل موفور الكرامة ، مرفوع
الهامة ، ازْهَدْ في أبَّهة السَّلاطين ، واعرف نفسك ، واحتفظ بفيمتها وكرامتها . إنَّ السجدة التي هي جديرة بالاهتمام هي السَّجدة التي لحرّم عليك
كل سجدةٍ لغير اللّه " .
ثم يحثّه على مغامراتٍ جديدةٍ ، وفتوحٍ جديدةٍ ، وتقدّمٍ دائم ، وطموحٍ قائم ، حتى تنكشف له عوالم جديدةٌ ، لم يحلم بها علماء الطبيعة ، ولم تحدِّث عنها العلوم الكونية.
إنَّ هذا الكون الذي يتركب من لونٍ وصوت ، والذي هو خاضعٌ لناموس الموت ، والذي تسرح فيه العين ، وتتمتَع فيه الأذن ، وليست الحياة فيه - عند
اكثر الناس - إلا الأكل والشرب ، ليس هذا الكون الفسيج الجميل ، هو المرحلة الأولى لمن عرف قيمته . إنَّه ليس وكرك التي تستريح فيه ، والغاية
التي تنتهي إليها ، ليست هذه الأرض التي مادَّتها التراب مصدر روحك المتوقدة الوثابة ، وعاطفتك الملتهبة ، أنت مادَّة الكون وليس الكون مادَّتك،
كن في تقدمٍ دائمٍ ، ورحلةٍ دائمةٍ ، وحطِّم هذا الجبل الأصمَّ الذي يعترض

يعالجه في حياته.

طريقك . وتمرَّد على هذا الزمان والمكان ، وتحرَّر من قيودهما ، وانطلق من
حدودهما ، فانَ المؤمن إذا عرف قيمة نفسه ؟ اقتنص هذا العالم ، وافتنص
هذه الأرض والسَّماء في بعض ما يقتنص " .
" إنَّ هنالك عوالمَ وأكواناَ ، لم تقع عليها عين بعدُ ، فإن ضمير الوجود لم
يُفرغ جعبته ، ولا يزال يأتي بجديدٍ ، وإنَّ هذه العوالم متشوقةٌ لهجومك،
وغارتك ، وزحفك ، متشوقة لأبكار أفكارك ، وبدائع أعمالك . إنَّ

المفامة الشريؤ السير لمحبر
الحل! الحسنل!
ومكانته في تاريخ الهند الإسلاميِّ(1)

قبل أن أقوم بالتعريف بشخصية والدي العلاّمة الشريف السيد عبد الحي الحسني - رحمه اللّه - (286 اهـ- 1869 م ، 341 اهـ- 923 ام) بصفته مؤرخاً عظيماً ومؤلفاً كبيراً للتراجم ، وكمؤلفٍ عرض الهند لافي العالم الإسلاميِّ فحسب ، بل في العالم العلمي أيضاً بصفتها بلاداً قامت بدورٍ اجتهادي ، وقياديّ في مجالات العلم ، والبحث ، والتحقيق ، والدَعوة ، والإصلاح ، والتزكية ، والسلوك ، وفي العلوم الدينية ، والعقلية، واللسانية ، قبل أن أذكر دوره وخدماته في هذا المجال أرى من المناسب ، بل أرى لزاماً عليَّ أن استرعي انتباهكم إلى ما يتَّسم به من ميزةٍ ، وتفردٍ ، وندرة ، ونجاح يفوق كل قياسٍ وتقدير، مساهمات العلماء والمؤلفين العلمية

(1) هذا البحث القيم ألقاه العلامة النَّدويُ في الندوة العلمية التي عقدتها أكاديمية أردو لولاية أترابرديش في 6 - 7 ذي القعدة 417 اهـحول حياة وأعمال العلامة عبد الحي

والدُّعاة المسلمين الأولين صارت لغتها " اللغة العربية " ولم يعد الفرق بينها
وبين جزيرة العرب في التعرف على الكتاب ، والسنة ، والعلوم الإسلامية،
والادبية ، والاستيناس إليها وفي إظهار نبوغها وبراعتها ، وبذل جهودها في
هذه الميادين ، فانتظمت بسبب قرب المكان ، ووحدة اللغة في سلكٍ واحد،
وتكونت عضواً من أعضاء أسرةٍ مشتركةٍ دينيةِ ، وعلميةٍ ، ولغويةِ ، وأدبيةٍ .
وفي هذه المناسبة أذكر لكم مصر ، والعراق ، والشام التي أنجبت آلافاً
من العلماء ، والفضلاء ، والمحدِّثين ، والفقهاء ، والادباء ، والشعراء ،
والمصنفين ، والباحثين ، ويتصدَّر العراق هذه الديار ، والمراكز السياسية
والعلمية ، وخاصةً في القرون الأْولى للإسلام ، واهم سبب لذلك هو قيام
الخلافة العباسية ، وتبوُّء بغداد مكانة المرجعية للخاصَّة والعامة ، وكونه مورداً
للعلماء والمجتهدين ، وبه ولد مؤسس بعض المذاهب الفقهية ، والائمة
المجتهدين ، وواضعي المناهج الدراسية لعديد من العلوم والفنون العربة،
ونشأ فيه مصنفو المراجع والمصادر ممن يطول ذكرهم.
وتلي العراق مصر والشام حيث نبغ عدد كبيو من أهل الفضل والكمال ،
وأصحاب التصنيف والتأليف ، وأسباب الشعر والادب العربي ، ومؤلفو كتب
التاريخ والسير ، وتراجم الأعلام في كل فن مليئة بأسمائهم

البارعين في العلوم الإسلامية والعربية والمحققين والراسخين في العلم
والمصنفين باللغة العربية ، إلا فضلاَ وتوفيقاَ من عند الله تبارك وتعالى،
ونتيجةً للإيمان القوي المتدفق ، والجهود الذَاتية ، والرسوخ العلميئ.
وفي مقدمة هذه الممالك والبلدان إيران ؟ التي حاز بعض أبنائها على
درجة الإمامة ، والاجتهاد في العلوم العربية والإسلامية ، ودبجت يراعتهم
مؤلفاتِ رئيسيةً ، احتفَت درجةَ منهجيةً في نفس العالم العربيِّ والإسلافي،
ولكن ائمة الفن هؤلآء جميعاَ وإن كانوا قد ينتمون إلى إيران عنصراً ونسلاَ قد
نشؤوا وترعرعوا في بغداد ، وهناك اشتعل ذكاؤهم ، وظهر نبوغهم ، وبلغ
علمهم اوجه ، ومنها طار صيتهم في الآفاق ، وفي هذه المدينة اثمرت
جهودهم العلمية ، وبمنهلها العذب شفى المتعطشون غليلهم العلمي في العالم
العربي والإسلاميئ ، ومن بين هؤلآء العباقرة إمام النحو سيبويه الذي يعتبر
كتابه " الكتاب " كتاباً رئيسياً ، ومنهجياَ ، ومرجعاً هاماً في هذا الفن الجليل،
هو من مواطني بلدة في مديرية شيراز من مقاطعة فارس الإيرانية ، وعبد القاهر
الجرجاني الذي يعتبر كتابه : " دلائل الإعجاز " سنداً ومرجعاً موثوقاً به في فن
البلاغة ، هو أيضاً ينحدر من جرجان " كركان " من مقاطعة استراباد الإيرانية
حالياً ، وسوى هذين الإمامين الجليلين هناك إمامان عظيمان

بصفةٍ عامَة ، والحديث ، والففه بصفةٍ خاصَةٍ فحسب ، بل قدَمت نماذج رائعةً
للإمامة والسيادة أيضاً ، اعترف بها ، وانقاد لها العالم العربيُّ والإسلاميُّ،
وصارت جزءاً من المقررات الدراسية الدينية لايتجزأ ابداً ، ولا يمكن
الاستغناء عنها ، وعلى رأسها " الجامع الصحيح " للإمام محمد بن إسماعيل
البخاري و" الهداية " للعلامة علي بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني
(م 593 هـ) الذي هو من أمهات كتب الفقه الحنفي الدراسية ، ومن مراجع
الخاصَّة والعامة ، ولا نعرف كثيراً عن مصنفات علماء تركستان الاجتهادية
والممتازة في الفنون الأخرى غير الحديث والففه ، يمكن أن تكون أعمالهم
وإنتاجاتهم في الفنون الأخرى أيضاً ذات قيمةٍ واهفَيةٍ ، فانه يحتاج إلى دراسة
أعمق ، ومطالعة أوسع.
والان نتجه إلى الهند حيث صُنِّف عديد من الكتب في العلوم الإسلامية،
لا يوجد لها نظير رغم البعد المكانيّ ، والاختلاف اللغويِّ بالنسبة للبلدان
العجمية التي سبق ذكرها ، ومن هذه السلسلة الذهبية كتاب " العباب الزاخر"
لإمام اللغة والحديث والمصنف الشهير في القرن الثالث عشر الميلادي حسن
محمد الصغاني ، وكتاب " كنز العمال " للمحدِّث الكبير في القرن السادس
عشر الميلادي الشيخ علي بن حسام الدين المتقي البرهان
[illegible]

الكتابين الجليلين اللذين يدلَان على رسوخ صاحبيهما علماً ونظراَ ، واطلاعاَ
واسعاَ ينتمي مؤلفاهما إلى الهند . وليس بخافِ على الخبير ا! من الأعمال
الجريئة التي تتطلب همَة عاليةً ، وعزماَ محكماَ ان يتولى مسؤولية التحقيق،
والتدوين ، والتصنيف على لغةِ أجنبيةٍ وفروعها المختلفة شخصن ولد،
ونشأ ، وترعرع ، وتعلَّم بعيداَ عن وطنها وعن مراكزها ، يستحق تاريخ الهند
الإسلامي أن يفتخر بأنَّ صفحاته لا تخلو من أمثال هؤلاء الأبطال الشجعان ،
والفوارس المغامرين ، وأخصّ بالذكر منهم العلامة الشريف

إنَّ تأليف رجل هندي في موضوع اللغة العربية تعتبر جراءة علميةً كبيرةً من
غير شكّ ، أضف إلى ذلك شرح القاموس باسم " القاموس المحيط " الحائز
على الثقة والمرجعية لإمام اللغة العلامة مجد الدين الفيروز آبادي ، وإكماله،
والزيادة فيه ، وتصحيحه ، وإنْ دلَّ ذلك على شيءَ فإنَّه يدكُ على تبحُر علمه،
ورسوخه ، وبراعته النادرة في فن اللغة ، وجراءته الفوية ، واعتماد 5 على
أصالة مطالعته ، ودراساته الواسعة العميقة ، وفي حياة المؤلف نفسه طار
صيت هذا القاموس في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى حصل سلطان تركية
على نسخةٍ منه ، تَتمَ نقلها بأمر 5 ، ولم يتخلف عنه السلطان دارفور وسلطان
مراكش في الحصول عليه ، كما حصل قائد مصر العسكري

منسجمةً بعضها مع بعضٍ كامل الانسجام ، وعلى مقاصد
وفرائض الإسلام ،
و " إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء " على ضرورة وأهمية
الخلافة ، وإثبات
خلافة الخلفاء الراشدين ، ومكرماتهم ، ومننهم ، وعلى مكانة
الخلافة في
الإسلام ، وعلى حد الخلافة الجامع المانع ، إذا لم أذكر هذين
الكتابين فإنِّي
سأكون مقصِّراً في البحث والتحفيق وجانياً على العلم والتاريخ.
ولكن مع كل ماتتميَّز به الهند من مزايا الزعامة في العلوم
العربية
والإسلامية ، وفي مجال التحقيق والتصنيف ، لم يذكر
المؤرخون وأصحاب

لذلك نرى المؤلفين كالحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة ،
والشَخاوي في
الضوء اللامع ، والشوكاني في البدر الطالع ، والحضرمي في
النور ال!افر،
والمحتي في خلاصة الأثر ، والمرادي في سلك الدُّرر لم
يترجموا إلا للقليل
النادر ممن هاجروا إلى بلاد العرب ، وتوطَّنوا الحجاز ، او طالت
إقامتهم في
الأقطار العربية ، استقصى السَّخاوي في كتابه " الضوء اللامع "
وأوعب
وقال : إنَه ذكر كل من يستحقُّ التعريف : " مصرياً ، أو شامياً ،
حجازياً أ و
يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً "(1) .
وهذا هو القاضي محمد بن علي الشوكاني (م 255 اهـ) قد
ترجم في

(1) المقدمة

ويدلُّ على ذلك دلالة واضحة أن العلماء الذين أئَفوا الكتب في الطبقات ، وتراجم الرجال في بلاد العرب على حسب الفرون ، لم يذكروا أعيان الهند، وعلماءها ، ونوابغ رجالها إلا تحفَة للقسم.
وقد كان موضوع الطبقات ، وتراجم الرجال موضوعاً أثيرأ طرقه علماء المسلمين ، والمؤلفون في الهند في كلّ عصرٍ وجيل ، وكان ذلك شيئاً طبيعياً ، وكانت الدواعي إليه كثيرةً ، وقد تخصَّص عددٌ من المؤلفين الكبار لهذا الموضوع . ولنظرةٌ عجلى في قسم الطبقات ، وسير الرجال في " الثقافة الإسلامية في الهند " للعلأَمة الشريف السيد عبد الحي الحسني رحمه اللّه كفيلةٌ بالاطلاع على المكتبة الضخمة التي خلفها العلماء والمؤلفون في الهند ، ولكن جفها ، أو كفها في اللغة الفارسية ، ئم إنَّها موجزةٌ مقصور! على عددٍ قليل من الشخصيات ، لمَّ إنَّها لا تحيط بالهند إحاطةً مكانيةً ، أو إحاطةً زمانيةً، وبعضها لا تحتوي على قرنين ، أو ثلاثة قرون ، ثمَّ إنَ بعضها لا تشتمل إلا على تراجم طبقةٍ واحدةٍ أو مذهبٍ خاصّ ، أو فرقةٍ من فرق المسلمين ، أ و تسيطر على مؤلفيها نزعةٌ خاصَةٌ أو اتّجا 5 خاصّ.
وقد كانت الحاجة ماسةً إلى أن ينهض لسد هذه الثغرة في تاريخ الثقافة

(1) من مقدمة نزهة الخواطر ، بقلم كاتب هذه

العهد الإسلاميِّ ، ونكرانٍ للجميل فحسب ، بل كان ذلك حائلاً
دون معرفة
صلاحية وقوة دين الإسلام والدَعوة الإسلامية لإنجاب ، وصنع
الرجال ،
وتحويل التراب ذهباً ، وإنعاش الروح في الشعوب الميتة ،

فانطلاقا من هذا الشعور والإحساس وحرصاً على خدمة من
خدموا العلم
والدَين قام العلاَّمة الشريف السيد عبد الحي الحسني رحمه
اللّه ، وتوفَر على
دراسة هذا الموضوع الواسع ، ووقف عليه حياته ، ووُفِّق لوضع
كتابٍ كبيرٍ
تنوء به عصبة من العلماء ، أو مجمع علميّ في ثمانية أجزاء ،
لخَّص فيها،
واقتبس من ثلاثمئة كتاب في العربية ، والفارسية ، والأردية ما
بين خالي
ومطبوع ، قد ذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها في فهرست مصادر
الكتاب مفرداً،
واستفصى ، وتوسَع في ذكر النابهين ، وذوي الشان من أبناء
الهند ، ولم يغادر
صغيراً ولا كبيرا اطّلع عليه إلا أحصاه في كتابه ، حتى أصبح
الكتاب يحتوي
على ترجمة أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة ونتف.
وقد توفرت في المؤلف صفات تؤهّله للقيام بهذا العمل الجليل
والتأليف
في هذا الفنّ الخطير ، كان نشأ على الاطلاع والجمع ، وقد كان
ذلك ذوقاً
توارثه من أبيه ، وكان له في هذا الموضوع هؤى من الصبا ، كما
كان مشاركاً
في جميِم العلوم السائدة في عصر المترجمين والسَلف من
علماء الهند،

بالفضل أينما حلَّ واستمرَّ ، واقتصاداً في المدح والنقد ، وتنبيهاً لمواضع
الضعف ، ومما لا يخلو منه بشر ، وعذوبة عبارة ، وخفة روح ، وتنوع مادَة ،
فأصبح الكتاب لا يملُّ ، ولا يستثقل ، واصبح سميراً عزيزاً ، ونديماً فكهاً،
وموعظةً وذكرى ، ودرساً وعبرة .
وهو مبدو! من تذكرة الصحابة والتابعين ، والغزاة والمجاهدين ؟ الذين
أسعدوا الهند بفدومهم الميمون في القرن الإسلامي الأول ، ومختولم بترجمة
أعيان نصف القرن الرابع عشر الهجري في الهند ، ولعلَّ الهند هي القطر
الإسلاميُّ الوحيد البعيد ؟ التي سجلت تراجم أعيانه من القرن الأول الإسلاميِّ

وفي هذه المناسبة أرى من الواجب أن اقدم النتيجة مع الاعتذار التي
حصلت باستعراض علمي بإنصافٍ وعدم انحياز لسلسلة التراجم والطبقات
والسير في العالم العربي والإسلاميئَ الطويلة الممتدَّة في القرون والأجيال ،
المحتوية للعصور والأزمان أنَّ كتب التراجم والسير التي ألفت في الأقطار
الإسلامية الرئيسية الغنية برجالها وأعمالها ، إمَّا هي خاصَّة بفرن كالدُّرر الكامنة
في اعيان المئة الثامنة لابن حجر ، والضوء اللامع في رجال القرن التاسع
للسَّخاوي ، والنور السافر في رجال القرن العاشر للحضرمي ، وخلاصة الأثر
في رجال القرن الحادي عشر للمحبِّي ، وسلك الدُّرر في رجال

22/9 العلأَمة الشريف السيد عبد الحي الحسني
قرن المؤلف ، والمساحة المكانية من شرق البلاد إلى غربها ، ومن
شمالها إلى
جنوبها ، ويشمل طبفات اهل الفضل ، وأعلام كل فنّ ، فلا توجد لذلك
امثلة
ونماذج في أكثر الأقطار الإسلامية العربية.
اما نزهة الخواطر فهو يغطي المساحة الزمانية من القرن الإسلا!ي الأول
إلى سنة وفاة المؤلف ، والمساحة المكانية من ممزَ خيبر إلى خليج
بثغال ،
ومن قلل كشمير في الشمال إلى أقصى جنوب الهند ، ويشمل طبقات
اهل
الفضل والنباهة على اختلاف مزاياهم ، ومجالات فضلهم ، ونبوغهم،
ومذاهبهم ، واتجاهاتهم ، كما يتحقق ذلك القارىء عند الاطلاع على هذا
الكتاب ، وفحصه عن عَلَمٍ من الأعلام في ايّ فنّ من الفنون ومجالات
النبوغ
والإنتاج .
إنَّ تأليف الجزء الثامن الأخير من الكتاب كان أكثر صعوبةً ودقةً ، فإئه
يختصّ بأعيان وأعلام الهند المعاصرين ، إنَّ التمسُّك بالاعتدال والتوازن
في
اكضفيد، والاعتراف بالفضل والخدمات في الشخصيات المعاصرة عمل
صعبٌ ، ودقيق جداً ، ولكن المؤلف رحمه الله قد قطع هذه العقبة بأمنٍ
وسلامٍ .
من أجل هذه الميزات والخصائص يندر نظير 5 في مكتبة
التراجم،
والطبقات ، والسير ، وهو تحفةٌ علمئة تاريخثة غاليةٌ
للمحقَقين ، والباحثين،
والمشتغلين بتاريخ الهند الإسلاميِّ ، وباقة جميلة للمعلومات ،
ووصفٌ
صادق لأهل الفضل والكمال .
ومأثر!علمثةٌ أخرى للعلاَّمة عبد الحي الحسني كتابه " معارف
العوارف في
أنواع العلوم والمعارف " الذي قام بطبعه ونشره باسم "
الثقافة الإسلامية في
الهند " سنة 958 ام المجمع العلمي العربي سابقاً ومجمع اللغة

والجغرافية ، والفقه ، والحديث ، وأصولهما ، والتفسير ، وأصوله، وا لتصؤُف ، وا لأخلاق ، وا لكلام ، وا لمنا ظرة ، وا لمنطق ، وا لطبيعيات ، والرياضة ، والطمب ، فذكر تاريخ كل فنّ مطلفاً ، ثم ذكر تاريخ الفن في الهند ، ثم ذكر ما وضع فيها علماء الهند من الكتب ، ومن برع فيها منهم.

وهو كتال! جليل غزير المادة في هذا الموضوع ، وخلاصة دراساتٍ طويلةٍ واسعةٍ دقيقةٍ .

وللمؤلف كتال! ثالمث قيم في العربية باسم " جنةُ المشرق ، ومطلع النور المشرق " إئه في الحقيقة عصارةُ دراساته الطويلة الواسعة في حياته كقَها، وتتجقَى فيه صورة العهد الإسلاميِّ في الهند بكلّ جلالها ، وجمالها ، وبنظرةٍ واحدة تتمثَّل لك جميع ماثر الملوك المسلمين ، وأهل الفن ، والصناعة الحضارية ، والبنائية ، والإدارتة ، كما يطلعك الكتاب على جغرافية الهند، وموقعها من الأرض ، وجبالها ، وأنهارها ، وهوائها ، وحاصلاتها، وأشجارها ، ونوادرها ، وحرف أهلها ، وحيواناتها ، ومعادنها ، وأجناسها، وأديانها ، وصناعاتها ، ولغاتها ، حتَى عقاقير البلاد ، والفواكه التي لا توجد في غير هذ 5 البلاد ، يحتوي الكتاب على ثلاثة فنون : الفن الاول : وفيه مقدمة وأربعة أبواب : الباب الاول في جغرافية الهند ، والباب الثاني في ذكر أقطاع الهند المشهورة ، والباب الثالث في أشهر مدن الهند

تحصيل المالية ، وفي عوائد الملوك في العدل والقضاء ، وفي ذكر دور
سلاطين الهند وجلوسهم للناس ، وفي ذكر خروج السلطان إلى بلاده ، وفي
ذكر آداب التحية بين أيدي الملوك ، بحثَ عن هذه الأمور ، وذكر ما حدث
فيها من التغيير في كلِّ عهدٍ .
الباب الثاني في فصولٍ مهفَةٍ لابدَ من استحضارها عند النظر في أخبار
الهند ، وفيه عدَة فصولٍ في ذكر السنين ، والشهور ، والسَّاعات ، والنفود ،
والموازين ، واصناف الارض ، والعشر ، والخراج ، وغيرها في كلِّ عصر.
الباب الثالث في الأمور النافعة لأهل الهند ، وذكر فيها مآَثرهم من
الشوارع العافَة ، والبريد ، والحياض ، والأنهار ، والحدائق ، والبساتين،
والجوامع ، والمساجد ، والمدارس ، والمستشفيات ، والمقابر العظيمة،
والحسينيات ، وذكر نوادر ما وضعوه .
وهذا الفسم من الكتاب لم يسبق إليه ، وبه يُعرف حظُ المسلمين في منارة
الهند وحضارتهم ، ومعاشرة ملوكهم ، وسياستهم ، وقد استقصى المؤلف
التغييرات التي حدثت في كلِّ عهد.
وهذا الكتاب في الواقع حلقة هافَة من سلسلة الكتب التي ألفت في
مختلف البلاد باسم " خطط " ! " خطط مصر " للمفريزي ، و " خطط الشام "
لكرد علي.
وطبع ونشر هذا الكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد

بصيراَ ، قلَّما يوجد نظيره في هذا الباب ، وتلقَى هذا الكتاب علماء هذا الشأن
بالقبول ، وصدرت له طبعات كثيرة .
و " ياد أيام " من خيرة كتبه في أخبار ولاية غجرات (الهند) ، وهي أول
ما وطئه المسلمون من أرض الهند ، ضمَّنه تاريخ هذ 5 البلاد السياسيَّ،
والمدنيَّ ، والعلميئَ ، ذكر فيه العلماء ، والمشايخ ، والملوك ، والوزراء ،
والقضاة ، وما ظهر على أيديهم من رقي المدنية ، والصناعة ، والعلم ، وما
إلى ذلك . . " ربما يقوم شخمواحد في الشرق وآسيا بما تقوم به الأكاديمية
في الغرب وأوربة " .
ينطبق هذا المقول على العلامة السيد عبد الحيّ الحسني كامل الانطباق ؟
نظراً إلى ماثر 5 العلمية ، والتاريخية ، والموسوعية ، فإنَّها تشكل مكتبة قيِّمةً
عظيمةً كيفاً ، ولو كانت صغيرة كمَّاً ، فهي نتيجة لدراساته

وبالنظر إلى هذ 5 الحقائق والمعلومات وبالاستعراض لمصنفات العلامة
عبد الحي الحسني القيمة التي لا تخرج ماثر عنصرٍ واحدٍ وفعالياته ونشاطاته
العلمية والتأليفية والإبداعية إلى النور فحسب ، بل تقوم البلاد مرفوعة الرأس
أيضاً في العالم العلمي أيضاً ، فإته يدلُّ إلى حدٍّ على قوة إنجاب وصنع الرجال
وعلى الحرية لكل عنصرٍ وطبقةٍ في التعبير عن آرائها واستخدام كفاءاتها
ومؤهلاتها ، وعرض فنها ، وصناعتها ، ويدلُّ على وجود جوًّ

لسعة النظر ورحابة الصدر علمياَ ، وأدبياَ ، وتحقيقاَ ، لأجل ذلك أرى واجباً
عليئَ ، وإنّي أنتمي إلى هذه الشخصية العظيمة الفذة نسباً واسرةً ومطالعةً

الرالمحية ال!بير
الشيخ محمر إلياللع ال!ان!
هلو؟
منشىء جماعة التبلغ

رجل نحيل نحيف تشف عيناه عن ذكاء مفْرِط وهمَّة عالية ، على وجهه
مخايل الهمّ والتفكير ، والجهد الشديد ، ليس بمفوَّهٍ ولا خطيب ، بل يتلعثم
في بعض الأحيان ، ويضيق صدره ، ولا ينطلق لسانه ، ولكنه كله روح
ونشاط ، وحماس ويقين ، لا يسأم ولا يمل من العمل ، ولا يعتريه الفتور ولا
الكسل ، رايته في حالؤ عجيبة من التألم والتوجع ، والقلق الدائم ، كأنه على
حسك السعدان ، يتململ تململ السليم ، ويتنفس الصعداء ، لما يرى من
حوله من الغفلة عن مقصد الحياة ، وعن غاية هذا السفَر العظيم ، رافقته في
السفَر والحضَر ، فرأيتُ نواحي من الحياة لم تنكشف لي من قبل ، فمن أغرب
ما رأيت : يقينُه الذي استطعت به أن أفهم يفينَ الصحابة ، فكان يؤمن بما
جاءت به الرسل إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافاً واضحاً كاختلاف الصورة

(1) ليراجع للتفصيل كتاب " إذا هبت ريح الإيمان " للكاتب ، طبع

رجال هذه الأسرة على مسند الهند وإمام الحديث فيها العلأَمة الشيخ عبد العزيز
ابن الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، صاحب " حجة الله البالغة " ،
ومسند الهند العلامة الشيخ محمد إسحاق بن محمد أفضل العمري . حفظ
القرآن في صباه ، وكان تحفيظ الفرآن عرفاً مُتَبعاً في الأسرة .
جُبِلَ على الحميَّة الدينية ، وقرأ على أخيه الشيخ محمد يحى ، ثم درس
في مدرسة " مظاهر العلوم سهارن فور " وارتحل في سنة 326 اهـإلى
ديوبند ، وحضر دروس الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند ، رئيس
هيئة التدريمس وفميخ الحديث بدار العلوم " ديوبند " ، في جامع الترمذي ،
وصحيج البخاري ، وأتم دراسة الحديث ، وقرا بقية الكتب الستة على اخيه
الشيخ محمد يحى.

وكان أبوه محمد إسماعيل ، ثم أخوه الشيخ محمد ، قائمين بالدعوة إلى
اللّه ، وتعليم أطفال المسلمين ، وتثقيف الطالبين الأْميين ، في مسجد في
جنوب " دِهْلي " وكان اكثر هؤلآء الأطفال وطلأَب الدين من " ميوات " التي
كانت تغلب عليها الأمية ، والبعد عن الحضارة ، والخضوع للعادات والتقاليد
الهندكية ، فلم تحظ بعناية الدعاة المسلمين والمعلمين والمربين من قرون
عديدة ، وكان هذا المسجد وهذه المنطقة التي اقام بها والده

وغَرَّبت بعد وفاته ، وعُرِفَت بحركة الدعوة وجماعة التبليغ.
وقد كان ذلك الزمن زمن نشاط حركة الردة ، والعودة إلى دين الآَباء
الوثني البرهمي ، وكان أكبر مراكز نشاط هذه الدعوة المناطق التي يسكنها
المسلمون الذي يقال عنهم إنهم اسلموا أيام الحكومات الإسلامية ، وإنهم
ينتمون إلى أسر وبيوتات هندكية قديمة ، وقد آن الأوان - في الحكومة
الإنجليزية التي تمنح لكل فرد وجماعة حرية الاعتناق لأي ديانة تريدها،
والعودة إلى ماضيها السحيق ، وتشجيع كل حركة تضعف المسلمين الذين
انتزعت منهم الحكم ، وورثتها البلاد ، ولا تأمنهم في المستقبل
زعمهم.
أفزع ذلك الشيخ محمد إلياس الذي رزقه اللّه من الحمئة الدينية والغيرة
على الإسلام ، النصيب الأوفر ، وطئر نومه ، وكَدَرَ صفوَ حياته ، وشغل
باله ، وأفزعه كذلك بقاء هذه المنطقة العريضة الواسعة ، ذات المواهب
والطاقات ، والبساطة والتقشف في الحياة ، على جهلها المطْبِق ، وأميتها
الفاشية ، والخضوع للتأثيرات الهندكية ، وتناسي العلماء والدعاة
والمصلحين ، لهذه الولاية المغمورة المجهولة تقريباً ، الوضع الذي يهدد
بكل خطر ، ويغري كلَّ طامعٍ وطامح من دعاة الإفساد ، والردة العقائدية،
والوثنية الجاهلية ، بالهجوم عليهم ، وافتراسهم ، فأقبل اولاً على
الجولات التي كان هدفها الدعوة والوعظ والإرشاد ، ثم على إنشاء الكتاتيب
وبثها في القرى والأرياف ، وعئن فيها مدرسين واساتذة ، كان ينفق عليهم
من جيبه ، ومن إعانة أصدقائه المخلصين ، وقد نفع ذلك بعض النفع،
ولكنه توصَل إلى نتيجة أن الخطْبَ أعظم من ذلك وأوسع ، وأن ما هم فيه
من جهل وفقر ، واشتغال بالفلاحة والزرع ، يمنعهم من الانتفاع بهذه
الكتاتيب والمدارس ، وتفريغ أولادهم الذين يعتمدون عليهم في رعي

الماشية وحراسة (الزرع) للدراسة فيها وأن شان المدعو غير
شأن الداعي.
وإضافةً إلى تجربته العملية ، ونتائجه التي توصَل إليها في
المجهود الذي
بذله في " ميوات " لحماية هذه المنطقة من خطر الردة ،
ووقوعها فريسة في
براثن دعاة الإفساد والإلحاد والارتداد ، والمجهود الذي بذله في
نشر الدين،
والحث على تعلمه ، والتمسك به ، راعَ الشيخ محمد إلياس ما
أصاب
المسلمين -في العالم الإسلامي بصفةٍ عامة ، وشبه الفارة
الهندية بصفة
خاصة - من الضعف والتدهْور في الإيمان والروح ، وجفاف
منابع الشعور
الديني في هذ 5 المدة ، وما أثرت فيهم الحكومة الإنجليزية
والحضارة الغربية،
والتعليم المدني ، وغفلة الدعاة والاشتغال الزائد بالحياة ، حتى
صارت
مدارس العلوم الشرعية ، ومراكز الحياة الإسلامية الدينية
كجزر في بحر
محيط ، واصبحت تتأثر هي نفسها بمحيطها الثائر على الدين ،
فاقتنع أخيراً
بأن التعليم وحده لا يكفي ، والاعتزال لا مسؤَغَ له ولا مجال ،
والانزواء
والانطواء يزيدان في قرب الخطر ، فلا بد من الاتصال بطبقات
الشعب - على
اختلافها- مباشرة ، و؟ بد من التقدّم إليها من غير انتفار ، لأنها
لا تشعر
بمرضها وفقرها في الدين ، وما في ذلك من خسارة وخطر ،
وشقاء وحرمان ،
[illegible]

الإيجابية البنّاءة ، السليمة الهادئة ، المجرَّدة عن الأغراض الدنيوية ، ومطامع
الملك والسلطان ، إلى معسكرات خلافية ، أو منظّمات سياسية ، أ و مخططات إرهابية ، فأضاف إلى أسس هذ 5 الدعوة - التي شرحناها في إيجاز-
حمايتين حكيمتين دقيقتين لهذه الدعوة البريئة ، الخالصة المخلصة دئه، وهما : إكرام المسلم - على علاته ومواضع ضعفه ، ومواضع نقده - نظراً إلى
الركيزة الإيمانية المودعة في قلبه ، وإيمانِه بالئه ورسوله ، وعدم تمرده عليها.
والثاني : عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعي ، وما هو في عداد الأمور الجانبية أو الهامشية في حياة المسلم ، وترك ما لا يعنيه.
وقد كانا حِصْناً حصيناً وسياجاً متيناً لهذه الدعوة التي قد تقوم عمليتها في بيئات موبوءة يستغلها المغرضون لتحقيق أغراضهم ، ويتخذونها قنطرةً للوصول إلى كرسي الحكم ، وقد كان لهاتين الدعامتين فضلٌ كبير في صيانة
هذه الدعوة في جو مكهرب بالسياسة والانتخابات ، وبالخصومات السياسية
والحزبية في شبه القارة الهندية ، وفي بعض البلاد الإسلامية.
وقد اهتدى اخيراً إلى أنَّ هذ 5 الدعوة لا تقوم على قدميها ، ولا تنتشر في العالم ، ولا تحقق المطلوب ، إلا إذا كان رجال متطوعون محتسبون ، لا يريدون عليها جزاءً ولا شكوراً ، ولا يعتمدون فيها على الإعانات والاكتتابات ، ومساعدة الحكومات ، والصندوق والميزانية ، وتجنيد الناس ، وتسجيل أسمائهم في دفاتر وسجلات ، وبثِّ الفروع المنظمة التابعة للمركز
على غرار الجمعيات والمنظمات ، وأن تعيش بعيداً عن المجال السياسي، والشعارات الاستفزازية ، واللافتات الجذّابة ، وتعتمد على الإخلاص ، وابتغاء رضوان الله ، والامتثال لأوامر اللّه ، والتقرب بكل ذلك إلى اللّه ، كما
كان الشأن في العصر الإسلامي الأول .
وفي ضوء ما شرح الله له صدره ، وما اهتدى إليه عن طريق دراسته العميقة للكتاب والسنة والسيرة النبوية ، وأخبار الصحابة رضي الله عنهم، وعن طريق تجربته العلمية وممارسته للدعوة - غير معتمد في ذلك على الخطابة
والكتابة ، والذكاء المحض - فتج الله له الطريق إلى دعوة الناس إلى الخروج

في سبيل هذه الدعوة ، والاكتتاب بالمال ، وبدأ دعوته بمنطقة هي أحط
المناطق الهندية خلقاَ وثقافةَ وحظاً ، وأبعدها عن الدي! ، وأعظمها جهالةَ
وضلالةً ، وهي منطقة " ميوات " في جنوب دلهي ، عاصمة الهند ، والذين
كان الفتل عندهم أهون شيء ، وقد يقتلون الإنسان لامرٍ تافه ودرهم
زائف،
فدعا الناسَ فيها -كتجربة اولية - إلى انقطاع موقت عن أشغالهم -لا إلى
انصراف عن الحياة والرهبنة - والخروج عن أوطانهم لمدةٍ محدودةٍ تفصر
وتطول بحسب اوضاع المتطوع ، وحاجته وهمته ، لاثه عرف معرفة لا
يرتقي
إليها شك ، أن هؤلاء الفرويين الفلاحين او التجار المدنيين ، أو الموظفين
المشغولين ، لا يتعلمون الدين ولو إلى درجة الضرورة ، وما لابد منه
للمسلم ، ولا يتغيّرون في الاخلاق والسلوك ، ولا يتركون عاداتهم الجاهلية
إلا إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد ، الذي يعيشون فيه ، ومع أنه قد
توفرت
فيه المدارس وكثرت فيه المناسبات الدينية ، إلا أنهم لم ينتفعوا بها في
قليل أ و
كثير ، لتأثير المحيط الفاسد الذي أمسك بتلابيبهم ، ووقف حاجزاً بينهى)
وبين
الانتفاع بالفرص المتاحة لهم.
وقد أثرت هذه الدعوة التي أذاب فيها مهجته ، ووضع فيها مواهبه ، رغم
ما كان فيها من مصاعب ، فقد قبل دعوته مئات وألوف من هذه المنطقة،
وخرجوا شهوراً وقطعوا مسافاتِ بعيدة مما بين شرق الهند وغربها ،
وشمالها
وجنوبها ، ركباناً ومشاة ، فتغثرت اخلاقهم ، وتح!نت احوالهم ، واشتعلت
فيهم العواطف الدينية ، وانتشرت الدعوة في الهند وباكستان من غير
نفقات
باهظة ، ولا مساعداتِ مالية ، او نظم إدارية ، بل بطريقة بسيطة تشبه
طريقة
الدعوة في صدر الإسلام ، وتذكر بالدعاةِ المخلصين المجاهدين المؤمنين
الذين كانوا يحملون في سبيل الدعوة والجهاد متاعَهم وزادَهم ، وينفقون
على
أنفسهم ، ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين.
هذا مع استغناء تام عن مساعدات أو تيسيرات تفدم عادةَ من الجهات
الرسمية لجماعات نشيطة ، ذات نفوذ شعبي ، أو دعوات وحركات تتمتع
بثقة

صلتل! بمو!نا حسيو احم!
المرنل!

اخترت أن يكون موضوع هذا الحديث " صلتي بالشيخ ، وتعرفي به"
ورجعت إلى ذاكرتي ، وتفقدت أول معرفتي بالشيخ ، وصلتي به ، ف!ذا بها
ترجع إلى إحدى عشرة سنة في طيات الماضي ، مدة قطع الزمان فيها مراحل
وطوى مني ما طوى من صحائف لا تنشر ، رجعت بي إلى زمان الشباب فيه
غضق طري ، وثوب العمر أبيض نقي ، أنا في العقد الثاني من عمري ، وعمر
الزمان لم يستكمل الثلاثين بعد القرن التاسع عشر من الحساب المسيحي.
اتمَّ طلبة صفث من صفوف دار العلوم لندوة العلماء مقدار الدرس المقرَّر
في السَّنة للقراَن ، وأشار عليهم معلمهم يومئذٍ الأستاذ عبد الحليم الصديقي أ ن
يعقدوا حفلةَ سرورٍ ، وشكرٍ بمناسبة هذه النهاية المباركة ، ويدعو لتشريفها،
وإلقاء كلمة نصح وإرشاد عليهم شيخ الحديث الأستاذ المدني . انعقدت

(1) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها الأول ، المجلد الثالث،

في هذا الفن ، وبخسهم لنصيب القرآن العظيم ، والحديث الشريف ، وكيف
أدال! الله بعد ذلك للقرآن والحديث من هذا الفن الطارىء الشاغل من الدراسة
والفكر مكاناً لا يستحقه ، ونالت هذه الكلمة من أستاذٍ كبيرٍ في معهدٍ كبيرٍ
كدار العلوم ديوبند منا طلبة دار العلوم النَدوية كلَّ إعجابٍ وتقديرٍ ، وحفظناها
له.
كذلك تنبيه للطلبة إلى احترام القرآن ، واحترام الذين خدموه ، واوصلوه
إلينا ، ومعرفة حقِّهم ، وعرفان الجميل لهم ، وقوله : أتعلمون أن الشيعة
لماذا لا يتالى لهم حفظ القرآن المجيد ؟ هل سمعتم بأحد منهم جمع القرآن ،
ويقرؤه عن ظهر الغيب ؟ كان الجواب المنتظر النفي ! قال الشيخ : لماذا؟
لأنَّ الرافضة يسبُّون الذين جمعوا القرآن ، ونسخوه في المصاحف ، ونشروه
في الآفاق : أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، فحرموا من بركات القران ، ولم
يفتج لهم فيه ، أو كما قال .
هذه هي المرَة الأولى تشرفت فيها بزيارة الشيخ ، وما كنت رأيته - كما
أتذكر - من قبل هذا إلا خلسة أو لفتةً ، ثم قدَر ا الّه أن يتخذ بيتنا منزلًا له في
لكهنؤ في أسفاره ، وهي كثيرم! تكاد تكون مستمرةً ، وأمكن أن أجلس إليه
طويلاً ، وأن أستمع له ، وان أتحذَث معه كثيراً ، وان أبيت معه ليالي ذوات

هذا الذي ذكرت من السعادة بفضل شرف بيتنا ، ومجد اسرتنا حضرة
الدكتور السيد عبد العلي مدير ندوة العلماء ، فإن له خصائص اكتسب بها ودَ
الشيخ ، والتفاته ، منها : أن أخي من تلاميذ ففيد الإسلام شيخ
ومنها : أنَّ لبيتنا " البيت الحسني " بفضل السيد الإمام أحمد بن عرفان
الشهيد أواصر وأرحاماً دينية تربطه مع أفراد الحزب الديني في

الدهلوي الدينية ، والعلمية ، ومنهم علماء ديوبند ، ومنها : ا!
أبي رحمه الله
مولانا السيد عبد الحي مدير ندوة العلماء سابفاً كان من
اصدقاء شيخ الهند،
هذه الخصائص التاريخية كسبت لنا الشيخ ، وربحنا فيه ما
ربحنا ، زد على
ذلك أنَ أخي مفَن بايع الشيخ ، وليس من بايعه بالتادر ، ولكن
زاد على ذلك
إخلاص أخي ، وبساطة معيشته ، وعدم احتشامه ، والشيخ
يحبُّ البساطة من
المضيف ، ولا يحبُّها مع الضيف.
إذا عرفت أنَ الشيخ ينزل عندنا ، ويقيم في بيتنا أياماً وليالي ،
بل واسابيع
أيضاً (كأيام مسألة مدح الصحابة) وأنت تعلم كثرة أسفار 5 ،
فلا تسأل عن
حديثٍ يدور ، ومجال! تنعقد ، واجتماعٍ يحصل ، ولا تسأل عن
سرورٍ ،
وأنسٍ ، ولا تسأل عن بركةٍ ، وخيرٍ ، وعن البحر حدّث ، ولا حرج
!
تكلَّم أخي مرَّةً مع الشيخ بشأن ذهابي إلى ديوبند ، وإقامتي
عند 5 ، فقبله
الشيخ بأريحيته المعروفة ، وحفاوته النادرة .
سافرت إلى ديوبند وأنا ندوي ملء الإهاب ، شالث في التاسعة
عشر أ و
العشرين من عمر 5 بعارضه نبات قليل ، وفي جلد 5 جسم
نحيل ، شابّ نشيط
خفيف الروح هع انحراف في الصحَة ، له هوًى في العربية ،
وشغف! بها،
استفاد 5 من تعليم أستاذه الشيخ خليل بن محمد اليماني ،
وصفلته صحبة

أقام الطالب الشافيُ في منزل الشيخ ، فوجده مضيفاً عامراً بالضيوف من
كل أصناف الناس ، وطبقاتهم ، ومن علماء ، وسياسيين ، ومتصوفين،
ومتطوعين يذهبون إلى السجون (1) . وجد بيته زاويةً دينيةً ، ومدرسة سياسيةً،
ونادياً علمتاً ، تأتيه الصحف من جميع أنحاء الهند ، ويتهافت عليها الطلبة
الذين قد تأثروا بالشيخ وفكرته السياسية تهافت الظمآن على الماء ؟ لأنهم
لا يجدون الصحف في غير هذا المكان ، ثم يتجاذبون بينهم أطراف الحديث،
وقد يستعيرون الكتب السياسية من بيت الشيخ ، وهكذا يتلقون ثقافةً سياسيةً،
ويخرجون رجالًا احراراً ثائرين.
وجدت مائدةً واسعةً يجلس حولها غدواً وعشياً عشرة وخمسة عشر،
وعشرون رجلاً ووجدت قلباَ أوسع من المائدة ، قلباً لا يمل كثرة الضيوف ،
وكثرة الوفود .
هناك تعارفت بالسياسي النابغ مولانا محمد سجاد البهاري نائب رئيس
الإمارة الشرعية بمقاطعة بهار ؟ الذي رزىء به المسلمون حديثاً رحمه الله
رحمة المجاهد الذي مات بالميدان ، وكان الشيخ عظيم الإكرام والإجلال له،
كثير الاستشارة منه ، وكنا نسمِّيه " أمير صاحب"
وهنا تعارفت ببعض زعماء جمعية العلماء ، وتعارفت بأساتذة

(1) الزمن زمن الحكومة الإنجليزية ، والأيام أيام حركة التحرير

تكقَم بكلامٍ متينِ فصل ، وكان ممتازاً في هذا المجلس ، كأنَّه من أشدِّ النَاس
حتاً لصاحب البيت ، وأكثرهم إجلالًا له ، وإنصاتاَ لكلامه ، يملأ قلبه من
حبه ، وأذنه بكلامه ، ولا يكاد يملأ عينه منه ، غاضَّ الطرف من غير مرضٍ ،
مطرق الرًأس من غير حياءً ، صامتاً من غير عي ، سألت بعض الإخوان عنه،
فأخبرني أنَّه مولانا إعزاز علي.
شفع لي الشيخ عند مولانا إعزاز علي أن يقرئني شيئاً ، فقبل ، وسمج لي
بالاشتراك في درس شرح النقاية ، كان الشيخ مهتماً بهذا الدرس جدَّ اهتمام ،
واختار عدداً من الطلبة النجباء ، يفرئهم على منهاجٍ خاص! ، وأذن لي الأستاذ
أن أقرأ عليه درساً في نور الائوار بعد صلاة العصر.
وكنت اشترك في درسين آخرين مهمَّين ، درس الجزء الثاني من سنن
الترمذي ، ودرس الجزء الثاني من صحيح البخاري ، وما أنسى من أشياء
لا أنسى درس الحديث ، فكانت له روعة في قلبي ، وكانت تغشى دار الحديث
غاشية من الدين ، وسحابة من الروحانية ، ولا يزال يرن في اذني صوت الشيخ
العذب الرنَّان ، ولحنه العربي الجميل.
وكانت هذه الشهور من شهور الدراسة الاخيرة ، ومقدار الدرس المفرَّر لم
ينف بعد ، فكانت دروسٌ متوالية ، ويكاد يكون النَّهار كلُى درساً ، درسٌ بعد
صلاة الصبح ، ودرسٌ ، ودرسٌ ، وكذلك درسٌ بعد صلاة العصر ، وقتٌ بعد

244 صلتي بمولانا حسين أحمد المدني
صحيفة عنوانها الحسن والحمد ، وليس لي إلّا أن أكرر ما كتب كاتب الشرق
الأكبر الأمير شكيب أرسلان عن سيدي أحمد الشريف السنوسي في حواشيه
على حاضر العالم الإسلامي:
" وقد رأيت في السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله وحق لي واللّه ا ن أنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا واللّه ما سمعت أذني بأحسنَ مما قد رأى بصري
واتّفق لي بعد ذلك أن صحبته في السفر فانكشفت لي ناحية مهمة من
نواحي الحياة الإنسانية ، 5 قرات صفحةً جديدة من صفحات حياته -أطالها
اللّه - ، والإنسان في السفر غيره في الحضر ، ولكني رأيته عين ما رأيته في
بيته ، بل وأجمل ، نزاهةَ أخلاق وعِفَّة بطن ، وعلوَّ همةٍ ، وشهامةَ نفس،
وصبراً لا يعرف السآمة والملل ، وهمة لا تعرف الفتور والكسل ، سهر في
طاعة ، ويقظة في شغل ونومة في اعتدال ، وأكلة في اقتصاد ، وحمِاة كلها جد
واجتهاد وتضحية وجهاد !
واعتزل الشيخ السياسة العملية بعد استقلال البلاد والتقسيم ، وعكف
على الدرس والإفادة ، والدعوة إلى اللّه ، وتربية النفوس ، لا يتصل بالحكومة
ورجالها ، حتى أنعم عليه رئيس الجمهورية في جمادى الأولى لمعنة ثلاث
وسبعين وثلاثمئة وألف برتبة فخرية ، فرؤنحس ذلك قائلاً : إنه لا ينسجم مع

الخشوع والرقة والابتهال إلى اللّه تعالى ، والتهيؤ للقائه ، حتى وافاه الأجل في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وثلاثمئة وألف ، وصلى عليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في جمعٍ حاشد لا يُحصى ، ودفن بجوار أستاذه الشيخ محمود حسن الديوبندي ، والإمام محمد قاسم النانوتوي .

كان الشيخ من نوادر العصر وأفراد الرجال صدقاً وإخلاصاَ ، وعلوّ همة

كان مربوعَ القامة ، كبير الهامة ، عريضَ الجبهة ، واسع العينين ، أسمر اللون ، جسيماً ، مفتول الذراعين ، قويَّ البنْية ، وقوراً مهيباً في غير عبوس أ و فظاظة ، طَلق الوجه دائم البِشْر ، كان يلتزم الملابس الثخينة من النسيج الوطني ، وكان شديد البغض للإِنجليز ، كشيخه محمود حسن ، شديد الحب والبغض في اللّه ، وكان قد راضَ نفسه على النوم والانتباه

مو!نا ابو الط!" آزا

كان العهد الذي بلغت فيه رشدي ، وبدأت فيه المطالعة والكتابة عهداً
طبق فيه صيت مولانا أبي الكلام آزاد الآفاق ، كان يسمع دويّه في سائر أنحاء
الهند ، لم يكن يتمتع بهذه المكنة في القلوب ، والتأثير على النفوس أديب ولا
شاعر ولا مؤلف اخر ، ولا أعرف في دنيا العلم والأدب ممن وهبهم الله الذوق
الأدبي والمعرفة العلمية شخصاً لم يتذوق بأدب مولانا أبي الكلام آَزاد ، ولم
يتأثر بخطابته المجلجلة ، ورشاقة قلمه الفياض ، وقوة تعبيره ، ولم يسحره
مادبجه قلمه من مقالات مثيرة في صحيفة الهلال ، التي عرفت بسحرها
الحلال .
نشأت في بيئة كانت على صلة بابي الكلام ازاد ، وعلى انسجام فكري معه
وكانت تشتمل على عدد من رجال تعرفوا على مولانا آزاد ورأوه عن كثب ، في
عهد شبابه الذي كان فيه مساعد مدير مجلة " الندوة " وكان يفيم في الدار
القديمة لندوة العلماء الواقعة في " خاتون منزل " وكان يقيم بذلك المكان

(1) ماخوذ من مجلة " ثقافة الهند ! العدد الخاص بأبي

أبي الكلام آزاد يعتبرونه شخصية مثالية منزهة عن كل عيب ، أو في نجوة من
مواضع النقد ، بل كانوا يلوحون إلى بعض المآخذ في تصرفه إلا أنهم كانوا
مجمعين على ذكائه وقوة ذاكرته الموهوبة من الله وغيرته ، وثقته بالنفس وتلك
خصال لم يكن يتنازع فيها اثنان ، ثم سمعت من العلامة السيد سليمان الندوي
في عدة مجالس عن ذكائه المفرط وصلاحيته للفهم ، هـادراكه للدقائق ، ونفاذ
ذهنه ، وقدرته على العرض والتعبير ، والاستفادة من معارفه ما لا يتوفر عادة .
وحدث مراراً ، أن العلامة شبلي النعماني طلب من تلامذته النبغاء الكتابة في
موضوع ، فحشد هؤلاء التلامذة المواد العلمية عن ذلك الموضوع بعد مطالعة
عميقة ، وعرض بعض هؤلاء التلامذة البارزون مقالاتهم ، لكنه لم يقتنع بها واعاد
بعض التلامذة مجهودهم للكتابة في الموضوع ، لكنهم أخفقوا في كل مرة ، وكان
مولانا ابي الكلام آزاد في زاوية يسبم ما يجري بين الأستاذ والتلاميذ ، فتفدم
واستفسر عما يريده العلامة شبلي النعماني ، فعرض العلامة شبلي النعماني الخطوط
العريضة في كلمة وجيزة ، وجلس مولانا أبي الكلام آزاد يكتب حسب هذه الخطوط
العريضة ، وعرض بعد فترة قصيرة مقاله ، ففال العلامة النعماني : هذا ما كنت أريده .
كانت هذه الموضوعات في بعض الأحيان دقيقة كلامية أو فلسفية ، وكان
يحسب كل من يشاهد هذا الشباب الذي كان يبرز على اقرانه عادة ، ويدهش
بمقالاته ، أنه سيخفق هذه المرة ويزول رعبه وهيبته على النفوس ،

صدرت تذكرة المجاهدين لصادقفور المعروفة " بتذكرة صادقة " بتأليف الشيخ
عبد الرحيم الصادقفوري أسيراندمان ، فقدم لها هذا الأديب الشاب ، والكاتب
المغمور ، محصي الدين أبو الكلام أحمد ، ويحمل تقديمه أسلوباً قديمأ
لا يعرف منه أن كاتبه سيظهر في المستقبل على سماء الهند العلمية والأدبية،
كهلال العيد ويبهر العيون ، رغم هذه الصلة العميقة لا أذكر قدومه إلى بيتي،
لأني كنت في التاسعة من عمري حينما توفي والدي رحمه اللّه فإذا قدم قبل

كانت زيارتي الأولى له كما أذكر اليوم في قاعة كنكا برشاد بلكناؤ في حفل
أقيم لبث دعوة الوحدة بين المسلمين والهنادك ، وكان من بين الحضور مولانا
محمد علي جوهر ، فحان وقت صلاة المغرب ، وكان الحفل يستمر،
والكلمات تلقى فنهض مولانا أبو الكلام آزاد رحمه اللّه وتوجه إلى الضاحية
الشمالية من القاعة ، حيث نظم المكان لأداء الصلاة ، فصلينا جميعاً خلفه،
فرايته ذلك الحين عن كثب لأول مرة فإذا هو فارع القامة ، اسيل الوجه ، أحمر
اللون ، بعينين نخلائين متوقدين وكأن عينيه تنطقان وتتكلمان تعلوه ابتسامة،
ويلمع على جبينه الاستبشار ، وتلمس فيه ملامج الذكاء والثقة بالنفس والحط
السعيد ، في ثياب بسيطة تشبه ثياب الأشراف والأعيان من دلهي ولكناؤ،
تتميز في الأناقة وحسن الاختيار والذوق ، وقلنسوته مرتفعة ، تمتاز بها
شخصيته المتميزة فهذا هو مولانا ابو الكلام آزاد رحمه اللّه ، الذي لقيته لأول
مرة ، وأعجبت به ، ولا تزال في ذاكرتي بعض كلماته التي ألقاها في ذلك
الحفل ، استشهد برواية سنن ابي داود وهو يبين وجهة نظر الإسلام عن الأخوة
الإنسانية ، والمساواة الإنسانية ، فقال : " سمع رسول اللّه ع!يم في آخر الليل
عندما كان يناجي ربه ، ويدعو 5 ، ويتضرع إليه ، أنا شهيد ان العباد كلهم
إخوة " .

لأهميته وقيمته العلمية ، وفي هذا العهد أمسكت الفلم ، وبدأت فيه بالكتابة،
وتمكنت من تعبير ما يدور بخلدي ، فكانت مفالات الهلال تدور في ذلك
الوقت حول حروب أدرنا نوبل وسمرنا أو بلقان ، وطرابلس الدامية ، وحول
بطولة أنور باشا ، ومآثره الحربية وحادثة مسجد كانفور المؤلمة ، فقرأت!ا
واهتززت بها ، وكنت أعتبرها على ذروة من الخطابة وأعلى نموذج للبلاغة،
والقدرة البيانية ، ولا أنس وصف مولانا أبو الكلام آزاد بقلمه السيال لمنظر
قدوم أنور باشا في طرابلس المثخنة بالجروح ، وتفقده لجثث الشهداء
وأشلائهم الممزعة ، وما كان لهذه المناظر من تأثير على قلبه وذهنه.
هذا المشهد المقدس للعنادل ، وقدوم رجل مجاهد جليل عالي الهمة،
رابط الجأش ، خافق القلب ، مثل أنور باشا ، وقلم مولانا آزاد النازل
كالشلال ، كل ذلك جعله مؤثراً كالصاعفة من حيث أنه لم يستطع أحد أ ن
يتمالك عواطفه ، ففاضت العيون ، وكان من حقها أن تفيض ، والتهبت النار

ترك مولانا ازاد هذا الأسلوب بعد مدة ، وحدث اعتدال في تدفق الألفاظ
ووفرتها ودخلت فيها السهولة والبساطة ، والسلاسة والعذوبة وخير نموذج من
كلامه الساذج خطبته الر"لاسية التي كان ألقاها في المؤتمر

البحر الهادىء ويعود عهد شبابه ، وعهد صحيفة الهلال الساحر.
طبع ونشر المجلد الأول ثم الثاني من تفسيره ترجمان القرآن وكنت أشتغل
آنذاك بالتدريس في دار العلوم ندوة العلماء ، وكان المتفسير موضوعي
الخاص ، فقرأت هذين المجلدين ، وانتفعت بهما كثيراً ، إنه ذكر في تفسير
سورة التوبة قصة الأصحاب الثلاثة الذين تخلفوا في غزوة تبوك ، وذكر هذه
القصة على لسان كعب بن مالك الذي كان من بينهم ، وتخلف أيضاً عن
الحضور في الغزوة ، ونفخ فيها الروح بقلمه الساحر مع رعاية أصول
الترجمة ، وصؤر صراعهم الذهني ، والاختبار الذي ابتلوا به ووفاءهم الصادق
للإسلام . وحب الرسول ع!يم ، ونقل دقات قلوبهم إلى القارىء بالفاظه،
ورصّعه بالاشعار العربية والفارسية ذات رونق وبهاء كاللآلىء الثمينة اللامعة،
فبذلك يستحق هذا البيان ان ينال مكاناً عالياً في الادب الكلاسيكي العالمي
فضلاً عن الادب الأردي .
وبلغ قلمه الساحر ذروة الكمال في تمثيل استفامة سيدنا يوسف وسيدنا
يعقوب عليهما السلام ، وتصوير آلامهما وأحزانهما ، وعرض سلوكهما
وحياتهما رغم أن هذا الموضوع موضوع التفسير ، ويتطلب غاية من الحيطة
والحذر ، لكن الاديب والأديب الموهوب ، والذكي النادر لا ينتهي عن فتح
مغالق جديدة وبيان نكت غريبة ، هـاشارات لطيفة ، إلى مواضع البحث
والنظر ، وعن إبداء براعته الكتابية.
ذكر مولانا آزاد في هذ 5 القصة أيضأ ، وفي تعليقاته التفسيرية نكت

وزراء ولاية أترا براديش فذهبت إليه مع بعض أصدقائي ، واجتمعنا به،
وعرفته على نفسي ، فذكر بعض الكتب التي ألفت حول ترجمة الإمام السيد
أحمد بن عرفان الشهيد نظراً إلى صلتي به ، وكنت ايضاً مشغولًا بتأليف سيرة
السيد ، أحمد الشهيد في تلك الأيام ، وهو أول كتاب ألفته ، وكان معي بعض
صفحات من أصول الكتاب ، وكنت أهدف بهذا اللقاء أن أطلب منه أن يقدم
لكتابي فقبل عرضي ، ووعد بأن يقدم له.
وأعربت خلال حديثي معه عن أمنية لي ، وهي أنني أريد أن أنقل بعض
أجزاء تفسيرة إلى اللغة العربية ، فسمج لي به ، وبينما كان يدور الحديث،
دخل بعض الوزراء في حكومة ولاية أترا براديش فلم يبد من ملامج وجهه أنه

ثم أتيحت لي فرصة اللقاء الثالث عندما زار لكناؤ مرة ثانية في عهد وزارة
المؤتمر الوطني ، وأقام في منزل السيد محمد إبراهيم ، وزير المواصلات في
ولاية أترا براديش ولعله كان في عام 1939 م وكنت ارسلت إليه رسالة وذكرته
فيها بما وعد به من تقديم كتابي ، ولكني لم أتلق رداً على

ووصلت إلى مقر مولانا آَزاد ، وودت أن الاقيه لكن أمِينَهُ السيد أجمل
خان قال لي : إنه مشغول جداً في ذلك الوقت ولا يمكن لقاءه ، فانتظرت ،

الحديث ، فجاء ذكر السيد أحمد الشهيد ، فأخذ ينوه به ، ويبدي
إعجابه به
بلذة ، لأن جده الكريم كان من أتباع السيد أحمد بن عرفان الشهيد
ومحبيه،
فلما علم انتمائي إليه وصلتي الخاصة به وكتابي الذي الفت حوله
سرّ كثيراً ،
وأعرب عن إعجابه ودخل على الفور ، وأخبر مولانا آزاد بقدومي ،
فما لبث
أن طلبني كأنه كان مني على ميعاد ، ولما ذكرت له رسالتي التي
أرسلتها إليه،
قال : إنها لم تصل إليّ ، وقال إنه مستعد ليكتب تقديمه الآن ، لكن
لم ألج
عليه ومنعته كثرة اشتغاله ، ومسؤولياته التي لم تزل تتصاعد وتزداد
من أ ن
يكتب ويرسله إليّ.
تحدث مولانا آزاد في هذا اللقاء عن ندوة العلماء ، وعن العلامة
شبلي
النعماني وحركة ندوة العلماء ، وأهدافها واهميتها ، ونفعها طويلاً ،
ذكر أيضاً
أن هذه الحركة لم تنجح كما كان يتوقع لأنه لم يتفرغ لها وينقطع
إليها بعد
العلامة شبلي النعماني أحد.
وكان اللقاء الرابع به في عام 946 أم في فندق كارلتن لما قدم
مولانا آزاد
إلى لكناؤ في صدد تأليف الوزارة ، وقررت أنا وأحبائي وزملائي
الشيخ عمران
خان الندوي والشيخ محمد أويس الندوي ، ولعل الأستاذين ، عبد
السلام
القدوائي الندوي ومحمد ناظم الندوي ، كانا من بيننا في هذا اللقاء ،
أ ن

وتكررت زيارات مولانا آزاد للكناؤ في تلك الأيام ، فاجتمع

ندوة العلماء، وتحدثوا معه من حيث أنه لم يستطع أن يشعر رغم ذكائه المفرط
بأن الأمير مولانا حبيب الرحمن الشيرواني الذي كان من أحب اصدقائه يوجد
في لكناؤ فحسب بأنه في ندوة العلماء في ذلك الوقت ، فأتى إلى الدار العلوم
التابعة لندوة العلماء شوقاً إلى لفائه ، وكنت ألفي دروسي في ذلك الوقت في
أحد الصفوف ، فلما علمت بفدومه ، أتيت إليه ، فوجدته في محراب المسجد
يلقي كلمته والعلامة السيد سليمان الندوي بجانبه ، والطلبة بين يديه ، فذكر
مولانا آَزاد مؤامرة الطلاب التي أصبج فريستها بلطف ليس فيه مرارة الامتعاض
والاستنكار ، وإنما هو شكوى الكبار المليء بالحب والإشفاق ، وكذلك شرف
مولانا آزاد نادي الطلبة (جمعية الإصلاح) بفدومه المبارك مرة على دعوة من
الطلاب لوقت قصير في الليل ، وكان معه الشيخ عبد الفادر القصوري.
ووصل مولانا إلى لكناؤ في شهر فبراير سنة 947 ام وكان سمفورنا ننذ.
وزير التربية في الولاية ، واقترحت الحكومة إعادة ترتيب المناهج المتبعة في
المدارس العربية ، وألفى بهذ 5 المناسبة كلمة علمية قيمة حول تطوير المنهج
الدراسي ، وعناصر 5 الرئيسية امام جمع من العلماء والمسؤولين والمشرفين
على المدارس العربية في قاعة المجلس التشريعي للولاية ، وكان يبدو منها أنه

وفي عام 951 ام التقيت بمولانا آزاد في مطار الفاهرة عندما كان مولانا
آزاد في رحلة إلى أوربا لأول مرة بعد توليه منصب وزير التربية في حكومة
الهند المركزية وكانت طائرة مولانا آزاد تمر بالقاهرة بالليل ، وتقف لبعض
الوقت وطلب مني بعض أصدقائي الهندوس أن أكون معهم في استقبالط مولانا
آزاد ، لائه يزور القاهرة لاولط مرة كوزير للهند المستقلة ، وما كان هؤلاء
الهنود يعرفون صلتي الخاصة بمولانا ازاد ، ولم يوجهوا إليئ الدعوة للاشتراك
في، الاستقبالط إلا كفرد من الجالية الهندية في الفاهرة ، فقبلت هذ 5 الدعوة
بسرور بالغ ، وفي تلك الائام حدث أن زرت السفارة الهندية لبعض أمور طارئة
فلم أجد من المسؤولين فيها تجاوباً ولم يتلقوني تلقياً لائقاً بي وبهم وشعرت
بوحشة في سفارة بلدي .
وصلت انا وصديقي مولانا عبيد الله البلياوي مطار الماظة ، وهبطت
الطائرة في اخر الليل ، وأتينا بمولانا آَزاد في صورة موكب إلى مكان لشرب
الشاي ، وكان إرهاق السفر بادياً في وجهه ، وجعل الصحفيون الادكياء
يطرحون عليه الاشئلة بالعربية حيناً ، وبالإنجليزية حيناًاخر ، ويرد مولانا آزاد
عليها بطمأنينة دون أن يخوض في تفاصيلها ، ويقدم نموذجاً رائعاً لسرعة
خاطره وحضور بديهته.

النظريات الجديدة ، والأفكار الحديثة تبقى على حالها ، ولا تنقضها نظريات
أحدث منها ، وأدان أيضأ في هذا الصدد تفسير طنطاوي جوهري الذي اعتبر
تاكبر نموذج للتفسير بهذا الطراز ، وأدخلت فيه الاكتشافات الجديدة بسخاء
وخاطبني مولانا آَزاد قليلاً ، كنت علمت أنك هنا ، فما هي البلدان التي
زرتها هل قصت بزيارة اليمن ، ثم قال : إن والدك رحمه النّه كان يقول : إن في
(تونك) تتوفر معلومات قيمة نافعة عن الإمام السيد احمد بن عرفان الشهيد،
فهل راجعت تلك الكتب.
وخلال ذلك لم يزل يلفت المسؤولون في السفارة انتباه مولانا آَزاد إليهم،
وكانوا يريدون أن يتحدث مولانا آَزاد مع كل من حضر من

تشرفت بلقائه ثلاث مرات بعد ذلك في عهد وزارته مرة لما ذهبت إلى
دلهي على دعوة من شيخ الإسلام حسين أحمد المدني رحمه اللّه وذلك لأنه
كان يريد حفموري عندما يلفت نظر مولانا آَزاد إلى طبع كتاب (نزهة
الخواطر) الذي كانت دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد نشرت خمس
مجلدات منه ، ثم توقف طبع بقية أجزائه بعد العملية العسكرية ضد حيدر آباد.
كان هذا اللقاء في اجتماع اللجنة العاملة لجمعية العلماء ، فلما دخل
مولانا آَزاد عرفه بي مولانا حسين أحمد المدني ، وذكر له كتاب

رمضان ، فتحدث مولانا ازاد معه باللغة العربية وسأله عن منظمة (ماشومي)
في إندونيسيا ، بالإيجاز .
أما اللقاء الثالث فكان في منزله في دلهي الجديدة ، وكان الشيخ عمران
خان الندوي معي وكنا حضرنا منزله لقضية من قضايا ندوة العلماء فعني بها
عناية كبيرة ، ووجه إلينا نصائح نافعة قيمة ، وتحقق الأمر بسرعة غريبة.
يعتبر ذلك سوء حظ المسلمين ، او مقتضى طبيعة مولانا آزاد المضطربة
المتحركة الفذة ، وشخصيته العبفرية ، أن مولانا ازاد قد أوقف عمل إيقاظ
الوعي الفكري والسياسي الذي كان بدأه في بداية إصدار صحيفة الهلال ،
والذي كان يهدف إلى إقامة الإمارة الشرعية ، ونفخ الروح في الفيادة الدينية،
وتربية حزب الله ، تربية خلقية ، سياسية فكرية بعد أن كانت معطلة من مدة
طويلة فجعلت الحياة تعود إليها بندائه ودعوته ، وجعلت طبقة من المثقفين من
اصحاب الغيرة والحمية الدينية تلفبه بإمام الهند بعد أن أقروا إمارته ، وبايعوا
على يديه ، ولعل مولانا آزاد انفعل انفعالًا شديداً لخيبة حركة

كان مولانا آزاد ، ذا طبيعة قلفة مضطربة ، وعلى ذروة عالية من الكماك
العلمي والفكري ، فلم يكن ليقتنع بالدراسة الهادئة والعزلة في الزاوية التي
ورثها من والده ، فآثر المنبر الموقر للحزب الوطني واختير

ولم يكن أحد يجرؤ على ان يلفت نظره إلى ما دبجه يراعه في ترجمة
الشيخ
إسماعيل الشهيد على صفحات التذكرة ، وقد اوضح فيها مولانا ازاد بفلمه
القوى البليغ ، وقدرته الكتابية الفائفة ، ماهي الصفات التي يجب أن تتوفر
في
الإمام والمجدد ، وكيف يستغني الإمام والمجدد عن البيئة والوسائل وكيف
تتهيأ له هذه الوسائل ، وتخضع له كثمرة لجهوده المخلصة ، ويسير معه
الزمن
ويولد الربيع من الخريف.
يشكو كثير من كبار الشخصيات ان الوقت لا يسايرهم وأن الوسائل لا
تتوفر لديهم ، ولكن ينهض صاحب العزيمة ، وفاتح العصر ، ويقول ، إ ن
الوقت إذا لم يسر معي ، فإني سأسيره معي ، والوسائل إذا لم تتوفر ،
فإني
سأهيء الوسائل وأضعها بيدي ، وأن الارض إذا لم توافقني ولم تلائمني
الظروف ، فلتنزل السماء وتساعدني . وإذا لم يهيأ لي الرجال ،
ويناصروني،
فستنصرني الملائكة ، وإذا أصبحت ألسنة الرجال خرساء ، فستصرخ
الأحجار
وتهتف فلا حرج إذا لم يكن معي أحد ، فإن الاشجار تسير معي ، وإذا كان
الأعداء أشداء وعددهم ضخماً فإن الشهب ، وبرق السحب والنجوم
والكواكب
لا تعد ولا تحصى ، وسيسخرها اللّه لي ، ومهما تكن العقبات والمشاكل
فإن
العصامي ، صاحب العزيمة والعظائم ، ليس ابن الوقت ، ولا عبد العصر،
ولا صنيع الإنسان ، فيخدم الزمان ، ويخضع له ويسلم رقابه له ، إن الرجل
الذي خلق له الزمان ، وسخر له الكون ، يرعى الزمان ، ويربي العصر ،
إنه
لا ينتظر لأوامر الزمان بل ينتظر الزمان لأوامره ، إنه لا يلقي نظرته على
الزمان
ليختار منه ما يريد ، ويقتني منه ثمراته هـانما هو يلقي نظرته على الزمان
ليعطيه
ما ينقصه ويجبر كسره .
قد كتب عن مولانا أبو الكلام آزاد كثيراً ، ولا يزال يكتب ، ويعرض كل
ناحية من نواحي حياته وكماله ، وقيا! عن نظرياته السياسية كثيراً جدا، ولا
يزال

وما ذكر كتاب ترجمته من رحلاته وجولاته ، وما حدث خلالها من الوقائع
فيه مجال للخلاف والجدال ، والبحث والتحقيق في تعيين زمنها وثبتها
ا 3 لتاريخي.
لكن قوة ذاكرته المحيرة للعقول ، وذكائه المفرط النادر ، وسرعة خاطره ،
وأدبه ، وأسلوبه الخاص ، الذي كان لا يتركه في لحظة من اللحظات ، وفي
مكان من الأمكنة ، وصلاحيته الغريبة للاستفادة من المطالعة والعلوم
والمعارف ، اكثر فأكثر ، وبصيرته السياسية ، وبعد نظره ، وسداد فكره ،
ورسوخه في نظرياته ، وثباته في عقيدته ، وعدم مبالاته بالمدح والنقد والإدانة

6نن-

(1) نقله إلى العربية الأستاذ جعفر مسعود

الشيحغ لمحبر التها 5 و

في أواخر ذي القعدة 358 اهـ(ديسمبر 1939 م) سافرنا - ونحن ثلاثة
أصدقاء زملاء - في رحلةٍ استطلاعية رائدة إلى المراكز الدينية والتربوية في
الهند ، لنستفيد من تجاربها ومناهج عملها ، ووصلنا إلى سَهَارنفور ، وتوجهنا
منها إلى رائيبور ، مشينا خمسة أميال على الأقدام حتى وصلنا إلى زاوية الشيخ
عبد الفادر الرائيبوري ، فلما وصلنا إليه رَحَّب بنا ترحيباً حاراً واحتفى بنا،
بدون سابق معرفة ، حفاوةً بالغة ، كأنه كان منَا على ميعاد .
والشيخ عبدالفادر الرائيبوري من كبار المربين والعلماء الربانيين،
المطلعين البصيرين ، من أصحاب الفراسة والذكاء والانفتاح الذهني ، الذين
يجمعون بين العلم والعمل ، والتربية والتزكية ، وهم من أولئك الفائدين
والعلماء الصالحين الذين يحتاج إليهم المسلمون ،بل قادتهم في كل زمان
للقيادة والتوجيه ، والاستفادة من تجاربهم وطيب أنفاسهم ، وقد رأينا في
اطلاع الشيخ وبصره بأوضاع العصر وظروفه وبصيرته السياسية وفراسته
الإيمانية وجمعه بين العبادة والإنابة ، والجانب العملي المشرق نموذجاً طيباً

ظرف ربع قرن من الزمان ، والحركات والمنظمات الإسلامية استفادةً علميةً
كبيرة ، جددت قصص علماء السلف والمجاهدين من جماعة الإمام السيد
احمد الشهيد وأصحابه ورفقته التي تثير الإيمان والحنان .
اقتضت حكمة اللّه أن يقضيَ شيخنا عبدالقادر الرائيبوري (المتوفى 1382 هـ- 1962 م ! أكبرَ شطر من حياته - بعد أن بلغ أشدَّه - في بيئاتِ متنوعة
وطبقات مختلفة من المسلمين ، وبين أحزاب دينية تختلف طرائقُها ومناهجُ
تفكيرها . إنه كان تهب فيه نفحة من نفحات الفكر المتحرر من الخارج
أحياناَ ، فتحدث اضطراباَ وقلقاَ في طبعه الذكي الح!اس الهادىء الساكن ، إنه
عاش في المراكز العلمية والدينية المختلفة في الهند ، وشاهد تنافس العلماء
في المناصب والجاه ، وفتاوى التكفير والتفسيق ، وإعجابَ أهل العلم
بعلمهم ، وكثرة الشقاق والجدال ، والقيل والفال ، وتوغل المدرسين في
المعقول ، ورغبة المصلحين عن إصلاح الباطن ، واستئصال الرذائل والأمراض النفسية.
نشأت خلال ذلك حركات مختلفة تصبو إلى إصلاح المسلمين
وانهاضهم ، ولكنها هبت وزمجرت كالعاصفة ، وهدأت وتلاشت

إنه رأى - خلال إقامته في رائيبور - حركة الخلافة في أوج شوكتها وريعان
شبابها ، وكانت أقوى وأوسع وأشمل حركة شبه دينية وشبه سياسية ، عرفتها
الهند المعاصرة ، ولم يرها عن قريب فحسب ، بل فطن إلى أسرارثالا،
ودخائل ذاتها ، واطلع على مشم وعاتها ومخططاتها السرية ، ولكنه شاهد اثر

وقلة الطاعة والنظام في الأعضاء العاملين والمتطوعين ، وعدم الانقياد والثفة
في عامة المسلمين ، وندرة الأمانة في المسؤولين ، وسمع شكاوى الناس
حول هذه الامور ، وأحمعنَ تذمُّرهم من هذه الأوضاع ، حتى رجع من كل ذلك ، نتيجة حفظها في مستودع فكره ، أن الفوضى في الخارج هي نتيجة
الفوضى في الداخل والفراغ فيه ، هـالى ذلك أشار محمد إقبال في

" الصفوف معوجة مثشقة ، والقلوبُ خاويةٌ حائرة ، والسجدةُ خامدة
جامدة ، لاحرارةَ فيها ولا شوق ، ولا عجب ! ففد انطفأت شعلة القلب
وخمدت جمرة الفؤاد " .
إنه عَرَف أن ضعف القيادة هو السرُ الوحيد وراء كل هذا الاضطراب
والفوضى بين الناس ، وأن السرَ في ضعف الحياة وتضعضعها ، هو عدم وجود
التربية لدى القادة والزعماء ، وجمود القلب والعاطفة.
إن القادة قلب الجماهير ، ولكنَّ قلوب هؤلاء القادة بنفسها عدلت عن
مكانها المفرر المرسوم ، وامتلأت بحب الدثيا وحب الجاه ، بدلًا من الإيمان
راليقين ، والحب والعاطفة.
ورأى بعينيه ، أنَّ اهل الطرق والمشايخ في بلدة بنجاب ، أقاموا أسواقاً

إنه سمع بلاغة الخطباء الساحرة ، وخطبهم الرنانة ، واطّلع على أدب
الكُتَاب ، ووفرة المعلوماب في المؤلفات ، وبراعة أصحاب العلم والبيان ،
وعاد منه بانطباع واحد ، وهو أنَّ كل ذلك أصيب بفقر الإخلاص ، والضعف

خطابة دينية ساحرة ، وصلت إلى نقطة كمالها ، ولكنها لم
تستطع أن توقظَ
ركب الحياة الوسنان السكران من غفوته أو تعيده إلى سواء
السبيل.
أنشد الشاعر الكبير (جكر مراد آَبادي) مرة ، إحدى قصائده
الرائعة
الرائقة أمام الشيخ ، فلما وصل إلى هذا البيت استحسنه الشيخ
كثيرأ ، لأنه
يمثّل طبقة الوعاظ والخطباء في الهند أجمل تصوير:
" ما أروعَ كلماتِ الخطيب ، وما اجملَ تعبيره ، ولكنني لا اجد
في عينيه
بريقَ الحب ، ولا أقرأ في وجهه نورَ الإيمان ، وسيماء الحب
والحنان " .
إنَّ دراسته الواسعة العميقة لهذه الاوضاع ، وتجاربَه الطويلة
في الحياة ،
انتهت به إلى نتيجةٍ أصبحت فيما بعد يقيناً وعقيدة ، وهي أنَّ
مرد كل هذا

إنَّ هذا الإخلاص والحب يحمي مَواتَ الأعمال ، وينفخ الروح في
الجهود
الإصلاحية والكفاح الإسلامي ، ويملؤه قوةً وأملاً ونشاطاً وعزاَ ،
فترجع
الروح إلى العبادات ، ويرجع النور إلى العلم ، وترجع القوة
والبركة إلى
التعليم والتدريس ، ويرجع التأثير إلى الخطابة و ا ا!عظ ،
ويرجع القبول والقوة
إلى الدعوة والإصلاح ، ويرجع الاثر المسلوب والجمال
المحجوب إلى
الكتابة والتأليف ، ويعود التوفيق والنجاح وحسن العاقبة إلى
الجهود السياسية
والتنظيمية ، ويعود الوئام والانسجام إلى الأواصر والعلاقات ،

الأخلاق فلا تُتصوَّر الحياة متزنة ناجحة بغيرها ، ولا تفلح محاولة اجتماعية
بدونها ، ف!ن يرى أنَ من أهم أغراض هذه الأذكار والأشغال التي توارثها القوم
من صحبة الشيوخ ، والبرياضات والمجاهدات ، تقويمَ الأخلاق صمازالةَ
الرذائل ، وبعبارةٍ أصح : تزكية النفس ، فلا تكفي الأذكار والأشغال مطلقاً،
وإنما إصلاح الأخلاق واجب يلزم على كل سالك.
إنه كان ينطر قبل كل شيءً إلى حياة الصحابة ، رضي الله عنهم،
وجهودهم العظيمة الخالدة ، التي انتشر بها الإسلام في نصف المعمورة في
نصف قرن تقريباَ ، وهبت ريح الإيمان في كل مكان ، فقد درس حياتهم
وسيرتهم دراسةَ تعضقٍ ووعي ، وكازت مجالسه دائماً تفوحُ بذكرهم وعاطِر
أحاديثهم.
وكان له اطلاع واسع على حركة المجاهد الكبير السيد احمد

كان الشيخ عبد القادر واقعياَ في طبيعته يحب العمل والاجتهاد ، ويراعي
التطورات وتغيرات العصر ، وكان بعيداً عن الإفراط والتفريط ، وبعدَ الخيال
الناتج عن الذكاء المفرط ، والمجاهدة المضنية ، والرجائية (المغالاة في
الرجاء والتفاؤل) ، فكان ذهنه متوازناً للغاية ، وعملياً ، يبني أفكاره على
دراسة الحقائق ومتابعة الأحداث -مهما تكن مُرَّةً ومشوِّشةً للذهن - ، وكان
لا يغفل عن جوانب الضعف والمواضع المظلمة ، وكان له نظر

الدينية المتحفظة التي كان ينتمي إليها ، فكان من النظام المرسوم المتبع في
رائيبور قراءة كتاب من الكتب المفيدة ، والاطلاع على الصحف اليومية والمقالات المهمة ، واخبار الهند والعالم الإسلامي ، لا يرى في ذلك إخلالًا بما قامت له هذه القرية الهادئة والزاوية المنعزلة من الاشتغْال باللّه والانصراف
عن الدنيا وشواغلها.
كان الشيخ الرائيبوري يؤكد ضرورةَ تقدم البلدان الإسلامية وتطورها اقتصادياً ، واستفرارها سياسياً ، واعتمادها ذاتياً ، ويصرف اهتمام المثقفين والمسؤولين وأصحاب النفوذ والسلطة الذين كانوا يشتركون في مجالسه ا و
يلتقون به (وخاصة خلال زيارته لباكستان) لذلك ، وكان ذلك موضوعه المحبب كلما ضئمَ مجلسهُ رجالًا من هذه الطبقة ، وقد أشار مرةً إلى إهمال في
هذا الصدد في أحد مجالسه ، ففال :
" إنَ المسلمين انغمسوا في أشغالهم وأصابهم النعاس فلا يفيقون ، ففد كان المسلمون نائمين نوماً عميقاً لما كانت أوروبة متيقظة ، فأعذَت كل نوع
من المعدات الحربية ، وأهملها المسلمون ، وكيف يمكن شنّ حربٍ بدون سلاح ، فلو تحوّلت جميع الدول المسلمة إلى دول إسلامية حقيقية ، فإنها لا تستطيع أن تتحمل نفقات حربِ يوآ واحد " .
وكان الاهتمام بالقضايا الإسلامية ، وهئم الإسلام ، والتفكير في مسائل المسلمين والقلق لهم ، طبيعته الثانية ، ومحور تفكيره ، ومحرك نظام حياته،
ولم يكن له وقت مخصص ولا عهد أو مرحلة حياة خاصة ، وإنما سَرَى هذا الهم وامتزج بروحه وفكره ، فكان لا يفارقه ، ولا ينفصل عنه ، وكأئه اندمج بدقات قلبه ، أو سرى في دمه.
إنه كان ينتمي إلى تلك الجماعة الربانية التي لا تصرفها أشغالها والعكوف على الذكر والتسبيج والانقطاع إلى اللّه ، عن تَتَبُّع حال المسلمين والتفكير في
مسائلهم ، ولا تجعلها في غفلة عن قضايا المسلمين لحظة ، بل تزيدها اهتماماً
بها ، وتحدث في قلوبها حرقةً واضطراباً زائداً لها ، ويتحول هذا الهم أحياناً إلى دموع ، ترسلها عيون رجالها فتتضرع إلى الله ، وتبتهل لنصرة المسلمين

ولعزتهم وسعادتهم ، وأحياناً تغلبهم الشكوى على حال المسلمين ، والاعتراف
بتفصيرهم وتهاونهم في الإسلام ، فيتوخهون إلى تذكيرهم وتنبيههم وإنذارهم،
فيرسلون الدموع في خلواتهم ومناجاتهم مع اللّه ، وفي محافلهم ومجالسهم
يحرك هذا الهمّ السنَتهم للتنبيه والإنذار والتوصية ، فلا يفارقهم هذا الهم.
وقد بلغ هذا الهم ذروته في عام (947 ام) عندما هبت عاصفة هوجاء في
شبه القارة الهندية ، وبدأ المسلمون يبحثون عن ملجأ لهم نازحين عن هذا
الوطن الذي رواه أسلافهم بدمائهم ، فكان كالسليم الذي لا يهدأ له بال ، أ و
كأنه يتقلب على أحرّ من جمر.
شاهد الشيخ الرائيبوري مراحل نشوء القاديانية عن كثب ، فقد كانت له
صلات معرفة قريبة بمنشىء هذا المذهب ، المرزا غلام أحمد ، والحكيم
نور الدين خليفته ، وقادة هذا المذهب الآَخرين ، فكان الشيخ خبيراً بأهداف
هذه الحركة ومنطلقها ، والظروف التي نشأت فيها واتجاهاتها ، وعلى أساس
هذه المعرفة الشخصية بزعمائها ، وأهدافها وبواعثها ، كان الشيخ الرائيبوري
واثقاً بأنَّ هذه الحركة وسيلة للتخريب وهدمِ الإسلام ، وقد زاد كراهيتَه ونفورَه
من هذه الحركة ، حبُّ الرسول ع!جيه الذي كان يغمر قلبه ، وما كان يحمل من
عواطف الهيام بذات الرسول مج!م! ، والإيمان العميق بأنه خاتم النبيين وإمام
الأنبياء والمرسلين ، فكان يعتبر كل من يدّعي النبوة ، نداً للنبوة المحمدية
ومعانداً لها ، فكان يغار على النبوة المحمدية وذات الرسول ع!يم ، ويحنُّ إليه
كما يحن ويغار مُتَيَّمٌ إلى حبيبه ، وخادم وفيٌّ إلى سيده .
كانت هذه العاطفة والإيمان والصلة بذات الرسول ع!جيه ، هي التي دفعت

(1) في مقدمتهم وعلى راسهم الخطيب المصقع السيد عطاء

تحفظ ختم نبوت " والعلماء الآخرين ، وكان ذلك حديث مجالسه ، وخدمة
دينية جليلة في ذلك العصر ، وكان الإسهام في حركة المقاومة للقاديانية ا و
الحديث عنه ، وسيلة للتقرب اليه والتحتب لديه ، وهو الذي أمر كاتب هذه
السطور بتاليف كتاب بالعربية في التعريف بالقاديانية والرد عليها ، فكان تأليف
كتابي " القادياني والقاديانية " ونقل إلى عِذة لغات .
هذه جوانب من فهم الإسلام الفهم الصحيح الشامل ، والاهتمام بها يؤثر
في حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية ، والمرونة الخلقية والفكرية،
الجوانب التي لا تُتوقع غالياَ مق مُرَبِ روحانيئ يعيش في عزلة عن الخِصَم
السياسي والمجتمع الهائج المتطور ، عاكفاَ على العبادة والدعاء للمسلمين،
وتربية القاصدين لإصلاح اخلاقهم وتزكية نفوسهم.
!ما مكارم الأحلاق ، ودقائق ا!سلوك الإسلامي الإتسسا أثي ، والرهد قي
الدنيا ، والاستهانة يالزخارف والمظاهر ، وعدم الاكتراث بثناء الناس
ونقدهم ، والاستغناء عق الناس - يما فيه! مق ولاة الأْمور وحكام البلاد وكبار
الاثرياء والوجهاء- ، والنظر إلى أكبر مقدار من المال كالحصاةِ والرمل،
والتوكل على الله ، وتكقل اللّه بجميع حاجاته بطرق تحئر

(١) صدرت للكتاب عدة طبعات في الهند وباكستان ، والكتاب في اردو ويقع في 352

الذات " الذي لم ارَ له نظيراَ ولا أعلم له مثيلاَ " وَفَوْقَ !ل ذِى عِلْمٍ عَلِيوٌ "
أ يوسف : 176 .
والثانية : سعة أفقه ورحابة صدره وواقعيته التي لم أشاهدها في كبار العاملين في مجالات الحياة ، والعلماء المحنكين والقادة السياسيين الذين جربوا الحياة حلوها ومرها . وقد ساعدتني طبيعتي الخاصة ، ودراستي المتنوعة وبيئتي التي نشأت فيها - فقد تربيت تربيةَ عقلية فكريةً عاطفية - على تقدير هذه المزايا التي خمنَ الله الشيخ بها ، ولم يكن لمثلي أن يتجاوب مع هذ 5 السعة في التفكير والرحابة في الصدر ، والاتصال بالعصر الذي يعيش فيه علماً وتفكيراَ وشعوراً وتألماً ، وهو الذي حثني على إتمام سلسلة " رجال الفكر والدعوة في الإسلام " ، وكان يحرّضني دائماً على ذلك ، وعلى تأليف الكتب المفيدة ، والاشتغال بالقضايا الإسلامية ، ونشر الثقافة والقيام بالدعوة .
والميزة الثالثة : العطف علي ، العطف الذي لا أستطيع أن أشبهه إلّا بعطف الأئم وحنانها.

I "

شيحغ الحريثَ
مولإنا محمد زكريا

وُلدَ في بيتٍ عريق في العلم والدين ، امتاز رجاله وأسلافه بعلو الهمّة،
وشدَةِ المجاهدة ، والتمسُّك بالدين والصلابة فيه ، والحرص على حفظ الفراَن
وقراءته وطلب العلوم الدينية ، أشهرهم في الأوّلين الشيخ العلامة المفتي إلهي
بخش الكاندهلوي (162 اهـ- 245 اهـ) ، تلميذ الشيخ عبد العزيز ولي الله
الدهلوي ، وخليفة المجاهد الشهير السيد أحمد الشهيد البريلوي ، وأشهرهم
في الاَخرين الداعي إلى الله المشهور في الاَفاق عمه الشيخ محمد إلياس بن
محمد إسماعيل الكاندهلوي صاحب دعوة " التبليغ " المشهورة (363 اهـ) ،
ودرس وجاهد في سبيل الله غير واحد من أفراد هذ 5 الأسرة ، وجد 5 الشيخ
محمد إسماعيل الكاندهلوي (315 اهـ) من الذين اتفقت الألسنة على
إخلاصه وصلاحه وزهد 5 .
وُلد لإِحدى عشرة ليلة خلت من رمضان في (كاندهلة) من أعمال مظفر
نكر ، سنة (315 اهـ) ، ورضع بلبان العلم والدين ، ونشأ في تصوّنٍ تام

الاختلاط بالناس ، وكان والده أشد اعتناءً بالتربية منه بالتعليم ، فقرأ مبادىء
اللغة الأردية والفارسية على عمه الشيخ محمد إلياس وحفظ القرآن .
ثم انتقل مع والد 5 سنة (1328 هـ) إلى " سهارنبور " ، المركز العلمي
الكبير ، وأقبلَ على العلم إقبالًا بالقلب والقالب ، واشتغل به بهمّةِ عالية وقلبِ
متفرّغ ، وبدأ درس الحديث على والد 5 وقد تهيأ تهيؤاَ كبيراَ ، ودعا في آخر
الدرس دعاءً طويلاَ ، ومن ذلك اليوم أصبح الحديث أكبرَ همه ، وغايةَ
رغبته ، وشعاراَ يعرف به وغلب على اسمه ، فاشتهر في آخر الأمر بشيخ
الحديث ، وقرأ الكتب الستة على والد 5 (غير سنن ابن ماجه) سنة
(1333 هـ) ، ثم قرأ صحيح البخاري وسنن الترمذي على العالِم الجليل
والمربي الكبير الشيخ (خيل أحمد السهارنبوري)(1) - والذي قدر الله أن يكون
أكبر خلفائه وناشر علومه ومفيض بركته - سنة (1334 هـ) ، وكان ذلك بطلب
واقتراح من الشيخ لما توسَّم فيه من النجابة وصدق الطلب وعلؤ الهمة ، ولما
بينه وبين والد 5 من الحب العميق والرباط الوثيق ، وقضى هذ 5 المدة في
عكوفِ كامل على الدراسة ، وفي إجهاد النفس وإرهاقها في

(1) اقرأ ترجمته في الجزء الثامن من " نزهة الخواطر " ، للعلامة السيد عبد الحي

بتصحيحه وإخراجه ، بإخلاص كامل ومجاهدة شديدة ، فنال بذلك رضا
شيخه ، وحاز ثقته ، حتى انتهى ذلك إلى ما انتهى إليه من خلافة ونيابة،

وعُيِّن مدرساَ في (مظاهر العلوم) ، التي كان يدرس فيها شيخه - ووالده من قبل - ، والتي تعفَم فيها ، وكان ذلك غرة محرم سنة (335 اهـ) وهو أصغر الأساتذة سناً واشبُّهم عمراً ، وكان راتبه زهيداً لا يُتَصور في هذا الزمان ، وأسند إليه تدريس كتب لا تسند عادة إلى أمثاله في العمر ، وفي أول
التدريس ، ولم يزل يتدرج فيها حتى أسند إليه تدريس بعض أجزاء من صحيح
البخاري في سنة (341 اهـ) ، وأثبت المدرس الشاب جدارته وقدرته على
التدريس حتى أصبح رئيسَ أساتذة هذه المدرسة ، وانتهت إليه رئاسة تدريس
الحديث أخيراً ، وكان اكثر اشتغاله بتدريس سنن أبي داود ، ويدرس النصف
الثاني من صحيح البخاري في آخر السنة ، وبعد وفاة الشيخ عبد اللطيف مدير
المدرسة ، آلَ إليه تدريس الجامع الصحيح بكامله ، فواظب عليه مدة طويلة
مع ضعف بصره وأمراضه الكثيرة ، ولم يعتذر عنه إلّا في أول السنة الدراسية
في سنة (388 اهـ) .
ولم يأخذ الشيخ محمد زكريا ما عُين له من المرتب ، ولضا اضطر بأمر شيخه إلى أن يأخذها مجموعة لينفقها في الحجة الثانية سنة (344 اهـ) التي
رافق فيها أستاذه ليكمل تأليف " بذل المجهود " ، أخذها الشيخ محمد زكريا
امتثالًا لأمر شيخه وتطييباً لخاطره ، ثم ردها إلى المدرسة بجملتها ، وهكذا كان اشتغاله بالتدريس طول هذه المدة تطوعاَ وتبرعاً ، لا يأخذ في ذلك أجراً
ولا يبغي جزاءَ ، وعُرِضت عليه مرتين وظيفتان للتدريس براتب كبير يزيد

وكانت سفرة (1344 هـ) للحج التي رافق فيها شيخه هي سفرة شيخه
الأخيرة ومبدأ سفره للآخرة ، فأكمل تأليف " بذل المجهود " ، وهنالك
حصلت له الإجازة العامة والخلافة المطلقة عن الشيخ خليل أحمد ، وفئي
هذه
الرحلة وأثناء إقامته في مدينة الرسول ، عليه افضل الصلاة والتسليم ، بدأ
في
تأليف كتاب " أوجز المسالك " في شرح الموطأ لإمام دار الهجرة الإمام
مالك ، وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، بدا في تأليفه في مسجد
الرسول
ع!يم ، وبارك اللّه في الكتابة والتأليف ، فأكمل في بضعة شهور ما لم
يكمله في
سنين عديدة في الهند ، ووصل في الشرح إلى أبواب الصلاة ، وظل
مشتغلاً به
بعد عودته إلى الهند ، تتخلله فترات طويلة حتى أكمله في ستة أجزاء كبار
.
وعاد إلى الهند مكرّماَ محبباً مثقلاَ بالأعباء ، قد شخصت إليه الأبصار ،
وارتفعت إليه الأصابع واتّجهت إليه القلوب ، فأقبل على التدريس
والتأليف !ء
بجميع همته.
وتوفي شيخه في الحجاز سنة (1436/ هـ) ، فآلت إليه المشيخة ورئاسة
تدريس الحديث ، والإشراف على تربية أصحابه ، والاتصال بمراكز العلم

وكان بيته ملتفى العلماء والطلبة والواردين والصادرين ، الذين
قد
يحملون اراء متناقضة ، وأذواقاً مختلفة ، وينتمون إلى مدارس
متباينة ، ورأيه
الحصيف ، وما رزقه الله من السداد والاكتصاد يؤلّف بين
القلوب المتنافرة
والآراء المتباينة ، ومائدته الواسعة تجمع كل صنف من الناس ،
وكل طبقةٍ من
الرجال ، وكل فرد من الجماعات المتنافسة ، وهو محافظ على
أوقاته
وأشغاله ، دؤوب في المطالعة والتأليف ، بَشُوش منبسط مع

ومناجاته ، وعن تربية المريدين ، وعن حضور حفلات التبليغ ، وعن وضع
كتب ورسائل في الإصلاح والدعوة إلى اللّه ، في أسلوب سهل يتنزل فيه إلى
مستوى العامة ، وقد تُلفيت هذه الرسائل بقَبول عام ، وانتفع بها خلق
لا يحصون ، وظهرت لها طبعات لم تتيسر إلّا لكتبٍ دينية معدودة في عصرنا،
هذا مع جذبةٍ قاهرةٍ إلى رفض جميع الاشغال والمسؤوليات ، والفرارِ من
الناس والتبتّل الكلي ، والتفرغ للعبادة والمناجاة والاشتغال مع اللّه ، ولا يقدر
على قهر هذا الدافع وجمحه بكل ما يشتّت القلب ويكدِّر صفاء النفس ، إلّا
كبار الأقوياء الذين أراد الله أن ينفع بنفوسهم وأنفاسهم ، وعلومهم ومؤلفا تهم.
وأوقاته مشغولةٌ بأمور نافعة موزعة بينها ، يحافظ عليها بكل دقة وشدة ،
فإذا صفَى الفجر جلس قليلأ ، مشغولًا بحزبه وورده ، ثم يخرج إلى بيته
ويجلس مع الناس ، ويتناول الشاي من غير فطور وأكل ، ويكثر عدد الناس
في هذا الوقت ، ثم يطلع إلى غرفة مطالعته فيشتغل بالمطالعةِ والتأليف ، ولا
يزوره في هذا الوقت إلّ 0 من يطلبه أو من يكون مستعجلاً من الضيوف ، وغرفته
هذه تذكر بالسلف المنقطعين إلى العلم والتاليف ، فهي ايةٌ في البساطة
وا اضفشف ، ومجرّدةٌ عن كل زينة وتكلف ، ويثقل عليه أن يزعجه

1) علمت في بعض زياراتي أن عدد الرسائل التي تأتيه من انحاء مختلفة يتراوح عددِها

وهو مربوعُ القامة ، جسيم وسيم ، أبيضُ اللون ، مُشْرَد!
بالحمرة ، كأنما
فُقىء في وجنتيه حمث الرمان ، كثير النشاط ، لا يعرف الكسل
، خفيف
الروح ، بشوش ودود ، كثير الدعابة مع الذين يأنسهم أو يحب
أن يؤنسهم،
سريعُ الدمعة ، جريج المقلة ، كلما ذُكِر شيء من أخبار الرسول
ع!يم ا و
الصحابة والأولياء ، وأُنشد بيت رقيق مرقَق فاضت عيناه ،
وتملكه البكاء ،
وهو يغالبه ويخفيه فتنم عليه الدموع ، وليس الحديث له صناعةً
وعلماً
فحسب ، بل هو ذوق وحال يعيش به ويعيش فيه.
وتوفي عمه الكبير الذي كان صِنْوَ أبيه واستاذه وصهره ، ومن
أحمت
الناس إليه ، واعظمهم حنواً عليه ، الشيخ محمد إلياس سنة (
363 اهـ) ،
فكان المصاب عظيماً ، والواقع كبيراً ، فتحمله في صبر
العظماء ، ثم توفي
ابن عمه الذ! كان عضد 5 الأيمن واحبَّ إليه من أولاد 5 ، والذ!
كانت حياته
كلها غناءً للمسلمين ، وذخراً للدين ، وكان فضله كبيراً على
المسلمين،
الشيخ محمد يوسف بن إلياس سنة (384 اهـ) ، فطئمَ الامر
وعالمَ
الخطب ، وكانت الخسارة فادحة ، وتتابعت المحن والحوادث ،
ومن قبل
توفي الشيخ حسين أحمد المدني سنة (377 اهـ) ، والشيخ
عبدالفادر
الرائيبور! سنة (382 اهـ) ، وكان شديدَ ال!حب لهما ، فتحمل

بعيدة وينتهزون فرصة مروره بهذه البلاد فينتفعون بصحبته ودعائه.
وسافر على جناح الشوق والحنين للمرة الخامسة إلى الحجاز في صفر (1389 هـ) ، وكانه مدفوع إلى ذلك لا يملك صبراً ولا قراراً ، وقد نذر صومَ
شهرين متتابعين شكراً على هذه النعمة ، وملازمة الوضوء إلا للاضطرار .
وقد اسعد اللّه كاتب هذه السطور بمرافقته في هذه الرحلة ، فرأى من علو
همته وقوة إرادته ، وشدة أدبه مع الرسول ﷺ ، وشدة حبه له ، وشوقه إليه،
ومن علو استعداده ومداركه ، وما أكرمه اللّه به في هذه المدة من القرب والاختصاص ، ماجدَد ذكرى الأقدمين ، وصدَق ماجاء في كتب أخبار السلف الصالحين ، فكان يجلس تجاه أقدام أفضل الرسل ساعات متواليات ،
مشغولًا مراقباً ، رغم ضعفه وكبر سنه وعلله الكثيرة ، لا يفتر ولا يشبع من ذلك ، وكان يتمنى البقاء في هذه البقعة المباركة ، وفي هذا الجوار الكريم حتى يفارق الدنيا ويلحق بربه ، ويعز عليه حديث العودة ، إلا انَ دعوات المسلمين ، وما يعانونه في الهند من مشاكل ومسائل تتطقَب بقاءه بجوارهم،
وما تعانيه المدارس الدينية من أزمات ومعضلات ، وما تحتاج إليه في الهند جماعة التبليغ من إرشاد وتوجيه ، وإشراف ومراقبة ، اضطرته إلى العودة ،
فعاد بسلامة اللّه في شهر ذي القعدة سنة (1389 هـ) ، ومرَ في طريقه من
باكستان فتهافت عليه الناس تهافت الفراش على النور ، والتفوا حوله في كل

ثم عاد إلى المدينة المنورة وجاور في جوار المسجد النبوي ، عاكفاً على
ألعبادة والذكر والإِملاء والإرشاد ، والتربية الروحية ، وتزكية النفوس ،
والحث والتشجيع على الدعوة إلى الدين ونشره ، والقيام بأعباء التعليم
الديني ، وفتح المدارس والتعاون على البر والتقوى ، لا شان له

وقد حقق اللّه أمنيته وأتاه الأجل المحتوم في آخر شهر رجب عام (402 اهـ) ، وشُيعت جنازته في جمعٍ عظيم ققما رآه الناس لعالِم أو كبير في
هذا البلد الكريم ، ودُفن بجوار شيخه المحدث الكبير (خليل أحمد السهارنبوري) في حظيرة أهل البيت الكرام ، غفر اللّه له ورفع درجاته.
هي ! !

ا الم ميو ا لفا!لى
الشعخ حبيب الرحمن

في سنة 343 اهـ(925 ام) شهدتُ حفلة لندوة العلماء با
لكهنؤ) ،
كنت يومئذ ابن عشر سنوات ، دخلت في قاعة دار العلوم وهي
مكتظة على
سعتها بالحاضرين ، واسترعى بصري رجل على منصة القاعة
لم أرَ مثله جمالًا
وبهاءً ، ووقاراً وحسن شارة ، ونظافة ملبس وأناقته ، يجمع بين
مهابة
العلماء ، وسراوة الأمراء ، وظرافة الأدباء ، كأنه من بفايا
الملوك الفضلاء في
إحدى الدول الإسلامية ، وما لبثت أن علمت أنه رئيس الحفلة -
النواب صدر
يار جنك مولانا حبيب الرحمن خان الشرواني - من أمراء
مديرية (عليكر 5) ،
ووزير الأمور الدينية في حكومة حيدر آباد ، رأيت رجلاً تزدان به
الرئاسة
وتتجمّل ، أكثر مما يتجمل بها.
كانت هذ 5 زيارتي الخاطفة وازددت معرفةً بالرجل ، وكان
يزور دار العلوم
مرةًاو مرتين أو أكثر في العام ، فقد كان عضوها العامل 3
وأحد مؤسسيها،
وكان الطلبة يعقدون له حفلةَ تكريم في كل زيارة ، وكان
يخطب فيها ، وكان

في علوّ همتهم في طلب العلم وتحفُل المشاق ، والتعب في سبيله ، وسهر
الليالي ، والتوسع في العلوم ، والتفنن في فضائلها.
وقرأت له كذلك " سيرة الصديق " ، وهو من الكتب التي املاها عليه
وجدانه ، وفاض بها قلبه ، قبل أن يفيضَ بها قلمه ، وتلك صفة الكتاب الذي
يكتب له التوفيق ويحكم له بالتأثير ، وكان دائماً إذا ذكر سيدنا أبا بكر
الصدّيق ، رضي اللّه عنه ، في خطبه أو مجالسه لم يملك نفسه ، واندفع يحكي
حكايات زهده وتقشفه في خلافته ، وأمانته في بيتِ مال المسلمين ، وكيف ردّ
الدراهم التي وفّرتها زوجته للحلوى إلى بيت المال ، وأمر باقتطاع هذا المقدار
من راتبه ، لأنه يَفْضُل عن حاجته ، وذلك كله بأسلوب مؤثر ، وصوت شجي
يغالب البكاء ، فتارةً يغلبه ويخفيه ، وطوراً يملك على نفسه فيفشيه.
وعرفت بعد ذلك أنه أديمب من الطراز الأول ، وصاحب أسلوب في إنشاء

ومقدماته على الكتب الأدبية والتاريخية ، وخطبه في ندوة العلماء ،
و مؤتمرات (أردو) وفي ا لاهور) وحفلات المؤتمر التعليمي الإسلامي . .
مثالٌ للأدب العالي والإنشاء البليغ.
وقد جَنَتْ إمارته على علمه جنايةً كبيرة ، فلو لم يكن من أصحاب
الإمارات والثراء لعُدَ من كبار العلماء ، فقد دَرَس العلوم الدينية والعفلية

وتطبيقه في المدارس القديمة ، وانتقاده لتاريخ بغداد
للخطيب ، تشهد لغزيز
علمه وعميق نظره .
وكان مؤرخاً كبيراً ، واسعَ الاطلاع على المصادر العلمية ، متصلاَ
بالحركة العلمية وتيارها ، لا ينقطع عن ركب الثقافة السيار ، ولا يختلف عنه
رغم كبر سته وكثرة أشغاله ، يتصل دائماً بالحديث الأحدث من المنشورات
والمقالات ، فيزين به مكتبته العامرة ويطالعه ويبدي فيه رأيه.
وكان غالباً يكتب في أرقى مجلات الهند العلمية " معارف " الشهرية،
التي كان يصدرها العلأمة الدكتور السيد سليمان الندوي من أعظم كره .
وكان مشتركاً في شبابه مع الاشتاذ الكبير والمؤرخ الشهير مولانا شبلي
النعماني في إنشاء مجلة " الندوة " ، وكانت مجلة علمية لها مكانة عالية في
الأوساط العلمية ، وكان معالي مولانا أبو الكلام آزاد وهو في مقتبل شبابه
نائب رئيس التحرير لهذه المجلة.
وكان أحب موضوع إليه الحديث عن الثقافة الهندية الإسلامية ورجالها،
وأخلاق العلماء ، وأخبار قناعتهم ، وكبر نفسهم وشغفهم بالعلم وعكوفهم
على الدرس والمطالعة ، وإذا ذكر شيخه مولانا لطف النّه وذكر مجالس درسه
التي اشترك فيها ، وشخصيته الفائقة فصوَّرها لاهل مجلسه ذهل عن كل شيء.
وكتابُه " أستاذ العلماء " الذي ترجم فيه لاشتاذ 5 المحبوب

وكان من الشغوفين بجمع الكتب واقتناص النوادر من الآَثار العلمية
والمؤلفات القديمة ، وكان أعز شيء عليه مكتبته الفاخرة الثمينة التي تُعد من
أغنى مكتبات الهند كتباً خطية وآَثاراً عتيقة ، يزورها العلماء من الأقطار البعيدة
ويفيدون منها ، ويعترفون بفضلها في مقدمات كتبهم ومقالاتهم ، وكانت له
عناية عظيمة بها ، لا يزال يزيد في ثروتها وقيمتها ، وقد وضع لها بقلمه فهرساً
مفصّلاً في مجلدٍ ضخم أشار فيه إلى خصائص الكتب ونبّه على مؤلفيها كل
ما تهم معرفته ، وهذا الفهرس ينتمُ عن واممع اطلاعه وعكوفه على الدراسة.
ولم يقتنع بهذه الفضائل العلمية ، ولم تقتصر عليها همته ، واراد أن يجمع إلى
ثقافته وعلمه عمارة الباطن بالإيمان والإحسان ، وعمارة اوقاته بذكر اللّه ، وان
يجمع بين حسنتي الدنيا والآَخرة ، فاتصل في شبابه بالمربي الكبير مولانا
(فضل الرحمن الكنج مراد آَبادي) ، وأفاد من صحبته وعلومه ، وحافظ على
ذ3 لك طوك عمره ، فكان محافظاً على الجماعة والتطوعات ، وكانت له رواتب
وأوراد يداوم عليها في السفر والحضر ، وكان في آَخر أيامه قد فقدَ الحسقَ،
وخانته ذاكرته فلم يعد يعرف أحداً ، ولم يزل مع ذلك مشتغلاً بالصلاة على
النبي !يم حتى فارق الدنيا.
لقد رايت في جولاتي الواسعة واتصالي بطبقات الناس ، رجالًا فيا غم

كلية عصرية ، أو جامعة كالجامعة العثمانية في حيدر آَباد ، أو الجامعة
الإسلامية في (عليكره) . ثم تراه يرأس نادياً أدبياً ، أو مؤتمراً شرقياً،
ويجمع بين اللغات والثقافات ، ولقد تعلم اللغة الإنجليزية في كلية (آَكره)
الكبرى ، والعلوم العربية في مدرسة مولانا لطف اللّه.
لقد عرفته من صغري ، ففد كان صديقاً لأبي مولانا عبد الحي ، رحمه
اللّه ، مدير ندوة العلماء الأسبق وزميله في تأسيس هذه المؤسسة الكبيرة دار
العلوم التابعة لها ، ثم كان شريكاً له في العلاقة بمولانا (فضل الرحمن) ،
فكان إذا رآَني ضمني إلى صدره وعانقني كأني أحد أولاده ، وكانت بيني وبينه
مراسلات أحتفظ بها ، ولما توليت إنشاء مجلة " الندوة " الشهرية مع زميلي
الأستاذ (عبد السلام القدوائي الندوي) ، طلبت من كبار رجال! العلم وقادة
الفكر الهندي أن يتحدثوا عن الكتب التي لها فضل خاص في تكوين عقليتهم
وتركيب ثفافتهم وفي سيرتهم وخلقهم ، وسألت مولانا (الشرواني) أن يفتتج
هذه السلسلة بمقالته ، فتنازل! ولتئ رغبتي ، وتفضَّل بمقالة قيمة تشهد بدراسته
الواسعة المتنوعة وطول! سياحته بين الكتب والمؤلفات ، وسلامة فكره وصفاء
حسه ، وقد نشرت هذه المقالات في كتاب مفرد .
ولقد كانَ مولانا الشرواني واحداً من ركب الحضارة والثقافة الراحل،

الشيحغ خليلى بو محمر

كل من ينحدر من أصل عربي يدعى في الهند ب (عرب صاحب) حباً
وإجلالًا له ، مهما كانت منزلته العلمية والدينية ، وحينما لم يكن السفر من
بلد إلى بلد عرضة الفيود والإِجراءات الرسمية ، كانت المدن الكبيرة للهند
تشهد الزائرين الوافدين من الحجاز الذين كانوا يتزيون بالزي العربي ، وكان
المسلمون يستقبلونهم بحفاوةٍ وحمب وإكرام ، ويكرمون مثواهم ، مدفوعين
بالعاطفة الدينية الخالصة ، والعلاقة الروحية التي كانت تربطهم

(1) نقل هذا المقال الأستاذ حشمة الله الندوي تعريباً من كتاب العلامة الندوي " المصابيح
القديمة ! ، المشتمل على تراجم عدد من الشيوخ والأساتذة ، والمعاصرين الكبار ،
والزملاء الراحلين في اردو في مجلدين.

(2) دزس الشيخ خليل بن محمدبن الشيخ حسين بن محسن اليماني العلامةَ الندوي
سورة " الزمر " بتذوق واشتياق لترسيخ عقيدة التوحيد في القلب عندما بدأت دراسة
اللغة العربية عليه ، وقد اودع الله عز وجل فيه ذوقاً فطرياً للأدب العربي وخاصة
للشعر العربي قفما يوجد له نطير ، وكان ينتسب إلى أسرة يمنية لهج لسان النبوة
بالشهادة والخير لها " الإيمان يمان ! ، وقد ورث جمال الطبيعة

والأدب العربي منذ وقت قريب في جامعة لكهنؤ ، وكان مُحئباً مكمماً لدى
الطلاب وكبار الأساتذة في الجامعة ، بفضل ما كان يتصف به من خلق عربي
نبيل ، وحلاوة ا-لحديث ، وخفة الروح ، والذكاء والفطنة ، وحضور البديهة،
والبساطة في العيش وعدم التكلف ، وما إلى ذلك من أخلاق وصفات كريمة.
وكان حضوره في المحافل والمجالس يزيدها رونقاً وبهاءً في كثير من
المناسبات ، ولذلك كان ينال من محبيه هـاخوانه حباً صماكراماً وتفديراً
لأخلاقه ، سواء في قصور الطبقة الارستقراطية التي كان يتردَّدُ إليها لتدريس
اللغة العربية ونشر العفائد الإسلامية الصحيحة ، أو في مسجد الحي ، وكان
يصلي بالناس فيه ، ويعظهم ويوجههم توجيهاَ دينياً في اغلب الأحيان ، وفي
المجالس العلمية بدار العلوم ندوة العلماء التي كان يحضر في أهم مناسباتها
بصفته أحد أفراد أسرتها ، لأنه درس في دار العلوم وتخرَّج فيها.
ويرا 5 الناس ماشياَ على الأقدام إلى جامعة لكهنؤ ، في أغلب الأحيان ،
وكان يمشي بخطى سريعة ، ولكن بسكينة ووقار ، وكان مُحَياه يشبه العرب
اليمنيين ، كان أسمرَ اللون ، حادَ البصر ، واسع العينين ، عريضَ

تقدمها فلسفة نظام الشرك من قديم مستمسكة بقول : "
مَانحبُدُهُتم إلَألِيُقَربُونَآ إِلَ! أدئَهِ

الأساتذة الإنجليز ، والذين كانوا من بنغال ومَدْراس ، بفضل ما كان يمتاز به
من بساطة في العيش ، وتفوق في اللغة والأدب ، وكبر النفس

وكان - قبل موعده في الجامعة وبعد انصرافه منها - يدرس في بيته من كان
يأتي إليه للاستفادة من طلاب الجامعة ، والمدرسة النظامية في فرنكي محل،
ودار العلوم ندوة العلماء ، وكان منهم من كان يدرس في هذ 5 المدرسة غير
النظامية ، التي كان قد أنشأها في منزله ، وقد أثمرت مهارته في التدريس
ومؤهلاته العلمية وجهوده التي بذلها في هذه المدرسة ثماراً يانعة.
وبفضل هذه المدرسة التي لم تُعرف باسم ولا لافتة ، ولم يكن فيها دفتر
للتسجيل ، ونطام للامتحان ، والتي كانت لاتمنج الشهادات والألفاب
للمتخرجين ، انتشرت اللغة العربية في الهند ، كلغةٍ حيةٍ للكتابة والنطق بها،
ونشا الذوق الأدبي السليم ، وكانت بداية للعهد الجديد لتعليم اللغة العربية
كأداة للكتابة والإنشاء ، والذي امتد حتى بلغ أوجَهُ من الرقي والازدهار ،
وكانت منجبة منتجة ر في مجال الكتابة الإسلامية ، وتعليم اللغة العربية ونشرها
وتسهيلها وتحبيبها إلى النفوس .
ويبدو أن وظيفة الشيخ خليل في الجامعة كانت وسيلة قد هياها اللّه
- سبحانه وتعالى - للخير الكثير ، فقد كان يشتغل بالتدريس في

حسن خان ، الذي كان عالماَ ضليعاَ بصيراً بخصائص الرجال مقدراً لهم،
وكان قد لقي الشيخ حسين بن محسن أثناء إقامته بالحجاز ، وتأثّر به كثيراً،
بما راى فيه من الذكاء النادر ، والذاكرة القوية ، والقدرة الفائقة على تدريس
الحديث الشريف ، والاطلاع الواسع على علوم الحديث ، ثم لأن إسناده في

قدم الشيخ حسين محسن بوفال سنة (879 ام) ، وتدئرها ، وكان إماماَ
في فن الحديث ، ومثالًا رائعاً للمحدثين القدامى ، الذين تتحدث كتب السير

قال أستاذي الشيخ حيدر حسن خان ، أستاذ الحديث بدار العلوم ندوة
العلماء : (إنه كان يكاد يحفظ 13 مجلداً لفتح الباري " شرح البخاري " ،
وكان تلميذاً للعلامة أحمد نجل المؤلف الشهير صاحب " نيل الأوطار"
العلأمة القاضي محمد بن علي الشوكاني المتوفي سنة (250 اهـ) ، وغيره
من علماء اليمن المشهورين ، وكان يفتخر كبار الأساتذة وجهابذة فن
الحديث ، أصحاب المؤلفات القيمة الذين تلاميذهم يعدون بالمئات ،
بالانتساب إلى زمرة تلاميذه ، ويجدر منهم بالذكر الأمير السيد صديق حسن
خان ، والشيخ محمد بشير الصهسواني ، والشيخ شمس الحق الديانوي

وكانت إقامة الشيخ حسين بن محسن في (بوفال) قد جعلتها مدرسة
للحديث تضاهي شيراز واليمن ، وظل (موتى مسجد) ببوفال مثل الأزهر
الشريف ، يدوي بصوت " قال : قال رسول الله -لجتَن " أكثر من ثلاثين سنة،
وانتشر عبيره في أنحاء الهند المختلفة ، ولبئ هذا الإِمام الكبير نداءَ ربه
- عز وجلّ - في عام (1327 هـ) .
وكانت قد سكنت - آنذاك - أسرته ، وأسرة أخيه القاضي زين العابدين في
مدينة (بوفال) ، وكان نجله الاكبر الشيخ محمد بن حسين الذي رافق أباه
وهو شاب من اليمن إلى بوفال ، عالماً كبيراً ومدرساً صاحب مؤلفات عديدة
وله ميل شديد إلى الأدب والشعر ، وكان بصيراً بفن العروض والقوافي ، كاتباً
أديباً ، وشاعراً قديراً ، وظل مشتغلاً بتدريس الأدب العربي مدةً طويلة في دار
العلوم ندوة العلماء ، كما شغل منصب شيخ الحديث فيها مدةً من الزمن،
وقد سعد كاتب هذه السطور بلقائه.
كان عربياً بأخلاقه وأوصافه ، إذا نطق باللغة الأردية ، يغلب عليها طابع
العربية ، وكان صبيجَ الوجه ، بهيجَ الطلعة ، قصير القامة ، كثيرَ العيال ، وله
عدة زوجات ، من أبنائه الشيخ خليل بت محمد ، والشيخ عبد الرحمن،
والشيخ حبيب الرحمن ، والشيخ عبيدبن محمد استاذْ الكلية الحميدية

وكان الشيخ السيد أمير علي المليج آَبادي صاحب تفسير "مواهب
الرحمن " وغيره من مؤلفات أخرى كثيرة ، عميد دار العلوم وأستاذ
الحديث
الكبير فيها ، فانتظم الشيخ خليل في حلقة تلاميذ 5 ، وظل يدرس
ويستفيد منه
حتى برع في العلوم ، وكان مثالًا للطلبة البارعين الذين كانوا يتخرجون
على
الأساتذة المتبحرين في الزمن القديم.
وكان السيد امير علي محدثاً كبيراً ، وعالماً خبيراً واسع الاطلاع على
اسماء الرجال ، وكاتباً مثابراً ذا همة عالية (1) ، وكانت له صلة وثيقة
بالشيخ
خليل ، فزوّج السيد أمير علي بنته منه ، واظن أن الشيخ خليل قام

ولكن ما امتاز به الشيخ خليل عن غير 5 من الأساتذة ،
واكتسب به شهرةً
ومكانةً عاليةً أينما حل وسار ، هو ذوقه الفطري للغة والأدب ،
وملكته
الفطرية للتدريس ، وجهده المتواصل ، والبحث والعناء الذي
كان يتحمله
والذي تُحدثنا عنه صفحات التاريخ ، وقلَّما نرى أمثاله في
المؤسسات
التعليمية ومراكز التربية والتعليم اليوم ، زد إلى ذلك عطفه
وحبه لتلاميذه
كعطف الآَباء على الأبناء ، وحب الأمهات للأولاد ، وصلاحيته
وهذه الكفاءة لا تكتسب بالجهد والعناء ، وإنما هي موهبةٌ من
اللّه سبحانه
وتعالى ، يُكرم بها من يفدر له أن يقوم بخدمة جليلة ، وهؤلاء

1) ترجم عدداً من المجلدات الكبيرة لكتب الفقه والحديث ، منها ترجمة
" فتح الباري "
التي لم تطبع بعد ، وقد طبعت له مؤلفات وترجمات عديدة ، ونالت

ونشاطاً جديداً ، وهم الذين يرزقون هذه الملكة في التدريس ، وصلاحية
الإنتاج والعطاء وإنشاء الذوق في الطلاب .
وأنا سعيد - والحمد دئه - بان وُفقت للاستفادة من الأْساتذة البارعين ، ولا
أزال مَديناً لفضلهم ومعترفأ بجميلهم.
ولكن هذا الذوق السليم للغة العربية ، والأدب العربي ، وهذه القدرة
الفائقة على نقله إلى لغة أخرى ، مما كان يمتاز به الشيخ خليل ، لا نجد لهما
أثراً في الأوساط العلمية والادبية الكبيرة في البلاد العربية ، فضلاً عن الهند
التي حُرِمت هذا الذوق الرفيع ونظام التعليم القويم منذ أمد بعيد.
ولما حان أوان دراستي للغة العربية سفَمني أخي الكبير ومربيئ الجليل
الدكتور السيد عبد العلي الحسني -رحمه الله تعالى - إلى الشيخ خليل الذي
كان صديقاً له وجارأ ، وكانت أسرة الشيخ خليل قد دَرَست جيلين من أبناء
أسرتي ، وكنت أنا من الجيل الثالث ، وكان أبي قد تخزج في الحديث على
الشيخ حسين بن محسن ، وكان من أخمنَ وأحبِّ تلاميذه إليه ، قد ألف الشيخ
حسين بعض الرسائل التي أحتفظ بها حتى الاَن خاصةً لأبي ، ودَرَس الأدب
العربي على نجله الشيخ مخمد بن حسين.
وقد اَن أواني ، وكان لي حق على الشيخ خليل ، وكان له عليئَ حق،
ذلك الحق الذي توارثته أسرتي وأسرته منذ ثلاثة اجيال ، وكان

ما بذله الشيخ خليل من جهد وعناية في نشر هذا الكتاب .
وما هي إلّا أيام قلائل حتى وجدت زميلاً عزيزاًالتحق بصفي وهو
حسين بن محمد أخو الشيخ خليل الأصغر ، الذ! بدأ يدرس اللغة العربية قبلي
بمدة قصيرة ، وكنا نحن الاثنين في الصف ، وقد ركَز الأستاذ جُل عنايته
علينا ، فإذا كان حسين أخا 5 يتصل به بصلة العرق والدم ، فكنت أنا ابنه
الروحي بسبب ماكان له من صلةٍ متينة بأسرتي منذ زمن بعيد ، والعلاقة
العلمية الروحية التي كانت تربطني به منذ مدة طويلة.
مضت أيام كثيرة ، وأتذكر أني لم تأخذني سآمة ولا ضجر من درسه قط،
لا! حديثه الممتع ، وفكاهته الحلوة المشجعة ، ودعابته وخفة روحه قد ازالت
عني غربة اللغة الأجنبية وصعوبة الكتب الدراسية.
لم يسافر الشيخ إلى خارج الهند ، وإن سافر فإنه لم يتجاوز - فيما أظن-
اليمن ، وبعض المناطق المختلفة في الخليج العربي ، ولذلك كان قليل
الاطلاع على ما حَدَث في مصر والشام من تطورات وتجارب جديدة في مجال
تدريس اللغة العربية وأصولها ومبادئها.
وكانت الجرائد والمجلات العربية والكتب العربية الجديدة لا تصل إلى
الهند ، ولكنه كان على الرغم من ذلك كله ، سليمَ الفكر ، محباً للتجديد
والاختراع ، واقعياً ، وإن كانت دراسته حسب النظا، القديم ، ولكنه كان
لا يحب تدريس كتاب مقرر في مناهج التعليم القديمة ألف في عصر الانحطاط
بالنسبة للغة العربية ، سوى بعض كتب اللغة العربية القديمة الأصلية ، وقد
حفظت قسطاً كبيراً من نماذج النثر التي كان يشتمل عليها مجموعات من النثر
العربي ، وبقيت آثارُها عالقةً بذهني ، واعتملت في تكوين ذوقي وامتزجت
بكياني ، واصطبغت بها كتابتي.
وكانت ميزة الشيخ خليل أنه كان يتلذَذ بالألفاظ والتعابير الرائعة ، ويبد!
لنا ما يشعر به من لذة وحلاوة ، حتى كانت تلك الكلمات والتعابير ترتسم في
ذهننا ، وتترسخ في ذاكرتنا ، وكنا نظن أنَ الالتذاذَ بها والشعور بأهميتها مما
لابدمنه.

وميزته الثانية أنه كان يخلق فينا الشعور بأن هذه الثروة اللغوية ليست ملكاً
لأحد ولا هي كنز لا تصل إليه يد تلميذ متأخر زمانه ، وإنما هي ملك مُشَاع
يمتلكه كل من يقدر على استخدامه على وجه صحيح مناسب ، وربما كان
يبدي سرورَه وإعجابه بتعبير جميل أو مثل سائر ، أو جملة نكتبها صحيحة على
دفتر الإنشاء ، كأننا قمنا بعمل جليل يستحق التقدير والإعجاب ، وكان يمنحنا
جائزة في بعض الاحيان .
وعلى هذا المنوال كنا نأخذ الدروس باستمرار في اللغة العربية ، وكنا لم
نشعر بأهمية وقيمة المنهج الذي كان يتبعه الشيخ خليل في التدريس ، ولكني
أحسستُ فيما بعد انه منهج مفضل مبنيء على التجارب العلمية

وكان اكتساب المهارة والبراعة والتفوق في هذه الدراسة أكبر نجاح
وأسمى شرف لنا ، فكانت النتيجة أن تركزت جل عنايتنا ومحاولاتنا على
إحراز النجاح والتقدم في هذا الموضوع ، وكنا نتكلم عنده بالعربية ونفكر فيها
ونكتب بها ، وكانت هذه هي الدنيا التي نعيش! فيها.
وحينما سافرت إلى مصر سنة (951 ام) ، سألني العلاّمة الشيخ محمود
شلتوت الذي كان يشغل منصباً كبيرأ في الأزهر ، والذي تولئ فيما بعد منصب
شيخ إلأزهر ونال شهرة عالمية ، عن تاريخ دراستي ، وكان يريد أن يعرف
كيف درست في بلاد أعجمية بعيدة عن مركز العروبة حتى

التعليمية ، سواء أكانت قديمة أو جديدة ، هتف قائلاَ بعاطفة
وحماس : هذا
هو المنهج المفضل للتعليم.
وبعد انتهاء كتب الأدب المتوسطة تغلب على الشيخ خليل ذوقه
الديني،
فجعل يدرسنا بعض الأجزاء من القرآَن الكريم التي تتناول
بصفة خاصة موضوع
التوحيد ، والتي تركّز بكل قوة ووضوح على هذا الموضوع ،
فقرانا سورة
الزمر وما بعدها من سور عديدة ، مع دراسة كتاب " المغازي "
من صحيح
مسلم ، وكان له شغف زائد بهذا الموضوع الذي كان يلائم ذوقه
، وما عدا
هذين الدرسين كنا نقرا كتب اللغة العربية والأدب العربي في
النثر ، لأنه وسيلة
وكان للشيخ خليل ولع كبير بكتاب " نهج البلاغة " وخاصة
رسائله ، لأنَ
الخطب التي تُنسب إلى سيدنا علي ، رضي اللّه عنه ، يغلب
عليها التكلف،
وأضيف إليها شيء كثير مما ليس من كلام سيدنا علي ، رضي
اللّه عنه ، واما
الرسائل فهي نموذج عالٍ لأساليب البيان ، وأفانين القول في
النثر الفني ، ولم
تكن " مفامات الحريري " من الكتب المفضلة لديه ، فكان لا
يعجبه أسلوبها
المنمق الملتزم بالسجع والقافية ، ولكنه درَسنا عشرين مقامة
منها نظراَ لما
تحمله من ثروة لغوية ، وكان يوصينا بمطالعة شرحها الفيم
للشريشي ، وكان
مأخوذاً بجمال اسلوب إمام العربية عبد الفاهر الجرجاني ،

ومعجباً بما يمتاز به المتنبي من دقة الخيال وابتكار المعاني
الجديدة .
وكان يحفظ مئات الأبيات ، ويقرض شعراً رائعاً بليغاً ، يحاكي
فيه بعض
فحول الشعراء ، وعندما كان يفرأ شعر " الحماسة " أو بعض
قصائد البحتري ،
كانت تتمثل أمامنا سوق عكاظ ، فكنَّا نحسُّ كيف كان يؤثر
الشعر كالسحر في
نفوس العرب ، ويقرر مصير القبائل ، ويغير مفاييس الكرم
والشرف والذلة
والمهانة ، فيرفع البعض ويضع البعض ، وكان العربي يطرب
لسماعه
ويتواجد ، ويبدو الشيخ خليل صورة حية لمعاني الشعر وأثره ،
كا! الشعر قد
امتزج بلحمه ودمه فينبثق نغمة وموسيقاه من كل شعرة من
جسده .
وكان له شغف زائد بتعليمنا ، فكان التدريس هو غاية امله ،
وعملاً يلائم
طبيعته وذوقه ، وكانت تبدو عليه ملامح السرور حينما كان
يدرسنا ، وكان
لا يعفينا من الدرس ما عدا يوم الجمعة ، ولا أدري كيف رَضِيَ
بعطلة يوم
الجمعة ، ولا أتذكر إلّا عطلة يوم غير الجمعة.
كان الشيخ خليل يعود من الجامعة مجهوداً مكدوداً يتصبَّب عرقاً
، وما كاد
يصل إلى البيت - وكان أحد شبابيك بيته يطل على واجهة منزلنا
القديم - حتى
يناديني بأعلى صوته وهو قائم على الشباك ، وما لنا إلّا أن نلبي
نداءه ، وكثيراً
ما حدث أنه ذهب إلى عليكره وغيرها من المدن لحضور مؤتمر

الخلقية التي تتبناها الأديان المختلفة ، وقد دعوا بإحدى المناسبات الشيخ
خليل لتقديم نموذج تعاليمِ الإسلام الخلقية ، فتناول الآيات الأخيرة من سورة
الفرقان " وَعِبَادُ اَلرَّحْمَنِ اَلَذِيفَ يَمشُونَ كَلَ اَلأَرْضِ هَؤنا " أ الفرقان : 63 ، ، وقرأ!ا
بلهجته العربية الخالصة ، فسالت الدموع من أعين العديد من المستمعين
بمجرد سماع هذه الآياب ، وهو لم يترجمها بعد ، وكانت له لهجة خاصة
تعتمل فيها عواطفه الداخلية أكثر من قواعد التجويد ، وكان من الصعب ا ن
يسمع أحد آيات الذكر الحكيم يتلوها ، ثم يتمالك نفسه ، لا يتاثر بها ولا يرقّ
لها قلبه.
كان الشيخ خليل شغوفاً بنشر الدعوة الإسلامية في غير المسلمين،
فدامت هذه المهمة تشغل باله مدى الحياة ، وأيام إقامته في لكهنؤ كان يتحين
الفرصة لعرض السيرة النبوية -على صاحبها ألفُ الفِ تحية وسلام - وتعاليم
الإسلام على أصدقائه والمتصلين به من أساتذة الجامعة وطلابها ، وبخاصة
كان يحنُ إلى عرض تعاليم الإسلام السامية من الأخوة والمساواة والعدل وما
إلى ذلك ، على الشعوب المتخلّفة والمنبوذين ، فكان لا يتحاشى من
مخالطتهم ومؤاكلتهم فحسب ، بل وكان يدعو الاخرين إلى أن يحذوا حذوه ،
ويسيروا سيرته ، في ذلك.
كان عام (935 ام) فيما - أظن - إذ أعلن الدكتور أمبيدكر(1) أنه

1) كان حقوقياَ مرموقاً ، وهو الذي وضع دستور الجمهورية الهندية الحرة ، ولا يزال

للإسلام أمرُ سماح المسلمين بعقد رابطة المصاهرة بينهم وبين من يسلم جديداً
من شعبه ، فاقبل منه هذا الأمر نيابةً عني ، وقال ذلك بلهجة

وبعد استقالته من وظيفة جامعة لكهنؤ انتقل إلى وطنه (بوفال) ، وظل
هناك عضواً عاملاً في مجلس العلماء مدة طويلة ، ومربياً لابن

وانتقل إلى كراتشي بعد تقسيم البلاد ، حيث ظل مشغوفاَ بنشر اللغة
العربية ، والعقائد الإسلامية الصافية ، وخاصة التوحيد والسنة ، وازداد
اشتغاله بالحديث أخيراً ، وتلقيت برقية من كراتشي ، بأنه انتقل إلى جوار
رحمة ربه -عزّ وجل - وذلك في يوم الجمعة (26 أغسطس 966 ام)،
وصلى عليه جمع محتشد من الناس بعد صلاة الجمعة ، ودفن هذا الرجل
العظيم في ناحية من نواحي كراتشي ، غفر الله له واعلى درجاته.
وأختم هذا المقال بما جاء في " نزهة الخواطر " في ترجمة حياته:
(وله اشتغال بالعلوم ، ومهارة في التدريس ، ونجابة كاملة ، وذهن
وقاد ، وفكر نقّاد ، إلى إدراك الحقائق منقاد ، وكان رقيقَ الذوق ، أبيَّ

ا!ماء الشييد
الشخ حسن البنّا كما

الحمد دئه وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.
يسعد كاتب هذه السطور ، ويشرَفه أن يكتب تصديراً أو مقدِّمة لكتاب
" مذكرات الدَعوة والدَّاعية " للإمام الشهيد حسن البتا رحمه اللّه ، ويعتبر ذلك
من الأعمال التي يتفرَّب بها إلى اللّه ، ويحسن بها إلى نفسه قبل ان يحسن بها
إلى غيره ، فهو كتابٌ ليس ككلِّ كتابٍ ، ومؤلفه ليس كالمؤلفين ، وموضوعه
ليس كالموضوعات التي يعالجها الكتَاب ، ويتناولها المؤلفون ، والمحترفون
في كل حينٍ ، وفي كلِّ مكانٍ ، ويتهتب رجلٌ مثلي في قلَّة بضاعته في العلم
والعمل ، وفي تخففه في ميدان الإصلاح والكفاح ، وفي مجال التربية
والإخراج ، وفي حلبة التَضحية ، والمحنة ، أن يتقدم للكتابة والتعليق على
هذا الكتاب ومؤلفه العظيم ، ولذلك تأخرت كتابة هذه السطور مدَّةًاستطالت

(1) هذا المقال في الواقع مقدمة العلامة الندوي تفضَل بها لكتاب الإِمام حسن البنا
الشهيد " مذكرات الدَعوة والداعية ، ثم نشرت هذه المقدمة كمقالٍ

المصلحين ، والمجاهدين ، والعباقرة ، والنوابغ ، والموهوبين، والمؤتدين ، والمرئين ، وقادة الإصلاح الموفقين ؟ الذين ظهروا ، ونبغوا في
أحوالٍ غير مساعدةٍ ، وفي أجواء غير موافقةٍ ، بل في أزمنةٍ مظلمة حالكةٍ ،
وفي بيئاتٍ قاتلةٍ ، وفي شعبٍ أصيب بشلل الفكر ، وخواء الرُوح ، وخمود
العاطفة ، وضعف الإرادة ، وخور العزيمة ، وسقوط الهِفَة ، ورخاوة
الجسم ، ورقة العيش ، وفساد الأخلاق ، والإخلاد إلى الرَاحة ، والخضوع
للقوَّة ، واليأس من الإصلاح ، واصبح الجيل المعاصر كلُّى كأثه طبعة واحدب!
من كتاب واحدٍ خرجت من مطبعةٍ متفنيما لاتختلف نسخها ، وصحائفها،
فحسبك أن تقرأ كتاباً ، وتقيس عليه الباقي ، فلا تنوَّع ، ولا اختلاف ، ولا
طموح ، ولا استشراف ، ولا قلق ، ولا اضطراب ، ولا تفرد ، ولا شذوذ ،
ولا جدَة ، ولا طرافة ، ولا شيء غير المعتاد ، ولا شيء فوق

وبينما يواصل هذا الركب سيره ، وهذا القطار سفره في غاياتٍ محدودةٍ ،
ومنازل معروفةٍ ، وأصواتٍ مألوفةٍ ، ونغماتٍ مكرَرةٍ ؟ إذا بشخصية تقفز من
وراء الأستار ، أو من ركام الأنفاض والآثار ، وتفاجىء هذا الركب الهادىء
الوادع الذي لا يعرف غير الوصول إلى غايته المرسومة المحدودة ، ولا يهتمّ
إلا بقوت اليوم ، وزاد الطريق ، وأمن السبيل ، وراحة الأبدان تفاجئه بالزَعمة

حياةٍ كريمةٍ فاضلةٍ ، وإلى مدنتةٍ سليمةٍ صالحةٍ ، وإلى مجتمعٍ رشيد عادلٍ ،
وإلى إيمانٍ عميقٍ جديدٍ ، وإلى إسلامٍ قوفي حاكمٍ ، ويرفع بكلّ ذلك صوتا
مدوّياً عالياً ، يضطرب به الرَكب ، وتهتزُ به مشاعر 5 ، وعواطفه ، وقيمه،
ومفاهيمه ، ولا يستطيع أن يتغافل عنه ، أو يتجاهله ، أو يستحفتُ به ، ويستمزُ
في سيره غير مفبلى عليه ، او ملتفتٍ إليه ، بل يخظع له عدد كبير من أعضائه،
فينشالون عنه ، ويلتحقون بهذا الدَاعية ، فيجعل منهم ركباً جَديداً ، يثق بنصر
الله ، ويسير على بركة اللّه.
إنَ لهؤلاء الثائرين والدُّعاة المصلحين قائمة مشرقة مشرّفة ، يتجفَل بها
تاريخ الإصلاح والذَعوة ، ولا يخلو منهم زمان ومكان ، وقد كان صاحب هذا
الكتاب الذي أتشرف بتقديمه من هذ 5 الشخصيات التي هيأتها القدرة الإلهية،
وصنعتها التربية الرئانية ، وأبرزتها في أوانها ومكانها ، وأن كل من يقرأ هذا
الكتاب سليم الصدر ، مجرَّد الفكرة ، بعيداً عن العصبية والمكابرة ، يفتنع
بأنه رجل موهول! مهيأ ، وليس من سوانح الرَجال ، ولا صنيعة بيئةٍ
و مدرسةٍ ، ولا صنيعة تاريخٍ ، أو تقليدٍ ، ولا صنيعة اجتهادٍ ، ومحاولةٍ ،
وتكالُفٍ ، ولا صنيعة تجربةٍ وممارسةٍ ، إنما هو من صنائع التوفيق والحكمة
الإلهية ، والعناية بهذا الدَين ، وبهذ 5 الأمَّة ، والغرس الكريم الذي يهيأ لأمر

المنكر ، زد إلى ذلك كلّه نشاط دعاة الفساد والهدم ، والخلاعة والمجون ،
والإلحاد والزندقة ، وتزعُّم الصحف والمجلات الواسعة الانتشار ، الفوية التاثير للدَعوات المفسدة ، والحركات الهدَّامة والاستخفاف بالذين وقيمه، والأخلاق وأسسها ، وما آل إليه الأمر ، ووصلت الأقطار العربية بصفة عامَّة،
والفطر المصري بصفةٍ خاصَةٍ من التبذّل ، والإسفاف ، والضعف والانحطاط ، والثورة والفوضى ، والانهيار الخلقي والروحي في الثلث الأول
من هذا القرن الميلادي ، ورأى كلَّ ذلك مجسماً مصؤراً في اعداد " الأهرام "
و " المقطم " و " الهلال " و " المصؤَر " وفي كتبٍ كان يصدرها أدباء مصر،
وكتَابها المفضلون المحببون عند الشباب ، ورأى ذلك مجسماً مصؤَراً في أعياد
مصر ومهرجاناتها ، وحفلاتها وسعهراتها ، واستمع إلى الشباب الجامعيِّ في
نواديهم ومجالسهم ، وزار الإسكندرية وشواطئها ، ومصائفها ، ورافق فرق
الكشَافة والرياضة والمباراة ، ودخل دور السينما ، ورأى الأفلام الأجنبية والمحلية ، واطلع على الروايات التي تصدرها المكتبة العربية في مصر بين
حين وآخر ، ويتهافت شطيها الشباب بنهامةٍ وجشعٍ ، وعاش متَّصلاً بالحياة والشعب ، وتتبَّع الحوادث ، ولم يعش في برجٍ عاجي ، وفي عالم الأحلام والأوهام ، وعرف رزية الإسلام والمسلمين ، ونكبة الدَّعوة الإسلامحة في الجزء الذي كان يجب أن يكون زعيماً للعالم العربي كلّه ، وزعيماً للعالم الإسلامي عن طريقه ، وقد بقي قرناً كنانة الإسلام ، ومصدر العلم

إنَ كل من عرف ذلك عن كثب لا عن كُتُبٍ ، وعاش متَصلاً به ؟ عرف
فضل هذه الشخصية التي قفزت إلًى الوجود ، وفاجأت مصر ، ثم العالم
العربيئَ الإسلاميئَ كفَه بدعوتها ، وتربيتها ، وجهادها ، وقوَّتها الفذَّة التي جمع
الله فيها مواهب ، وطاقات قد تبدو متناقضةً في عين كثير من

والروح المشبوبة النَضرة ، واللسان الذرب البليغ ، والزهد والقناعة -دون
عنتٍ - في الحياة الفردية ، والحرص وبُعْد الهفَة - دونما كللى - في سبيل نشر
الذَعوة والمبدا ، والنفس الولوعة الطَموح ، والهفَة السامقة الوئابة ، والنظر
النافذ البعيد ، والإباء والغيرة على الذَعوة ، والتواضع في كلّ ما يخصُّ
النفس . . . تواضعاَ يكاد يجمع على الشهادة عارفوه ، حتى لكأنّه -كما حدَّثنا
كثير منهم - مثل رفيف الضياء : لا ثقل ، ولا ظل ولا غشاوة .
وقد تعاونت هذه الصفات والمواهب في تكوين قيادةٍ دينيةٍ اجتماعية ، لم
يعرف العالم العوبي وما وراءه قيادةً دينيةً سياسيةًاقوى ، وأعمق تأثيراً وأكثر
إنتاجاً منها منذ قرون ، وفي تكوين حركةٍ إسلامية يندر أن تجد - في دنيا
العوب خاصَةً - حركةًاوسع نطاقاً ، وأعظم نشاطاً ، وأكبر نفوذاً ، وأعظم
تغلغلاً في أحشاء المجتمع ، وأكثر استحواذاً على النفوس منها.
وقد تجلَّت عبقرية الذَاعي مع كثرة جوانب هذه العبقرية ومجالاتها في
ناحيتين خاصَتين ، لا يشاركه فيهما إلا القليل (1) النادر من الأعاة والمربّين،
والزعماء والمصلحين ، اولاهما شغفه بدعوته ، وإيمانه ، واقتناعه بها،

(1) وكان من هذا القليل النادر الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي منشى ء دعوة التبليغ
وحركتها في الهند ، ونجله وخليفته الشيخ محمد يوسف المتوفى

الذي كتب اللّه لي فيه الحبئَ والزيارة ، وخرجت من الهند لأوَّل مر؟ وهو عام
1947 م هو العام الذي تغيب فيه الشهيد عن الحجاز ، ولم يغادر مصر ، وقد
كان يحضر الموسم في غالب الأعوام ، ويحرص على نشر دعوته ، والحديث
إلى وفود بيت اللّه الحرام ، وعلى السعي المجهد الحثيث في توثيق الصِّلات ،
والعهود مع الوافدين من انحاء عالم الإسلام كفه.
بيد أني قابلت بعض تلاميذه ودعاته فلمست فيهم آثار القائد العظيم،
والمربي الجليل ، فلفَا قذر لي أن أزور مصر سنة 1951 م كانت رحمة الله قد
استأثرت به ، ولما يجاوز عمره بعد الثانية والأربعين إثر حادث استشهاده الذي
ادمى نفوس ملايين المسلمين ، وحرم العالم الإسلامي هذه الشخصية
التاريخية الفريدة ، ولا أزال أتحشَر على هذه الخسارة التي كتبت لي ، ولكنَي
اتصلتُ بتلاميذه اتصالًا وثيقاً ، وعشت فيهم كعضوٍ من أعضاء أسرةٍ واحدةٍ ،
وزرت والده العظيم رحمه اللّه ، واستقيت منه معلوماتٍ وأخباراً سخلتها في
مذكراتي ، وقابلت زملاءه وأبناءه ، واجتمع لنفسي من كل هذه الآثار والأخبار
ملامج الصورة العظيمة لصاحب هذه الدَعوة ، ومؤسس هذه المدرسة ، أنا
واثق بانَّها صوري! صادقة مطابقة.
وفي تلك الرحلة وقع إليئَ هذا الكتاب " مذكرات الدعوة والداعية " فألفيته
كتاباً أساسياً ومفتاحاً رئيسياً لفهم دعوته وشخصيته وفي

حقول الإصلاح بحاجةٍ دائمة إلى دراسة هذا الكتاب ، وإعادة التامُّل العميق فيه
الفينة بعد الفينة ، فلا عجب أن ينعقد العزم على تجديد طبعه ، ونشره في
الناس ، بل العجب أن تخلو منه مكتبة من مكتبات المسلمين.
أما بعد ! فقد كافت محاولة القضاء على آثار هذه الدَّعوة التي اعادت إلى
الجيل الجديد في العالم العربي الثقة بصلاحية الإسلام ، وخلود رسالته،
وأنشأت في نفوسه وقلوبه إيماناً جديداً ، وقاومت " مركب النفص " في
نفوسهم ، والهزيمة الداخلية التي لا هزيمة أشنع منها ، وأكبر خطراً،
والميوعة وضعف النفوس والانسياق تحت ربقة الشهوات والطغيان ، وخلفت
- كما يفول شاعر الإلمملام الدكتور محمد إقبال : " في جسم الحمام الزَخو
الرقيق قلب الصقور والأسود " حتى استطاع هذا الجيل أن يصنع عجائب في
الشجاعة ، والبسالة ، والاستقامة ، والثبات .

سماحة المفقل! السير امير

إن حادثةَ وفاة سماحةِ المفتي الأكبر الحاج السيد أمين الحسيني (1)،
حادثةٌ عَضَت العالم الإسلامي كله وهرته ، وحُق للمسلمين جميعاً أن يتبادلوا
التعازي كأفراد أسرة فُجِعَت في أحد آبائها أو مربيها ، وقد ففدَ العالمُ الإسلامي
في شخصه أقدم زعيم وأكبر مجاهد ، وأعظم بطل من أبطال المسجد
الا!صى ، والقدس الشريف.
واوثر هذا التعبير قصداً وإرادةً ، عادلًا به عن عنوان " قضية فلسطين " ،
لانَ الدافع الحقيقي في جهاد سماحة المفتي والفكرة التي كانت تسيطر عليه،
هو دفاعه عن المسجد الأقصى ، بصفته القِبلة الأولى وثالث المساجد التي يُشَدُّ
إليها الرحال ، ومسرى الرسول الأعظم ع!ير ، وهذا الذي قد اصبح شعاراً له
وسمة بارزة عن ابطال القضية الآخرين.
وقد كانت صلته بهذ 5 القضية صلةً أعمق واقوى من صلة زملائه والذين
تبنوا هذه القضية واحتضنوها ، فإن كان الزعماء العرب الآخرون -ولكل
فضل - مهتمين بهذ 5 القضية معنيين بها ، وهم لها كالأبناء

(1) انتقل إلى رحمة الله تعالى في 14 من جمادى

وانتهى به عهد يمتد اكثر من ستين سنة ، لم يهدأ له فيه بال ، ولم يقر له
قرار ، ولم يضع فيه السلاح ، ولم ينسحب فيه عن ميدان الكفاح ، ولا أعرف
أحداً من بين زعماء المسلمين والعرب ارتبط بقضايا الوطن الإسلامي الكبير،
ووهب لها من نفسه وعقله مثل ما ارتبط به الراحل العظيم ، ووهب لها مما

وقد شعرت حين بلغني نعيه ، كأني فقدت احد أفراد أسرتي الكبار وركناً
من أركانها الذين تعتز بهم هذه الأسرة ، وشعرت بأنها حادثة عائلية شخصية،
فكان دائماً يعطف عليَّ عطف الآباء على الأبناء ، أو عطف الإخوة الكبار على
الإخوة الصغار ، وقد كان في صف أساتذتنا وشيوخنا وزملائهم وأترابهم،
وقد سمعت به وأنا في ريعان الشباب وأيام الطلب ، كأنّي أسمع عن شخصيات
الجيل الماضي ، أو كاني أنظر إلى نجم متألق في الأفق البعيد ، حتى جمعني
الله به على غير ميعاد في مدينة لكهنؤ في ندوة العلماء ، حين زار الهند مع
زميله الكبير الأستاذ محمد علي علوبه باشا سنة (1933 م) ، في جولة دعائية
للجامعة الإسلامية التي كان قد أراد إنشاءها في القدس ، وكانت زيارته للكهنؤ
ضمن هذه الجولة ، فكأنه حلم تحقَّق ، ودعوناه إلى دار العلوم لندوة
العلماء ، وكان يعرفها عن طريق الكتب والصحف ، وعن طريق صديقه

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى
بصري
وأول البيتين:
كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
ثم طالت الفترة في اللقاء حتى لقيته بعد ثماني عشرة سنة
في القاهرة ،
وكان ما يزال يذكر هذه الزيارة بتفاصيلها ، وتتابعت اللقاءات
في حفلات عامة
ومجالس خاصة ، ثم حدثت فترة أخرى ، هي أقصر من
الأولى ، فالتقينا به
على صعيد رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، والمجلس
الاستشاري
الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وتشرَّفت
بالزمالة على تفاوت
في السن ، وفرقِ كبير في التجارب والحصافة ، وحسن البلاء
والعمل
الإسلامي ، ولكنه كان دائماَ يملأ هذه الفجوة الواسعة بين

لا يستغرب .
رحمة الله عليك : يا أبا صلاح الدين ! ويا مجاهد فلسطين ، رحمةَ الأبرار
الصالحين ، الأوفياء الصادقين ، والمجاهدين المستميتين.
وصدق الله العظيمِ : ! مِنَ اَتمُؤمِنِينَ رِص!الص صَدَقُوأ مَاعهَدُوا اَلنَّهَ عَلته
فَمِنهُم مَّن قَضَى
نَخبَ! وَمِنْهُم مَّن يَنمَظِرُوَمَا بدَلُوْا تَدِيلأ " أ الأحزاب : 3 1 .
فقد فارقت هذه الحياة ، وفي نفس يعقوب حاجة ما قضاها ، وأمنية لم
تقر عينه بتحققها ، بل انتقلت إلى جوار ربك مفجوعاً بما رايت في آخر
أيام
حياتك ، من تواني العرب في قضيتهم التي هي قضية الحياة والشرف ،
والعقيدة والكرامة ، وذهبت إلى ربك جريحَ الفؤاد ، حزين القلب ، محطَم
الأعصاب ، غيرَ راضي النفس ، ولا قريرَ العين ، بما ائفق عليه قومك من
وضع السلاح ، والاكتفاء من الغنيمة بالإياب ، وترك المسجد الأقصى

والقدس الشريف على ما كانا عليه ، وأنت الآَن في كنف رحمة الله تثاب على
عملك وجهادك ، ولا تُسأَل عن عمل غيرك .
ونختم هذا المقال القصير الذي لا يفي بحق الراحل العظيم بمقتطف من
كتابنا " مذكرات سائح في الشرق العربي " يحكي لقاءً تاريخياً ، ويسجل حديثاً
دسماً لسماحة المفتي ، فيه معلومات قيمة ، واراء حصيفة ، " ولا ينبئك مثل
"

يوم الأحد 7/8/ 1380 هـ- 13/ 5/ 1951 م
حديث مع المفتي
ذهبنا لمقابلة سماحة المفتي أمين الحسيني في مكتبه في شارع رمسيس
بمصر الجديدة ، وكانت هذه المقابلة من أمتع المقابلات التي جرت بمصر،
وإن كان قد جرحت الفؤاد ، وأثارت الأحزان ، وبعثت الأسى على حالة
المسلمين ، تحدَث عن تاريخ جهاد فلسطين ومطامع اليهود السافرة حتى
أطماعهم في احتلال المدينة المنورة وخيبر ومستعمرات اليهود القديمة،
ومطالبتهم بذلك بكل صراحة والتهيؤ والاستعداد له ، ونفاق الإنجليز وكيدهم
للمسلمين ، والروح الصليبية الكامنة في نفوسهم ، بل البادية في أحاديثهم
وأعمالهم : " قَدْ بَدَتِ اَلْبغضَاَءُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ وَمَا تُخفِى صُدُورُهُم أَكبر " أ آل عمران :
1118 وسذاجة الشعوب الإسلامية وسرعة انخداعها ، وأخطاء الدول العربية
وغفلتها عن مصيرها ، والأخطار الصهيونية التي تهدِّد كيانها ، واشتغال ملوك
العرب بنفوسهم ، وترفهم ، وجناية الجامعة العربية على قضية

مطلقاً ، وكيف كتفوا يديه وكيف حالوا بينه وبين إخوانه الفلسطينيين ، حتى أبوا عليهِ بطُرقٍ غير مباشرة أن يتَصل بهم في مصر وفي غزة ، وكيف سافر خلسة مرة إلى غزة فاستعادوه إلى مصر ، وكيف أصبح اللاجئون في غزة فريسة الجوع القاتل والتبشير النصراني والدعايات الشيوعية ، وكيف رفضوا أن يتصل بهم ويقوم بنشاط دعوة إسلامية ، وكيف يمنعون بريده من أن يصل إليهم بواسطة وكلاء الصهيونية في دوائر البريد ، وكيف نسجوا حوله نسائج من شائعات واراجيف ليشؤَهوا سمعته ويسقطوا مكانَتَهُ ، ويفقد الفلسطينيون ثقتهم به.
قال : ولكنا مع ذلك مصقمون على مواصلة الجهاد مهما كان ، ولا نيأس من روح الله إنه لا ييأسُ من رَوْح اللّه إلّا الفوم الكافرون .
وكان حديث سماحة المفتي مشجياً ، وكان يتجلَّد ويكف الدموع ، فمانه معروفٌ بعصاميته وجلادته ، وقد لمحت في حديثه إليئ أي مدًى وصل انحطاط المسلمين ، وجهلهم بالحقائق ونكرانهم لرجالهم ، وإلى أقيَ حد نجحت سياسة المستعمرين ، وكيف طمست البصائر ، واشترت الذمم والضمائر، وعبثت بالأفكار والعقول ؟ فاللّه المستعان ، وقد رجعت من عند سماحة المفتي حزيناً منكسرَ الخاطر ، وعرفته أنه لم يخطئه حظه ، حظ زعماء المسلمين والمصلحين.
وقد أثنى المفتي على الشهيد حسن البنا رحمه اللّه ، وأثنى على الإخوان المسلمين المجاهدين في فلسطين ، واثنى على رجولتهم وقوة إيمانهم وحماستهم ، وقال : كان الواحد منهم يقاتل عشرات اليهود(1) .
كئن ك!*

(1) " مذكرات سائح في الشرق العربي " : ص

ا!سقاكض، سفر

قد كانت معرفتي للأستاذ سيد قطب في مهد الإسلام ومهبط الوحي ، ولم تكن معرفة زيارة ولقاء ، إنما كانت معرفةً علمية فكرية ، كانت عن طريق كتابه الفيم " العدالة الاجتماعية في الإسلام " وقد تأخرت هذه المعرفة إلى سنة (1950 م) وكان من المعقولط المتوقع أن تبكر وتتقدم على هذه السنة بسنين، فقد كنت مئصلاً بركب الثقافة الإسلامية في الشرق العربي ، أحرص على ا ن أسايره ولا اتخقّف عنه ، وكنت نهماً لكل ماتنشره المطابع ، وتصدره المكتبات في مصر من غث وسمين ، فقرأت للدكتور محمد حسين ، والأستاذ العقاد ، والدكتور أحمد أمين ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والاشتاذ أحمد حسن الزيات ، وقبلهم للمنفلوطي والرافعي ، وكنت ملتزماً بمطالعة " الرسالة " و " الثفافة " الأسبوعيتين ، وهما مدرستان ادبيتان تختلفان في الاشلوب والمنهج ، وتتوزعان أدباء مصر الكاتبين ، وحملة الأقلام الناشئين، وتعرفت على كتاب هاتين المجلتين الذين كانوا ينضمون إلى أحد هذين اللوائين الأدبيين ، وكانت تمرّ بي مقالات في الرسالة لكاتب اسمه سيد قطب ، يكتب كثيراً في النقد الادبي وفي مناقشة الآَراء الأدبية ، ونقد الآَثار والأساليب العربية ، فكنت أعرف أنه تلميذ لامع من تلاميذ مدرسة العقاد وأحد المدافعين عنه والناقدين لخصومه.

وأراد اللّه أن تكون اول معرفتي به ، معرفةً عميقةً في رحاب البيت وظلال الكعبة ، فيكون نبتاً كريماً في منبتٍ كريم " وَاَقبَلَدُ اَلظَئبُ يَخرُجُ نَبَاتُه بِإذنِ رَئه" أ الأعرات : 58) .

وكان من خبر هذه المعرفة أن صديقي الأستاذ أديب الحجاز (احمد عبد الغفور عطار) كان من كبار المعجبين بالاشتاذ العقاد ، والأستاذ سيد قطب ، وكان معجباً بالأستاذ سيد قطب الأديب والإنسان ، وكان كثير الحديث

عنهما شأنَ المحب ، وجمعتنا رحلة إلى الطائف وذلك في أول شتاء عام
(950 ام) ، وكنّا زملاء في هذه الرحلة الممتعة المسلية نتحدَّث ونتذكر،
وقضينا في هذا المصيف اللطيف ، عدة أيام .
وكان الأستاذ قد قذم إليَّ كتابَ " العدالةِ الاجتماعية في الإسلام " ،
وعكفتُ على مطالعته في هذا الجو الهادىء اللطيف ، فوجدت فيه أسلوباً
جديداً من الكتابةِ والبحثِ والعرض لم اجده في كتابات الكُتَّاب الإسلاميين،
وخاصة في الكتَاب العرب ، وذلك يحتاج إلى شيء من التفصيل.
إن الذي يقرأ بحوث الكُتاب المسلمين - في لغات الشرق وفي بعض
اللغات الغربية - الذين نبغوا واشتهروا بعد منتصف القرن التاسع عشر
المسيحي ، سواءٌ أكانوا في مصر أم في الهند ، أم في تركية ، أم في إيران ،
يشعر بأنهم واقفون في " قفص الاتهام " يدافعون عن قضيةٍ او شخصيةٍ يكتنفها
الشيء الكثير من الغموض والالتواء ، وتكثر حولها الريب والتهم ، وفي
موقفها ضعف وفي حججها وهن وانثلام ، فغاية توفيقهم ونجاحهم أن يتغاضى
الخصوم عن بعض الهنات وعن بعض الحلقات المففودة في البحث،
فيلاحظوا في حكمهم الذي سيصدرونه اختلاف الزمادْ والمكان ، والمشكلات
التي كانت تعانيها هذه الدعوة أو الشخصية ، وأنه كان أقصى ما كان يمكن
الوصول إليه في تلك الملابسات والأجواء ، هذا الأسلوب الذي يصح ا ن
يسمى " الأسلوب الاعتذاري " (حا،!!هاه"ول) أو " الأسلوب الدفاعي"
(س!7 أثا!س!أس!!) .

وقد كان من زعماء هذا الأسلوب في مصر الشيخ محمد عبده - سامحه اللّه
- ورفاعة بك الطهطاوي ، وقاسم أمين ، على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم،
ومن زعمائه في الهند سر سيد أحمد خان ، والسيد أمير علي ، وصلاح الدين
خدابخش ، ومنشي جراغ علي ، وغيرهم ، وقد نهج نهجهم الأستاذ مِحمد

نظراً ولا جدلًا ، وكونها آخر ما وصل إليه العلم البشري والعقل البشري - لا يفكرون في نقد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها ومناقشتها ، فضلاً عن أ ن
يفكروا في هجوم أو تحا ، أو تناول الأسس التي قامت عليها ببحث أ و تمحيص . وهذا المنهج مخالفٌ للمنهج العلمي القوي " الهجومي " الذي اَثره
حخةُ الإسلام الغزالي في " تهافت الفلاسفة " في نقد الفلسفة اليونانية ، وشيخ
الإسلام ابن تيمية في " الرد على المنطق " في نقد المنطق اليوناني وفلسفة
أرسطو ، ثم هُجِرَ هذا الأسلوب قروناً طويلة حتى جاء دور نهضة الغرب ،

كان من لطفِ الله بكاتبِ هذه السطور ومن حكمته ، أنه نشا في بيئةِ تمرَّدَت على الحضارة الغربية وإغراءاتها ، واستقامت على الفكرة الإسلامية النقيّة البعيدة عن الإفراط والتفريط ، وفي عصر بدأ فيه سحر الحضارة الغربية يضعف ويزول -بتأثير حركات تحريرية وثورات سياسية في البلاد- وفي
. .- لم (1)ء
له مرب اخذ من الثقافتين الفديمة والحديثة رحيقهما واحتفظ بأفضل ما عندهما ، ونبذَ القشورَ والفضولَ ، وكان من كبار الناقدينَ المنصفينَ لهذه الحضارة وزعمائها ، ثم سعد بالتلمذة على أساتذةِ كلهم يتَّصفون بالحرية الفكرية ، والشجاعة الادبية ، والنقد الجريء ، فكان بحكم هذه البيئة والتربية يعاف الأدبَ الضعيفَ الخجول ، والكتاباتِ المتراجعة المنسحبة ، المعتمدة على وقاية النفس ، المفضّلة للسلامة على الغنيمة ، والنجاة على الغلبة والفتح ، فكان إذا قرأ شيئاَ من هذا الادب المنهزم شعر بامتعاض ، وكان ذوقُه لا يسيغه ، كان مدفوعاَ إلى حب الطموح وحب الكرامة ، والاعتزاز بالعقيدة والدين ، قد امتزجت كراهة الشعوب التي حاربت الإسلام ، وساقت الإنسانية كلها إلى الشهوات والشبهات وعبادة المادة والقوة ، وتولت كبر الدجل والتلبيس ، بروحه وعفله ، فعاد لا يحتمل تمجيداً لها ، أو دفاعاً عنها ، أ و ركوناً إليها ، مهما كان الكاتب عظيماَ او الكتاب جليلاً.

(1) هو أخ العلامة الندوي الأكبر ومربيه الدكتور السيد عبد العلي الحسني مدير ندوة

نياحة ابي

زارت روح عمرو بن هشام - زعيم الجاهلية والنخوة العربية - مكَة ، وقد أصبحت بلد الإسلام والتوحيد ، وطهر بيت اللّه للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحرم عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزَّى ، ولا أساف ، ولا نائلة (2) ، وقام المؤذن على شرفات
الحرم ينادي بأعلى صوته خمس مرات : " أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أنَّ
محمداً رسول اللّه "

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعطمها بالآباء ، وأصبج الناس يعتقدون اثهم من ادم ، وآدم من تراب ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على
عربي ، إلا بالتقوى ، وشمع الناس يتلون : " جمأَئها اَلاسُ لمتا ظَلَقنَبهوُمِن بمروَأُنثَى
وَجَعَلنَبهؤُشُعُوبَا وَقبَآيِلَ لتِعَارَفُونمْ إِنَ أَتحرَمَكُ!عِندَألئَهِ أَنقنكُتم " أ الحجرات : 13 ، .
وأصغى إلى الناس في غدوِّهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو
نسبٍ ، ووطنٍ أو شعبٍ ، وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيِّر أحداً بأمِّه ، أ و
سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته ، او قرشيته،
وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة
ومضر ، وبين بني عبد مناف وبني عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلة في ماثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى

(1) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها الثاني والثالث ، المجلد الرابع ، عام 959 ام .

(2) كان إكثرها اْصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظمها ،

سيد بني مخزوم ، ويفرُّ عيناَ ، ورأى اْن الحياة القديمة قد نُسخت وأُبطلت،
وولد مجتمعٌ جديدٌ قام على أساسِ من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة،
والتَقوى ، وتغيرت الموازين والفيم ، وتغئرت عفول الناس ونفوسهم ، وسُمع
ينشد في حزنِ واستعجاب :
فما الناس بالناس الذي عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعرف
لقد اْشكلت الأمور على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابن
البلد ، وسيدٌ ان ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا
لقد كان يرى في الدِّين " الجديد " الذي جاء به محمَّدٌ عوَنِ الخطر،
والضرر على الدَين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية
القرشية ، والنظام الجاهليئ ؟ الذي يقوم على النسب ، والوطن ، وتفضيل
الدم والعرق ، ويرى العالم كفَه في حدود " المملكة القرشية " التي قامت في
مكَة ، ولا يعني بخارج هذه الحدود .
ويرى الفضل كلَّه في العرب ، فغيرهم عجم وعلوجٌ ، لايستحفون
مدحاً ، ولا يستحفُون رحمةً ، ولا يستحفُون عدلًا ، لقد كان يرى كل ذلك
ويتوفعه ، وكان من أشد الناس حماسةً في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدق
الناس فراسةً في معرفة غايات الإسلام ، ولكته على بعد نظره وذكائه لم يكن
يعرف أن الأمر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأن الإسلام يؤثر في

إلا لِئه " أ ا!نعام : 57 ، و " إتَّ اَ لأَرضَ لِتَّهِ يُورِثُهَا مَن يشَّاءُ " أ الأعراف : 128 ، واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفتنوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ، وهل كفر أعظم من قوله : " لا إله إلا النّه " ، وإنكار جميع الاَلهة انتي امن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنه طوى بساط دين الاَباء ، وفعل باَلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللأَت ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة ، يا عجباً ! لقد جزَد القلوبا عن معبودٍ مشهود يرى ويلمس (1)، وربطها بمعبودٍ غير مشهودٍ ، ولا يرى ، ولا يلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب اقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يرى وجود؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجود لغائب ؟ هل يجد الإنسان لذَّةً وحلاوةً في ركوعٍ وسجودٍ امام غائب ؟ ! .

إنَّ دينه حتفٌ للوطنية ، والقومية ، إنَّه من قريش ، ولكته لا يفضل حزاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدةٍ واحدةٍ ، ويأكل معه ، اسفاً إنَّه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرم العلوج والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم باللئيم ، والجميل بالدَميم ، وذَ العرب ، وذَ بنو قصي.

إنَنا لا نشكُّ في أنَّ هذه المؤاخاة ، التي يح! عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجميئٌ ، وقد تحقَق لدينا ان سلمان مزدكيئٌ ، وانَ ابن عبد النّه خُدِع به ، وجرَ البلاء والشقاء على الأمَّة العربية ، لقد جهل هذا الفتى الهاشميُّ قيمته، وشرفه ، لقد أعمته هذه الصَلاة التي يصلِّيها ، هل لعجمي أصلٌ عدنانيٌّ ، وهل لأعجميئ نطق عربيئٌ ، ولهجة مضريَّة ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسفيه محمد وحياً بكلامكم البليغ الساحر. ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول . ولماذا

(1) يعني به : الأصنام من الحجارة

لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا ا!بر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصباة ، أغِرْ
عليهم ، وعكرْ عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصرأ عاتية ، تجعلهم
أعجاز نخلى خاوية ، يا مناة ! ويا أيُّها اللاب ! فباللّه ! لا ترحلا من ديارنا،
!هانْ رايتُما الرَحيل فبالئه ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدَ من الرَحيل،
فلا تعجلا ، وامهلانا أياماً نتمتَع بكما "(1) .

عودة الجاهلية (2):

مرَ شاعر الإسلام - في بعض زياراته الرُوحية ، وسياحاته الفكرية - بوادٍ
اجتمعت فيه الآلهة القديمة التي عبدتها أمم الجاهلية ، ونحتت أصنامها،
وتماثيلها ، وبنت عليها هياكل ومعابد ، وعكف عليها السَّدنة والكُقَان ،
وتغئى بها الشعراء والأدباء ، وكان مجمع الآلهة الفديمة من شعوبٍ مختلفةٍ ،
وبلادٍ مختلفةٍ ، وعصوبى مختلفةٍ ، فهذا إله المصريين الفدماء ، وهذا رفيُ*
التبابعة ، والأذواء من اليمن ، وهؤلاء الهة عرب الجاهلية ، وأولئك آلهة
وادي الفرات ، وهذا إله الوصل ، وذلك رفيُ الفراف ، هذا م!ن سلالة
الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا زوج المشتري .
ثم إئهم أشكالٌ وألوانٌ ، فهذا قد سلَّ السيف بيده ، وهذا تفقَد

(1) " جاويد نامه ! لشاعر الإسلام محمد إقبال .

(2) نُشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي " في عددها السادس ، المجلد الرابع،

أكمل من هذا كله ، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي الفصة وحوادثها ومواقفها ، ومن تعليقات داخلة في ثنايا الفصة، ولكنها تومئ بحقائق إيمانية ذات خطر ، حين تستقرُّ في قلوب

ولم يكن شيء في تلك الفترة يدل على أن الأستاذ سيد قطب يتخطى حدود الكاتب والمؤلف والباحث والمفكر ، ويدخل في ميدان الكفاح العملي ، والقيادة للكتيبة المؤمنة المجاهدة ، ويشاهد العالم منه تلك البطولةَ النادرةَ ، والصمود الرائعَ أمام الوحشية التي تقشعر منها الأبدان ، ويشمئز منها الوجدان ، بل كان كل شيء يدل على أنه يقضي حياته منحصراً في مجال التأليف والكتابة وعرضِ الفكرةِ الإِسلامية فحسب ، مخففأ تَبِعَتها على المغامرين من المؤمنين في الأجيال القادمة كما فعل كثير من السابقين والمعاصرين ، وقد فوجئت في اول لقائي معه بوجود الفجوة الواسعة بين حالته الصحية وجسمه الضعيف ، وبين أسلوبه القوي المتحدّي المسعور الذي يشعر الإِنسان بلهيبه ووهجه ، وقلمه المتدفِّق الذي يتطاير منه الشَرَر كأنه جذوة من نار ، وقد سجلت هذا الانطباع وهذا الشعور الذي هزني في " مذكراتي "(1) .

وقد كان هو نفسه لايعرف هذه القوة الكامنة التي تحركها الحوادث والتحديات ، وتفاجىء صاحبها كما تفاجىء غيره ، ولا يعرف المستقبل الذي كان ما يزال في ضمير الغيب ، بل كان يستصفيُ نفسه مبراها بعيدة

(1) راجع " مذكرات سائح في الشرق العربي " :

فأشار إليه بعض الحاضرين واثنوا عليه ، وقالوا : إن الكتب العظيمة التي الفها
لا تصدر إلا عن قلب مؤمن وعقيدة متينة ، وخلق مستقيم ، وهنالك تكلم
الأستاذ وشهد على نفسه ، بكل صراحة وجسارة وقال : " أنا لا اعتفد أني
أستحق هذا الثناء والأمل ، وليس صدور الكتاب دليلاً على اْن المؤلف اجتازَ
المراحل الأولى في التربية الإِسلامية واعداد النفس ، وانا اعرف معركةً قائمةً
بين بيئتي وما اْنا فيه من راحة ورخاء وفرص ، وبين ما يطلبه الإِيمان والجهاد
من التضحية والإِيثار ، والزهد والقوة الروحية ، وأعرف أن المرحلة النهائية
لا تزال بعيدة ، وأن الميزان ما ذكره القرآَن : " قُلْ إن كاَنَ ءَابَآؤكئم وَأَثنَاَؤُ!ئم
وَإخوَنُكُئم . . . " الآَية أ التوبة : 124 ، فما لم أرَ هذا المنزل الذي أسكنه
والخُصّ ، والوظيفة والعطلة ، وأسباب الغنى والفقر سواء ، فإني لا أزالُ
بعيداً عن حقيقة الإِيمان والتربية الإِسلامية ، فلا أريد أن أخدع نفسي ولا (1)
عيري "
ولكن الذي ظهر من استقامته وشجاعته من حين اعتقل وسجن وحوكمَ
وعُذَب إلى أن أكرمه اللّه بالشهادة عام 1389 هـ(1966 م) ، قد بَهَرَ الجميع،
وأثبتَ انه آمن بفكرته قبل .أن يؤمن بها غيره ، ودفع ثمنَها من دمه وحشاشة
نفسه وروحه الزكية ، وأنه قد باع نفسه وتمَّت الصفقة بينه وبين اللّه ، وكتب
الصك وشهد قبل أن يطلع عليه آلاف المعجبين به وبأدبه ، والذين يعيشون في
فكرته وكتاباته ، وأنه قد انتهت هذه المعركة التي كان يتهيبها ويستعظمها - كما
مر آنفاً- في قرارة نفسه ، وقد انتصر فيه اليقين على الشك ، والسكينة على
التردّد ، والعزم على ضعف الإِرادة ، فما كان الاعتقال والتنكيل والشهادة ،
إلا نتيجة حتمية ، وصورة صادقة لهذه المعركة التي خاضها في أعماق

(1) راجع " مذكرات سائح " : ص

تعالى : " بَلْ أَحْيَاَ 4 عِندَ رَبُهِمْ " أ آل عمران : 169) أوسع مما فهمها الناس وفسرها المف!رون ، فتشمل بقاء الاثار وانتشارها ، ولهجَ الناس باسم الشهيد وأخباره ، وغرامهم بحديثه وذكره ، واعتراف وإعجاب المعاصرين ولسان صدق الاخرين ، يِأبون إلا الموتَ فيأبى اللّه إلا الحياة ، ويريد الأعداء طمسَ الآثار فيأبى اللّه لها إلا الانتشار والازدهار .

الر 4توو محطف! ا

(مات مصطفى السباعي) ، بهذه الكلمات فوجئنا أمس إثر إحدى جلسات مجلس إدارة المركز الإسلامي في جنيف (1) .

ما أسهلَ النطقَ بهذه الكلمات القصيرة البسيطة التي يمكن أن تُقال عن كل حي ، وعن كل عظيم ، وعن كل خالد -بأعماله ومآثره وآثاره - حتى عن الرسل والأنبياء الذين كتب اللّه عليهم الموت وقدَرٍ لهم الآجال ، فقال عن سيدهم وخاتمهم ع!يم : " وَمَامُحَمَّدإِلَّارَسُولم قَذ ظَت مِن قَتلِهَ ألرسُل " أ آل عمران : 144 ، ، وقال : " وَمَا جَعَقنَا لِ!شًر مِّن قتلِكَ آلفد أَفَإِيْن مِتَّ قَهُمُ اَلحلِدُونَ ! كُلُّ نَفمىى ذَابقَةُ آئمَؤث ! أ ا!نبياء : 4 3 - 35 ، .

ولكن هل درى الناعي وهل شعر الناس بما وراء هذا الحادث من معانٍ وتأثير في المجتمع الإِسلامي ، وفي آفاق العلم ، والدعوة والجهاد ؟ .

وهل شعر الجميع بمفدار خسارة الأمة ورزيئة الدعوة ، ونكبة العلم، وعظيم مصاب المسلمين في هذا الحادث (البسيط) الذي ذكرته الصحف وحملته الانباء إلى الآفاق ، في مثل هذه الكلمات السهلة القصار .

هل عرفوا ماذا حرمه المسلمون وماذا ؟خ!وه في شخص هذا الرجل الذي توارى في التراب ؟ .

إنه إخلاص ووفاء للعقيدة لاتعرفهما السياسة المتقلّبة ولا يعرفهما الزعماء (المحترفون) . . . ومع الأسف ، ولا كثير من أهل العلم في هذا الزمان .

إنه ثبات واستقامة ، وجهاد طويل متواصل في مجالات مختلفة : من

(1) كانت وفاته رحمه اللّه في 27 من جمادى الاولى

معركة فلسطين إلى البرلمان السوري ، إلى مكتب المراقب العام ، إلى محيط
التأليف والكتابة والصحافة ، إلى منصَّة الخطابة والدعوة ، إلى كرسي تدريس
الفقه الإِسلامي في جامعة دمشق ، إلى فكرة تأسيس كلية الشريعة في الجامعة
السورية ، إلى معركة الانتخابات ، إلى مناقشة المستشرقين الملحدين ، إلى

إنه علمٌ جم وعقيد! راسخةٌ ، فقلَّما يوجد في قادتنا من يستطيع ان يؤلِّف
مثل كتاب " السنّة ومكانتها في التشريع الإِسلامي " ومن يضع مثل كتاب
" شرح قانون الأحوال الشخصية " و" المرأة بين الفقه والقانون " و" من
روائع حضارتنا " .
إنه اطلاع واسعٌ وبصو نافذ ، وقلمٌ مترسّل ، وأدل! رفيع ، وأسلوب
مطبوع . وهذ 5 الافتتاحيات العامرة الكثيرة التي كان يحفي بها صدر مجلة
" حضارة الإِسلام " يجد فيها القارىء غذاء الفكرة والإِيمان .
إنه نموذج العالم الديني والداعية الإِسلامي في هذا العصر المتعقد القلق
الذي أصبح لا يتحمّل ولا يطيق جفاف الفقه وخشونة الدعوة وجمود الثقافة
وضيق الأفق والاشلوب القديم الخشيب ، ولا يخضع له.
إنه عالم ديني دَرَسَ على النمط القديم في الأزهر في مصر ، وفي حلقات
العلماء والأساتذة الراسخين في الشام ، وأخذ خير ما عندهم من القديم
الأصيل ، وعرف الجديد ، وزار أوروبة " العالم الجديد " ودرسَ مناهج

وكان في كل ذلك مؤمناً صاحب دعوة ومبدا وغاية ، مخلصاً محتسباً،
موضع ثقة وتفدير في بلده وفي غير بلده ، وقليل من معاصريه من يجمع بين
هذه الفضائل والمواقف المتنوعة في خدمة الإِسلام والمسلمين ، ثم لم يمنعه
مرضه المضني المرهق من أن يواصل جهادَه ويستمرَّ في كفاحه ، من تدريسٍ
وكتابةٍ ودعوةٍ ، فكاًن أكبر دليل على قوة إيمانه وإخلاصه ، وعلى ان الدعوة
قد ملكته وتغلغلت في أحشائه.
فتج في مجلته " حضارة الإِسلام " الغزَاء باب (رجل ففدناه) ، يتناوله
كاتب إسلامي كل شهر ، وينعي فيه عظيماً من عظماء المسلمين ، وقد قُدَر

وإلى القرَّاء مقتطفات من ذكريات ولقاءات وانطباعات عن الراحل
العزيز ، من كتابي " مذكرات سائج في الشرق العربي " :
الأحد 11/ 10/ 1370 هـ- 15/ 7/ 951 ام
(سمعنا ان الأستاذ سعيد رمضان في فندق أمية ، فذهبنا نزوره ، ووجدناه
محفوفاً بالشباب وابناء الجامعة ، تقابلنا كإخوان يتلاقون بعد فراق ، وجاء
الشيخ مصطفى السباعي المراقب العام للإِخوان المسلمين ، فرأيته لأول مرة ،
وقابلني بحرارة ومحبة ، وذكر اطلاعه على بعض المحاضرات للداعي في

(1) راجع " مذكرات سائح في الشرق العربي " :

يوم الجمعة 23/ 0 1/ 370 اهـ- 27/ 7/

(أخذنا الشيخُ السباعي اليوم إلى مصيف (الأشرفية) الذي يصطاف
فيه ، ورافقنا الأستاذ محمد المبارك وبعض الإِخوان ، وقد اقامَ الأستاذُ
السباعي عريشاً على النهر ، وهو محلٌّ ظريف طابَ لنا الجلوس فيه،
والحديث مع الأستاذَيْن : السباعي والمبارك ، وذكر الأستاذ السباعي بعضَ
تجارب الدعوة ، وكيف يقبل الناسُ على حركتها إقبالا عظيماً ، ويتهافتون
عليها كالفراش ، حتى يغترَّ الإِنسان بهذا الإِقبال الرائع ، ثم ينفضون لأدنى
سبب ، تنتشر هذه الجموع ، ويبقى المخلصون الذين قد هضموا الدعوة ،
وحكى ما وقع للأستاذ المرشد في مصر ، فقد أقبلت عليه وعلى دعوته
الدنيا ، وشايعته الأحزاب ، وكانت حفلات الإِخوان مشهورة

وكذلك حصل إقبال عظيم على العلماء ورجال الدين في دمشق ، حتى
حضر شكري بك القوتلي في الجمعية الغَرَّاء، وأعلن بأسماء المرشَحين ، واغترَ
العلماء بهذا الإِقبال ، وأدلوا به ، وصاروا يدخلون على الرئيس ، ويشيرون
عليه ، ويتدخلون في الأمور ، ولم تقبل نفوس الحاكمين هذا

(1) راجع " مذكرات سائح في الشرق العربي " :

وقد كانت بلاد الشام مركزاَ رئيسياَ من مراكز العلوم الدينية والثقافية الإسلامية ، وبصفة خاصة في الفقه والحديث ، وقد اشتهر من رجال القرن
الثالث عشر الهجري العلامة سيد أمين المعروف بابن عابدين (1198 - 252 اهـ) المشهور في الديار الهندية بالعلامة الشامي ، صاحب " ر د المحتار " شرح " الدر المختار " ، وكان الاعتماد على هذا الكتاب في الفقه
الحنفي والإِفتاء كالاعتماد على المعاجم والموسوعات في الموضوعات العلمية ، ونبغ فيها علماء كبار انبثقت منهم وانتسبت إليهم مدارس فقهية وحديثية وأدبية ، كالعلامة المحدث السيد بدر الدين الحَسَني ، والعلامة عبد الرزاق البيطار ، والشيخ زين العابدين التونسي ، والسيد محمد جعفر الكتاني ، والعلامة جمال الدين القاسمي ، والعلامة عبد القادر المبارك الجزائري (والد صديقنا الحبيب الأستاذ محمد المبارك رحمه اللّه) ، والشيخ
أبو الخير الميداني ، أفادوا وخرجوا ، وأنتجوا وأنجبوا ، وبقي لهم خلفاء وتلاميذ معدودون .

وقد فترت حركة التعليم والتخريج ، وحلَّت مكان المدارس الحرة
الشعبية ، الكليات الرسمية والمدارس الحكومية ، وقد عرف أهل البصر،
فضلاً عن اهل البصيرة ، أنه قد حان دور الجامعات المدنية والكليات التابعة
لها في تعليم الشباب ، ونقل التراث الإِسلامي إلى الأجيال الصاعدة ، على
علاتها وتأثيراتها الخاصة ورواسبها في عقلية الشباب ، ولكن لابد من
الاستفادة منها ومن إمكانياتها الواسعة.
وكان الأستاذ السباعي في مقدمة من تفرَس لهذا التطور- ، واحتضن فكرة
إنشاء كلية الشريعة في الجامعة السورية بدمشق ، وتبئاها وتحمَس لها ، وقد

الدكتور مصطفى السباعي 1 2 3
إنشاء كلية الشريعة الإِسلامية في الجامعة السورية بدمشق ، وهو عمل طَرِبَتْ له
قلوب المسلمين وأنصار الحق والخير ، وقد بدأت الدراسة هذا العام بإنشاء
صف واحد للسنة الأولى ، وسينشأ في مَطْلَع العام الدراسي المقبل صف السنة
الثانية إن شاء الله.
وقد رغبت إليَّ لجنة الكلية في أن اكتب إلى سماحتكم رجاءها بالموافقة
على طلبها في أن تتعاقد الكلية معكم للتدريس فيها ، لمدة سنتين أو سنة كما
تحتون ، يستفيد طلاب الكلية من علمكم وفهمكم العميق للإِسلام ورسالته

وقد اعتذرت - بلطف واحترام لوجاهة الاقتراح وصاحبه - عن الارتباط
الرتيب بهذه الكلية العزيزة ، التي كنت ولا أزال أقدِّر قدرَها وأعرف قيمتَها،
واقترحت أن يكتفي بكوني أستاذاً زائراً لمدة شهور ، ألفي فيها محاضرات في
موضوع مفيد مثير توجيهي تربوي ، وعيَّنت لذلك موضوعِ (جهود الإِصلاح
والتجديد وأصحابها الكبار في تاريخ الإِسلام)(2) ، وَقبِلَ الاقتراح الأستاذ
السباعي ، وجاءت الموافقة من رئيس الجمهورية ووزير التربية.
وسافرت في آخر شعبان 375 أهـواول أبريل 956 أم إلى

(1) راجع " رسائل الأعلام " : ص 93 - 94 .
(2) تكونت منها مجموعة أسميناها " رجال الفكر والدعوة في الإِسلام " وتلتها أجزاؤها
الثلاثة ، فجاءت في أربعة أجزاء ، طبع دار ابن كثير - دمشق.
اقرأ التفاصيل في كتاب " رحلات العلامة ابي الحسن الندوي ! جمع

وهنا انقل رسالة كتذكار عزيز أرسلها الأستاذ السباعي إليئ مر لندن رداَ
على اعتذاري من عدم وصولي إلى المطار لتوديعه ، ويُبْدي فيها مشاعره
الأخوية ، وما جُبِل عليه من سماحةِ خُلق وكرمِ نفسبى وَرَحَابة صدر :
" فضيلة الأخ الكبير الداعية إلى اللّه العالم المؤمن الأستاذ أبي الحسن
الندوي - أمتع اللّه المسلمين بحياته - .
وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته ، وأبقاكم اللّه للإِسلام ذخراً ، ولشباب
الإِسلام سراجاً ومرشداً .
أشكركم على جميل شعوركم ، وإنَّ ما بيننا من الحب في اللّه ، وما في
نفسي من الإِعجاب والإِكبار لكم ولفضلكم وعلمكم يجعل امر الوداع عند
السفر أمراً شكلياً ، لا ينبغي أن يكون له فيما بيننا حساب ، إني لأشعر بالأسف
يملأ قلبي لحرماني الاستمتاع بأحاديثكم ، والاستفادة من فضلكم وعلمكم
خلال إقامتكم في بلاد الشام ، ولكنَّ إرادةَ اللّه تغلب إرادتنا ، وحسبي أ ن
يصلني وأنا في مكاني النائي صدى أحاديثكم ومحاضراتكم وتوجيهاتكم لشباب
الدعوة وجنودِها ، وهو صدًى تنشرح له نفس كل مؤمن يعمل للإِسلام ،
ويبذل جهده في تثبيت دعائمه في الفلوب ، فجزاكم الله خيراً ، وبارك في
حياتكم وجهودكم ، وأرجو ألا تحرموا إخواني في الشام من زيارتهم فى

ألقاها الأستاذ الندوي في المدرَج الكبير للجامعة السورية بدمشق ، إذ كنت في
رحلة علمية إلى جامعات أوروبة - قد لمست آثارها العميقة في نفوس الذين
استمعوها من أعلام الفكر وطلاب كلية الشريعة وغيرهم من طلبة الجامعة،
كما سمعت الثناءَ الكثيرَ عنها في الأوساط العلمية والإِصلاحية ، ثم أتيح لي
أن اقراها قبل تقديمها إلى المطبعة ، فاستفدت منها كثيراً ، وسألت اللّه أن يمدَّ
في عمر الأستاذ الندوي لإِكمال هذا البحث القيم الذي بدأه ، حتى يصل بنا
إلى الحديث عن زعماء الإِصلاح في العصر الحاضر ، وخاصة في الهند التي
لا نعلم عن تاريخ مصلحيها الإِسلاميين إلّا النزر اليسير ، وإنها لأمانة لا ينهض
بعبئها إلّا مثل الأستاذ الندوي في نفاذ بصيرته وإشراق روحه وواسع علمه
وجميل مثابرته)(1) .
وأحمد الله - تبارك وتعالى - على أنه وفقني لتحقيق رغبته واقتراحه الوجيه
عن رجال الفكر والدعوة البارزين في الهند ، وإضافة هذه الحلقة الذهبية في
سلسلة تاريخ الإِصلاح والتجديد في العالم الإِسلامي ، فصدر الجزء الثالث

(1) تقديم " رجال الفكر والدعوة في الإسلام

الم!امة الشيحغ
الرالمحل! ال! الله
محمر يوسوت ال!
ا. هل؟

إنَّ السيرةَ النبوية وسيرَ الصحابة وتاريخهم من أقوى مصادر القوة الإِيمانية والعاطفة الدينية ، التي لا تزال هذه الأمة والدعوات الدينية تقتبس منها شعلةَ الإِيمان وتشعلُ بها مجامر القلوب التي يسرع انطفاؤها وخمودها في مهبِّ الريح والعواصف المادية ، والتي إذا انطفأت فقدت هذه الامة قوتها وميزتها وتأثيرها واصبحت جثةً هامدةً تحملها الحياة على أكتافها.
إنها تاريخ رجال -بخءتهم دعوة الإِسلام فامنوا بها وصدقتها قلوبهم،
وما كادْ قولهم إذا دعوا إلى اللّه ورسوله إلا أن قالوا : " رَبَّنَآ إِنَّنَاسَمِعنَامنَادِيًا ينُادِى لِلأيمَنِ أن ءَامِنُوأ بِرَلّبِهُمْ مامَنَّا " أ آل عمران : 193 ، ، ووضعوا ايديهم في يد الرسول ع!يم وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم ، واستطابوا المرارات والمكاره في سبيل الدعوة إلى اللّه ، وأفضى يقينها إلى قلوبهم ، وسيطر على نفوسهم وعقولهم ، وصدرت عنهم عجائب الإِيمان بالغيب ، والحب دئه والرسول ، والرحمة على المؤمنين والشدة على الكافرين ، وإيثار الآخرة على الدنيا وإيثار الاَجل على العاجل ، والغيب على الشهود ، والهداية على الجباية ، والحرص على دعوة الناس ، وإخراج خلق الله من عبادةِ العباد إلى عبادة اللّه وحده ، ومن جَوْر الأديان إلى عَدل الإِسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى

(1) طبع الكتاب اولًا في مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد سنة 379 اهـفي حياة المؤلف ، وصدرت الطبعة الثانية من مكتبة دار القلم سنة 388 اهـ- 969 ام ،

سعتها ، والاستهانة بزخارف الدنيا وحطامها ، والشوق إلى لقاء اللّه والحنين
إلى الجنة ، وعلوِّ الهمَّة وبعد النظر في نشر رفد الإِسلام وخيراته في العا 31 ،
وانتشارهم لأجل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها وسهولها وحزونها وأغوارها
وأنجادها ، ونسوا في ذدد لذاتهم وهجروا راحاتهم ، وغادروا أوطانهم،
وبذلوا مهجهم وحُرَّ أموالهم حتى ألفئ الدين بِجِرانه ، وأقبلت الفلوب إلى
اللّه ، وهبت ريح الإِيمان قويةً عاصفة ، طيبة مباركة ، وقامت دولة التوحيد
والإِيمان والعبادة والتقوى ، ونفقت سوق الجنة وانتشرت الهداية في العالم،
ودخل الناس في دين اللّه أفواجاً.
ضمَّت وقائعهم كتب التاريخ ، وحفظت أخبارهم دواوين الإِسلام ،
وكانت دائماً مادة التجديد والبعث الجديد في حياة المسلمين ، ولذلك اشتدت
عنايةُ دعاة الإسلام والمصلحين بهذه الحكايات ، واستعانوا بها

وكان من أول من انتبه - على ما نعرف - في هذا العصر إلى فضل الصحابة
وأحوالهم في الدعوة الإسلامية والتربية ا اتينية ، وإلى قيمة هذه الثروة
- المطمورة في الأوراق - الإِصلاحية والتربوية وتأثيرها في الفلوب ، وكان من
أول من أقبل عليها وعنيَ بها وانتصب لها المصلح الكبير والداعية المشهور
الشيخ (محمد إلياس الكاندهلوي ، رحمه اللّه) (م 363 اهـ) فقد عكف

صاحب " أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك "(1) ، ألَف
كتاباَ متوسطاً في
(أردو) في أخبار الصحابة رضي اللّه عنهم سماه " حكاية
الصحابة " ، وسُرَ به
الشيخ سروراَ عظيماً والزم المشتغلين بالدعوة والرحلات
مطالعةَ هذا الكتاب
ومدارسته وكان - ولا يزال - من أهم الكتب المقررة للدعاة
والمتطوعين ، ومن
الكتب التي نالت قبولًا عظيماً ورواجاً كبيراً في الأوساط
الدينية.
وورث الشيخ محمد يوسف والدَه العظيم الشيخ محمد إلياس ،
ورثه في
حمل أعباء الدعوة وأمانتها ، وورثه في ذوقه واتجاهه في
الشغف بالسيرة
وأحوال الصحابة ، وكان هو الذي يقرأ له هذه الحكايات
والدروس من السيرة
وتراجم الصحابة في حياته وأكبَّ بعد وفاته - مع الاشتغال
الشديد بالدعوة -
على مطالعة كتب السيرة والتاريخ وطبقات الصحابة ، ولا
نعرف -فيمن
نعرف - أوسع نظراَ في أخبارهم ودقائق أحوالهم وأكثر ايراداَ
لها في الحديث
والمحاضرات منه ، وتكاد تكون هذه الحكايات التاريخية
والقصص الحق
مصدر قوة كلامه وتأثيره ، وسرَ سحره ووقعه في الفلوب ،
وحمل الجماعات
الكبيرة على التضحية "الإِيثار ، والاستهانة بالمتاعب والمصاعب
، وتكبّد

(1) طبع الكتاب في الهند في ستة

وارادَ الله أن يكون للشيخ (محمد يوسف) فضلُ التاليف في هذا
الموضوع الجليل مع فضل الدعوة إليه ، مع ان حياته المشغولة المتنقلة
المزدحمة بالرحلات والضيوف والوفود والدروس أبعد شيء من حياة
التأليف والكتابة ، ولكنه استطاع بتوفيق اللّه تعالى وعونه ، وبعلوِّ همته وقوة
عزيمته أن يشتغل بالتأليف ، ويجمع بين الدعوة والكتابة -وما اصعب
الجمع بينهما - ، وقد استطاع بحول الله وقوته ان يشتغل بشرح " شرح معاني
الآثار " للإِمام الطحاوي ، فألَف كتاب " أماني الأخبار " في مجلدات كبار ،
واستطاع بحول الله وقوته ان يؤلف كتاب " حياة الصحابة "

وقد جمع هذا الكتاب من اخبار الصحابة رضوان اللّه عليهم وسيرهم
وقصصهم وحكاياتهم ما يندر وجوده في كتاب واحد ، لأنه اقتبس من كتبٍ
كثيرة ، ككتب الحديث والمسانيد ، وكتب التاريخ ، وكتب الطبقات ، لذلك
جاء هذا الكتاب يصؤر ذلك العصر ، ويمثل حياة الصحابة رضي اللّه عنهم،
وخصائصهم واخلاقهم وخواطرهم ، وقد أسعفت هذه الدقة

وإذا صحَ أن الكتاب صوربد نفسية للمؤلف وقطعة من قلبه ، وأنه يؤثِّر
بقدر ما يكتبه المؤلف عن عقيدة واقتناع ، وتأثر وانطباع ، وبقدر ما يعيش في
مادته ومعناه ، إذا صحَ هذا فأنا اؤكد أنَّ الكتاب مؤثر وناجح ، لأن المؤلف قد

زمناً طويلاً ، ولا يزال يعيش فيها ، ويستقي من منابعها ، فَسَجَ الله في
(1)
ته ، وبارك في حياته.
لم يكن هذا الكتاب في حاجة إلى تصدير مثلي لجلالة مؤلفه وإخلاصه،
فإنه - على ما أعتقد وأعرف - موهبة إلهية ، وحسنة من حسنات الزمان
في قوة
الإِيمان ، وقوة الدعوة والانقطاع إليها ، والتفاني في سبيلها ، لا يوجد
أمثاله
إلا بعد فترات طويلة ، وهو يقود حركةً دينية من أقوى الحركات وأوسعها
وأعظمها تأثيراً في الثفوس ، ولكنه اراد ان يكرمني بذلك ، وأردت أن
يكون
لي نصيب في هذا العمل الجليل ، فكتبت هذه الكلمة متفرباً بها إلى اللّٰه ،

توفى الله سبحانه وتعإلى المؤلف إلى رحمته في لاهور في التإسع 1)
والعشرين من شهر

الم!امة لمحب! المزيز

سمعت اسم العلامة عبد العزيز الميمني - فيما أتذكر - لأول مرة من عمي
الأستاذ السيد طلحة الحسني الذي كان يمارس معه التدريس في كلية الدراسات
الشرقية بلاهور ، والذي كان يشاركه في التذوق بالأدب العربي والعناية
بالبحث والتحقيق وصحة الألفاظ ، وحفظ الشعر والقصائد العربية ، وكانت
بداية هذ 5 المعرفة عام 1926 م ، إذ بدأ ذوقي العلمي والتاريخي يتفتج وبدأت
أنا اميز بين ماهو حسن وقبيح وغث وسمين ، كان عمي يذكر العلامة
عبد العزيز الميمني معترفاً بعلمه وبفضله مع الإشارة -شأن كل معاصر - إلى
ما كان لدى العلامة من شعور زائد واعتداد بعلمه وجهد 5 ، وأعتقد أن هذ5
نفسية كل باحث محقق يفوق معاصريه تفوقاً واضحاً ويعيش في عالم البحث
والتحقيق بعيداً عن حلقة الأساتذة الذين يهتمون بتزكية النفوس وإصلاح
القلوب . وكان يقرع سمعي -انذاك - اسم عالمين جليلين من علماء اللغة

(1) نشر هذا المقال في " مجلة المجمع العلمي الهندي ! في عددها الخاص ب " العلامة

وحينما سافرت إلى لاهور في مايو سنة 1929 م كان العلامة قد قطع علاقته بالكلية واتصل بجامعة علي كره الإسلامية ورغم أني كنت قريباً منه وكانت تربطني به علاقات وثيقة منوعة لم يتفق لي زيارته في علي كره مدة طويلة ولكني -بحكم كوني طالباَ صغيراً للأدب العربي ومولعاً بحبه - كنت أشعر بالقرب منه والاستئناس إليه ، ولم يكن من الهند آَنذاك إلا عضوان في " المجمع العلمي العربي " بدمشق ، احدهما الطبيب الحاذق اجمل خان والآَخر العلامة الميمني وكانت لهذا المجمع أسبقية في مجاله وأهمية من مختلف النواحي ، فكان مؤسسه ورئيسه الدائم اديب العربية المعروف الأستاذ العلامة كرد علي ، وكانت تعتبر عضوية هذا المجمع شرفاَ علمياً كبيراً كان يتمتع به كبار المستشرقين الأوربيين وبعض أدباء أشرف البارزين ، وكانت مقالات العلامة عبد العزيز الميمني تنشر باهتمام كبير في مجلة المجمع العلمي بدمشق ، وكانت معظمها تتسم بصيغة فنية وطابع البحث والتحقيق ولا تلائم ذوقي عادة لأنها كانت تبدو لي جافة غير مرغوب فيها.

وفعلاَ تعرفت إلى العلامة علمياً وثقافياً عن طريق كتابه القيم " أبو العلاء وما إليه " إذ كنت من المعجبين بأبي العلاء ، وقرأت ديوانه " سقط الزند" على أستاذي الشيخ خليل والشيخ عبد الحليم الصديقي ، وبذلت

القديمة وغربلة الروايات للتمييز بين الصحة والخطأ لأن هذه العملية تحتاج
إلى بصيرة نافذة وبصارة حادة وبذل جهود مضنية وصبر وأناة ، ولم يكن طه
حسين - رغم مكانته العالية - متصفاً بهذه المزايا.
لقد أخذ العلامة السيد سليمان الندوي من العلامة الميمني كتابه
" أبو العلاء وما إليه " ونشره من دار المصنفين بأعظم كره ضمن سلسلة
مطبوعاتها ، مطبوعاً في المطبعة السلفية للأستاذ محب الدين الخطيب بالقاهرة
عام 1344 هـويحمل الكتاب رقم 26 حسب سلسلة مطبوعات دار المصنفين.
ذهبت يوماً بلهفة وشوق إلى مكتبة " شبلي " التي كانت مكتبة وحيدة في
مدينة لكهنؤ توفر مطبوعات مصر وبيروت واشتريت " أبو

كتب كل من العلامة أحمد تيمور والشيخ احمد الإسكندري والشيخ
عبد الوهاب والعلامة أحمد محمد شاكر تعليقات قيمة على هذا الكتاب ،
أشادوا فيها بما يمتاز الباحث من سعة الاطلاع وبذل الجهد الكبير ، والتحقيق
العلمي الرصين ، وكنت أحاول ان أكتب بلغة عربية سلسة وأسلوب غير مقيد
بالسجع والقافية يصطبغ بصبغة نثر العهد العباسي وذلك بسبب قلة بضاعتي في

ولكن كتابه " سمط اللآلي " يعتبر مأثرة علمية يفوق " أبو العلاء وما إليه"
من بعض الاعتبارات ، لأن له صلة وثيقة بكتاب " الأمالي "

لنوادر اللغة والشعر ، وقد نال هذا الكتاب إعجاب الباحثين والأدباء الكبار من
أهل زمانه الذين اشادوا بما يتمتع به العلامة الميمني من بصيرة نافذة ودقة
النظر . والحفيقة أن العلامة قام بنشر " اللَالي في شرح أمالي القالي " للوزير
أبي عبيد البكري وأضاف إليه حواشي مفيدة قيمة تدل على

ذ!"ط إلى علي كره بمناسبة في اكتوبر 941 ام - فيما أظن - وكنت اشتاق
إلى لقاء العلامة المحقق الأديب الفاضل الذي اعترف بعلو كعبه في الدراسة
والبحث الأدباء العرب ، وجهابذة اللغة والنقد ، والذي زاد الهند شرفاً وفخراً
وكنا قد بدأنا في مجلة " الندوة " سلسلة مقالات بعنوان " الكتب التي أحسنت
إليئَ " في عام 940 ام ، وكان يكتب في إطار هذا العنوان كبار علماء الهند
مفالات حول الكتب التي قامت بدور كبير في بناء شخصيتهم وتثفيف ذهنهم،
وبذلك كانوا يرشدون القراء الذين بدؤوا رحلتهم العلمية منذ وقت قريب
ونشرت ضمن هذا العنوان مفالات لمولانا حبيب الرحمن خان الشيرواني
والعلامة السيد سليمان الندوي والأستاذ عبد الماجد الدريابادي والشيخ
عبد الباري الندوي ، والسيد مناظر أحسن الكيلاني ، والشيخ عبيد الله السندي
وغيرهم من العلماء المعروفين . وخطر ببالي أن أطلب من العلامة عبد العزيز
الميمني أن يكتب شيئاً حول هذا العنوان بوصف كونه خلفاً

والإنشاء بالجمال ، وكانت هذه الكلمة التي صدرت من لسان الأستاذ الماهر
أثارت في الشعور بأني بلغت من العلياء كل مكان ، وانتهزت الفرصة بالرجاء
منه أن يكتب حول عنوان " الكتب التي أحسنت إليَّ " فقبل دعوتي مشكوراً
ودعاني إلى تناول الشاي معه مساءً ، ولما حضرت رأيت أنها مأدبة فاخرة
جداً . وأملى العلامة مقالته القيمة المفيدة التي نشرت في " الندوة " بعددها
الصادر في نوفمبر 941 ام . وإن هذه المقالة تزخر بالمعلومات القيمة
والتوجي!ات الرشيدة لطلاب اللغة العربية والأدب والنحو والبلاغة بل لاشاتذة
هذه العلوم حتى اليوم ، وعرفت من خلالها أن العلامة تتلمذ على الاديب
المعروف الشيخ نذير أحمد الدهلوي ، وإن كانت علاقته بالشيخ لم تستمر
طويلاً ولكنه يعترف -حتى اليوم - بكفاءته العالية وقدرته الفائقة على قرض
الشعر العربي ، وأن هذه المقالة تعرف بكثير من الكتب والشخصيات التي
لا تزال غير معروفة في الأوساط العلمية والمدرسية بشبه القارة الهندية . ولما
رجعت من عنده وجدت طلبة جامعة عليكره وأحبائي لا يتعجبون من إملائه
مثل هذه الكلمة الفيمة مثلما يتعجبون من اهتمامه بإقامة مأدبة الشاي التي
كانت تتجلى فيها الأناقة والتكلف ، إذ أن العلاَّمة كان معروفاً لدى الطلاب

انتقل العلامة إلى لاهور إثر تفسيم الهند أو قبله بقليل ، وقد سعدت كلية الدراسات الشرقية بلاهور وجامعة كراتشي بوجود العلاَمة الذي أفاد بعلمه
تلامذته هناك .

وقد وقعت حادثة طريفة جديرة بأن تذكر هنا ، وهي أني كنت في الحجاز
حينما تئمَ تقسيم الهند ، وكان هذا أول سفر قصت به للحج والزيارة ، وكنت
جالساً في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام إذ جاءني عالم سوداني يسألني:
من الذي عين رئيساً لباكستان ؟ قلت : السيد محمد علي جناح ، فقال : من
المؤسف أن البلاد التي تسعد بوجود مثل العلامة عبد العزيز الميمني يعيش فيها
غيره رئيسأ للمملكة ، ولم أستمر معه في الحديث وسكت مبتسماً ، ولا أفىري
كيف وصل نبأ هذه الحادثة إلى العلامة ، إذ فوجئت في يوليو 978 ام حينما
حضرت إليه وأردت أن أطرف بها أهل المجلس ، أن العلامة قال لي : إني
على معرفة بهذه ا احادثة فقضيت عجباً إذ لم يكن معي أحد هناك سوى ابن
أختي السيد محمد ثاني الحسني ، ويمكن أني ذكرتها لأحد أصدقائي
الباكستانيين ، وهكذا وصلت إلى العلامة . ويقدر بهذه الحادثة مدى شهرته
العلمية ومنزلته الكبيرة التي كان يحظى بها لدى العلماء العرب .
وما عرفت شيئاً - وأنا في الهند - مدة طويلة من أخبار نشاطاته العلمية

الشيخ معين الله نائب أمين دار العلوم من جدة إلى كراتشي
للاشتراك في
المؤتمر ، وأتى من لكهنؤ كل من العزيزين محمد الحسني
وإسحاق جليس
الندوي للاشتراك في المؤتمر كذلك وعلمت أن العلامة عبد
العزيز الميمني
مريض ويريد أن يلقانا ، فذهبت أنا ورفقائي نزور العلامة بلهفة
وشوق
بالغين ، واستقبلنا بحفاوة وحب كبيرين وشكرته بدوري على
منحه هذا المبلغ
الكبير للمكتبة ، فقال : أعطي مثله مرة ثانية إن شاء الله.
وسألته في أثناء الحديث - بكل احترام - عن عدد ما يحفظه من
أبيات
الشعر العربي ، فتوقف لحظة وقال : بين خمسة وسبعين ألف
بيت ومئة ألف
بيت . ولم أتعجب من ذلك إطلاقاً إ: كنت قد سمعت من عمي
السيد طلحة
الحسني أن محفوظات العلامة تبلغ آَلافاً من الأبيات ، وقال
[illegible]

وكنت في لاهور إذ وافاني عزيزي المقرىء السيد رشيد
الحسن يحمل نبأً
محزناً ، ان تلميذ العلامة الخاص الدكتور السيد محمد يوسف
توفي إلى رحمة
اللّه في لندن قبل أيام ويحمل جثمانه إلى كراتشي ، وكنت
أسأل أخي المحترم
السيد محمد جميل المحاسب العام السابق بدولة باكستان عن
قدوم العلامة،
وانتظر بشدة وشوق ، وكنت اقدر شدة وقع هذا النبأ المؤلم
عن العلامة
فوجهت إليه رسالة التعزية من هنا ، وما كنت أعرف أنه

لمكتبة دار العلوم ، جريدة " الدعوة " في 6 أو 7 من نوفمبر ، التي كانت قد
نشرت نبأ وفاته ، وقليل من قراء الجريدة الذين يبلغ عددهم آلافاً يعرفون أ ن
وفاته لم تحرم شبه القارة الهندية فحسب عالماً أديباً ، محققاً بصيراً ذا منزلة
سامية في اللغة العربية وآدابها ، بل حرمت العالم العربي كله والعصر الذي
نعيش فيه ، وكيف نرجو في مثل الأوضاع التي نعيش فيه من نظام التعليم الذي

!7 كم ئن-

المفحئر ا؟ش!امل! ال!بير
األستاحض ابو األمحل! الموح!وح!؟
(كلمة رثاء عجلى بمناسبة حادث وفاته) (1)

إنني لا أعرف رجلاً أثر في الجيل الإِسلامي الجديد فكرياَ وعلمياَ مثل تأثير
الراحل العظيم ، لا في العمق ، ولا في السعة ، وقد كان السيد جمال الدين
الا!غاني من اقوى الشخصيات الإِسلامية التي نبغت في القرن الماضي،
وأكبرها نفوذاً في عقول الشباب المثقف ، وسيطرة ، بل سحراً عليها وتأثيراً
في الفكر والاتجاهات والاشاليب الادبية ، والكتابية والخطابية ، حتى كان
صانع جيل ومفتتج عهد ، ولكن الحق يقال إن سيطرته العقلية والنفسية كانت
محدودة في السخط على الأوضاع السياسية القائمة ، والاستعمار الأجنبي،
وفي إثارة الأنفة والنخوة في الشعوب الإِسلامية المحكومة في بلادها ، والعمل
للجامعة الإِسلامية لم ترافقها فكرة منسقة ، ولا دعوة واعية إيجابية تقوم على
الدراسات الإِسلامية العميقة ، والنقد والتحليل العلميين للحضارة الغربية

(1) نشر هذا المقال في مجلة " البعث الإسلامي ! في عدد

338 المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ أبو الأعلى المودودي
في الزمن القريب ، وقد عرض الإِسلام ، ونظام حياته ، وأوضاع حضارته
وحكمه ، وصياغته للمجتمع والحياة وقيادته للركب البشري ، والمسيرة
الإِنسانية ، في اسلوب علمي رصين وفي لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل
المثقف ومستوى العصر العلمي ، ويملأ الفراغ الذي كان يوجد في الأدب
الإِسلامي المعاصر من زمن طويل ، ويقضي حاجة في نفس

ومما يجب أن يسجل في مآَثره الخالدة أنه قد كان لكتاباته فضل كبير في
إعادة الثقة إلى نفوس الشباب المثقف الذكي بصلاحية الإِسلام لمسايرة العصر
الحديث ، بل لقيادته وللتغلب على مشكلاته الطريفة المعقدة ومعالجتها بل
للمنع عن وقوعها ، ومحاربة " مركب النقص " في نفوس هؤلاء الشباب فيما
يتصل بالعقائد ، والأحلاق ونظم الحياة الإِسلامية . وقد بعثت كتاباته القوية
ثم جهوده المتواصلة ، الرغبة القوية العارمة لقيام حكم إسلامي ، ونظام
إسلامي ومجتمع أفضل في كل بلد إسلامي ، بل في كل بقعة من بقاع
الأرض ، وقد ساهمه في ذلك وواكبه عدد من رجالات العالم الإِسلامي،
ونتمنى أن يكون قد عرف بذكائه وتجاربه الواسعة أن الطريق إلى ذلك طويل
شاق ، ومحفوف بالمكاره ، وأن الأرض في حاجة إلى تمهيد وتعبيد،
والمجتمع المسلم في حاجة إلى إعداد داخلي ، وشحنة إيمانية

المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ أبو الأعلى المودودي 339
941 ام وقد جاء ليحضر لجنة التخطيط للدستور الإِسلامي ، تحت إشراف
العصبة الإِسلامية ، وبدعوة من رئاستها في الولاية الشمالية ، وحصل لي
اتصال وثيق به -بصفتي مضيفاَ لهؤلاء الضيوف الأجلاء الذين حضروا من
أنحاء الهند ، وفي مقدمتهم العلامة السيد سليمان الندوي ومولانا عبد الماجد
الدريابادي - ثم جاء مرة ثانية إلى لكهنؤ في اكتوبر تلك السنة لتنظيم الجماعة
وتدعيمها ، وحضرت عدة اجتماعات للجماعة الإِسلامية التنفيذية في لاهور
ودلهي ، أولاها في فبراير 942 ام في لاهور ، وأخراها في أكتوبر 942 ام في
دلهي ، وأقمت ضيفاَ عنده في " دار الإِسلام " في بتهانكوت سنة 944 ام ،
وحضرنا المؤتمر الإِسلامي المنعقد في دمشق في آَخر يونيه 956 ام ، الذي
دعا إليه صديقنا الدكتور سعيد رمضان ، وحضرنا عضوين زميلين جلسات
المجلس الاستشاري للجامعة الإِسلامية بالمدينة المنورة 962 ام وعدة دورات
لرابطة العالم الإِسلامي في مكة المكرمة ، وكان آخر لقاء في لاهور في
الأسبوع الأخير من يواية 978 ام في عودتي من كراتشي حيث حضرت المؤتمر
الإِسلامي الآَسيوي الأول المنعقد في باكستان ، وكان هذا اللقاء في جو من
الإِخاء والصفاء بعد فترة طويلة دامت عشر سنين تقريباً.
واتصلت الصلات الودية بيني وبينه - رغم صغري في السن ، وشهرته ف

0 34 المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ ابو الأعلى المودودي
كبار علمائه وممثليه ، بعضهم مع بعض ، في عصوره الذهبية ، والقرون
المشهود لها بالخير ، وكان الفقيد رحمه الله من الذين فتحوا الطريق إلى الحرية
في النقد والمناقشة العلمية للآَراء ، ومن السائرين على هذا الدرب ، في
كتاباته وبحوثه في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وفي القضايا الشرعية والففهية.
وقد تجلت هذه الروح المرنة السامية في رسالته الأخيرة التي تلقيتها منه
في يناير سنة 1979 م ، حين وصله كتابي المشهور الذي جاءت فيه ملاحظاتي
عن كتابه " المصطلحات الأربعة في القرآن " ، وعن فكرته الأساسية التي تقوم
عليها دعوته في فهم الدين وتفهيمه ، والذي ظهر أولَا في اردو ، ثم ظهرت
ترجمته بالعربية باسم " التفسير السياسي للإِسلام " ، وقد رحب في هذ5
الرسالة بهذ 5 الملاحظات ، وشكر المؤلف عليها ، ودعا 5 إلى مراجعة سائر
كتاباته ومؤلفاته وإبداء الملاحظات عنها ، وقال : " إنني لا أستطيع أن أقول
إني سأوافق عليها تماماَ ولكني سأدرسها واتأمل فيها " ، وقال : " إنني
لا إعتبر نفسي فوق مستوى النقد واختلاف وجهات النظر " ، ويجب أن يكون
هذا شأن رواد الحق ، ومنتجعي الخير ، والعاملين لمجد الإِسلام وحده ،
والطالبين لرضا اللّه وحد 5 .
ومما لا شك فيه أن اللّه سبحانه وتعالى قد اكرم الفقيد بمواهب فكرية

المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ ابو الأعلى المودودي 1 4 3
موضوع المؤرخ للجماعة ، ومؤلف سيرة القائد الراحل الأستاذ
المودودي .
وقد وقف هذه المواهب والطاقات لهدف عينه ، ووهب له
حياته وعاش
وفياً له طول حياته ، وقد شاهد تأثير كتاباته في الشباب
المثقف في العالم
الإِسلامي ، حتى لبى نداء ربه ، وفارق الحياة ، وجاء نبأ وفاته
كصاعقة تنزل
على العالم الإِسلامي ، رحم اللّه الفقيد ، وأجزل مثوبته وغفر
عن زلاته التي
لا يخلو عنها بشر.
كنت في دلهي بالأمس حين فوجئت بنبا وفاته مع زملائي
وأصدقائي
أعضاء الجماعة الإِسلامية صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة
1399 هـ(23 من
سبتمبر 1979 م) وألقيت كلمة عزاء وتأبين في حفلة "
مجلس مشاورة "

اكاسقاكض محمر الحللدن!
رئيس تحرير مجلة " البعث

ولد محمد الحسني بن الدكتور عبد العلي الحسني (أمين ندوة العلماء
العام) في 17 من ربخب سنة 354 اهـ(15 أكتوبر سنة 935 ام) في لكهنؤ.
بدأ دراسته في البيت ، فقرأ القرآَن الكريم واللغة الأردية قراءة وكتابة،
والفارسية نثراً وسعرأ ، على عادة أبناء البيوتات المسلمة في الهند ، وذلك
عند معلم صالح داعية صحيح العقيدة يأتي إلى البيت ويعلمه.
بدأ بدراسة اللغة العربية في البيت عند والده ، وكان من العلماء الراسخين
المتضلعين ومن الأفذاذ الذين جمعوا بين الفديم الصالح والجديد النافع،
والدراسات الدينية النظامية العميقة ، والتعليم الجامعي المدني العالي،
وكانت له طريفة خاصة في تعليم اللغة العربية ، تمتاز بالاعتماد على القرآن
الكريم خصوصاً على سور القصص ، والاستغناء عن الفواعد في البداية بقدر
الإمكان ، وقطع بذلك شوطاً بعيداً في مدة يسيرة .
ألف له عمه أبوالحسن الندوي سلسلة " قصص النبيين للأطفال " التي
نالت قبولًا وانتشاراً في الهند وفي الأقطار العربية ، وقررت

مفاجأة له واكتشافاً لقدرته على الكتابة دمانشاء المقالات في هذه السن
المبكرة ، وطلب منه عمه نقل محاضرة طويلة قوية له إلى العربية ألقاها في
الأردية في احتفال كبير في لكهنؤ في سنة 1949 م ، فأكمله في وقت يسير،
وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره ، ونشرت هذه المحاضرة مراراً بعنوان
" بين الصورة والحقيقة " .
حضر دروس العلامة الشيخ حليم عطا أستاذ الحديث في دار العلوم ندوة
العلماء سنة 73 - 1372 هـ(52 - 1953 م) وقرأ عليه كتب الحديث.
بدأ والده يعلمه الطب وأراد أن يخلفه في مهنته وهي الصناعة الموروثة في
هذه الأسرة (1) ولكنه عرف في مدة قريبة أن هوايته في القراءة والكتابة ، فتركه
وشانه ، وهكذا أراد والده ان يكون طبيباَ ، وأراد اللّه أن يكون كاتباَ داعية،
وأديباَ إسلامياَ ، والله غالب على أمره .
أسس جمعية باسم " المنتدى الأدبي " سنة 1374 هـ(1954 م) ونشرت
له مجلة " المسلمون " الشهيرة ، التي كان يرأس تحريرها الدكتور سعيد
رمضان ، وكانت تصدر من دمشق ، وكان يكتب فيها كبار الكتاب الإِسلاميين
في الشرق العربي ، أول مقال له بعنوان " العالم الإِسلامي علي! مفترق الطرق "
وهو لم يبلغ بعد سن العشرين ، يتصور الدكتور وكثير من قراء

1) والده طبيب ، وجده وأبو جده كانا طبيبين نطاسيين ، وكانت هذه الصناعة الطبية،

الهند ، وكان ذلك على مسؤوليته الشخصية ومساعدة والده ، وساعده في
التحرير زميله الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي ، ثم انتقلت إلى ندوة العلماء ،
وأصبحت ترجمانها وترجمان الدعوة الإِسلامية في العالم الإِسلامي.
ولما جاءت الفترة الحالكة التي هبت فيها عاصفة القومية العربية الهوجاء
في الخمسينات الأولى ، وسحر بها أكثر أبناء العرب وشبابهم - وكثير من
كهولهم وعلمائهم - يقودها الرئيس المصري جمال عبد الناصر بشخصيته القوية
وبراعته في فن الدعاية والمناورة ، وكانت فتنة عمياء أعمت وأصمت ، وموجة
عارمة اكتسحت الصحافة والأدب ، برزت مجلة " البعث الإِسلامي " في
الميدان ، وعلى رأسها محررها الشباب يحمل راية النقد الجريء والحسبة
القوية والهجوم العنيف ، حسبت له القيادة المصرية وصديقاتها حساباً لم
تحسبه لمجلة اخرى ، وطلب رئيس تحريرها في الجهات المختصة في بلاده ،
ونوقش في الموضوع ، فلم يلن ولم يستكن ، واستمر في كتاباته حتى انفشع
الضباب وتبين الصبح لذي عينين ، وتلك مأثرة تنير تاريخه في الدنيا ، وتبيض
صحيفته في الآَخرة - إن شاء اللّه.
نقل كتاب " الطريق إلى مكة " للأستاذ محمد أسد الذي كان له دوي في
الشرق العربي ، إلى أردو ، مستعيناً في ذلك بالأصل الإنجليزي

حادثاً كبيراً فهو الابن الوحيد وغير 5 أخوات ، وهو عاهل الأسرة وهو لا يزال
في السادسة والعشرين من عمر 5، فاحتمل ذلك في قوة وجلد ورضا بفضاء اللّه.
ألف كتاباً في حياة العارف الكبير الشهير محمد علي المونجيري مؤسس
ندوة العلماء ، سنة 384 اهـ، وهو في الثلاثين من عمر 5 ، وظهرت له في
تأليف هذا الكتاب براعته في موضوع التراجم والسير ، واتزان فكره وحصافة
عقله ، وكان موضع الإعجاب والتقدير من أهل الذوق والمعرفة.
ألف كتاباً في حياة جد أسرته ، العارف الكبير والمربي الرباني الشهير
الشيخ علم اللّه النقشبندي (جد السيد الإِمام أحمد بن عرفان الشهيد الرابع)
فكان كتاباً مؤثراً مرقفاً حاملاً على اتباع السنة السنية ونبذ البدع والخرافات
والإِنابة إلى اللّه والدار الاَخرة ، وتأثر به كل من قرأه .
قررت ندوة العلماء إصدار صحيفة في الأردية تكون لسان حالها فأصدرت
صحيفة " تعمير حيات " (نصف شهرية) في 10 نوفمبر 963 ام ، فأسندت

نقل أهم مؤلفات عمه بالعربية إلى الأردية ككتاب " الأركان الأربعة"
و " الصراع بين الفكرة الإِسلامية والفكرة الغربية " و " إذا هبت ريح الإِيمان "
و" ربانية لارهبانية " وأخيراً " السيرة النبوية " عدا عدد كبير من مقالاته
ومحاضراته بالأردية إلى اللغة العربية ، وكان مترجماً بارعاً دقة التع

انعقد مهرجان ندوة العلماء بمناسبة مرور 85 سنة على تأسيسها في 25 - 28 من شوال سنة 1395 هـ(31 اكتوبر - 3 نوفمبر 1975 م) ، وكان مهرجاناَ تاريخياَ خالداَ في تاريخ المسلمين في الهند وتاريخ الثقافة الإِسلامية والمؤسسات الإِسلامية في شبه القارة ، وكان تمثيله وعرضه لمن لم يشهده مهمة عسيرة دقيقة لا يقدر عليها إلا من عاشه وتذوقه ، وكان له اقتدار على براعة التصوير وبلاغة التحرير ، واسندب ندوة العلماء هذا العمل العسير إليه فقام به خير قيام ، وألف كتابه " روداد حمن " الذي أحرز إعجاب الأدباء وكبار

كان يدعى إلى مؤتمرات وندوات تعفد في أنحاء العالم الإِسلامي ، فكان يحضر منها القليل لؤهده في الأسفار - شأن والده المغفور له - وعزوفه عن الشهرة والظهور ، وقد سافر زميلاَ ومساعداً لعمه مرتين إلى الحجاز ، وقد حضر ندوة الشباب العالمية سنة 1972 م المنعقدة في الرياض ، والمؤتمر

جمع مقالاته الافتتاحية في مجلة " البعث الإِسلامي " في مجموعة أسماها "الإِسلام الممتحن " ظهرب طبعته الأولى والثانية من ا"لقاهرة (لاوالطبعات الآَتية في طريقها) فكان له دوي عظيم في أوساط الفكرة الإِسلامية ، وكان كتاباَ قد ملك الإِعجاب واستمطر الثناء من

كان آَية في النبوغ المبكر ، والسلِيقة (1) الكتابية ، وكان كاتباً مطبوعاً
وأديباَ موهوباً ، توصل إلى اسلوب خاص يجمع بين الرشاقة والاسترسال ،
وقوة العاطفة والحماس ، وكانت أكثر مقالاته عفو الساعة ، فيض الخاطر،

وكان ، إضافة إلى ذلك ، مثلاَ في النزاهة ، والهدوء ، والاشتغال بخاصة
النفس ، وحب العزلة ، وكان عفيف اللسان قليل الكلام ، كثير الصمت ، لم
يكن خطيباً ، يرى إيذاء الناس وتجريح شعورهم وعواطفهم من الكبائر ، قانعاً
باليسير ، زاهداً في الكثير ، صاحب تواضع ظاهر وأدب جم.
وافته المنية يوم 17 رجب سنة 1399 هـ، عن سن لا تزيد على 44 سنة،
على إثر علة دامت ساعات في لكهنؤ ، ونقل جثمانه إلى وطنه رائي بريلي
ودفن عند والده وجده رحمهما الله ، ورثته الصحف والمجلات الإِسلامية
الأردية والعربية ، وكتبت في تأبينه والاعتراف بنبوغه مقالات مؤثرة وانهالت
على أسرة الفقيد وندوة العلِماء برقيات ورسائل التعازي ، من أنحاء العالم
الإِسلامي.
خلَف ثلائة أبناء ة عبد الله ، وعماراً ، وبلالًا ، بارك الله في حياتهم،

(1) السليقة : الطبيعة.

( ) صدرت الطبعة الأولى من " المختار الإِسلامي " " للطباعة والنشر والتوزيع " القاهرة

الكتب وتصديرها ، وما ذلك إلا لأن الصلة بيني وبين صاحب هذا الكتاب
صلة الأب بالابن ، والأستاذ بالتلميذ ، وكنت أشعر - وانا أحدِّث نفسي بكتابة
هذا التقديم - بأني أقدِّم لكتاب من كتبي ، وأتورط بذلك أحياناً في الاعتراف
لنفسي بالإِجادة والتوفيق ، والتهنعة والتقريظ ، وذلك مما لم تستحسنه الشرائع
وعلم الأخلاق والآداب السليمة ، وتحاشيت عنه بقدر الإِمكان .
ثم حاسبت نفسي على الشعور محاسبةً أمينة محايدة وحللته تحليلاً
نفسياً ، فوجدت أن نصيبَ العاطفة فيه أكبر من نصيب العقل ، وأن الخوفَ من
قالةِ الناس وحديثهم ، قد غذى هذا الشعور وأفاض عليه لوناً خلقياً ، ورأيت
أنني إذا استسلمت لهذا الشعور ، فقد فرطت في تأدية امانة ، والقيايِم بشهادة ،
والشهادةُ للأقربين ليست أقل وجوباً من الشهادة على الالمحربين ، فإن اللّه تعالى
حين يفول : " ! جمأيها اَلَذِينَ ءَامَنُوأ كُولؤُا قَوَّصمينَ ياَتقِ!طِ شُهَدًا لنَهِ وَلَؤ عَل أَنفسِكُتم أَوِ
اَلوَلِدَئينِ وَاَلاقرَبِين " أ النساء : 135) ، فإنه يقول كذلك : " !إنَّ أدئَهَ يَأمُرُئمُ أَن تُؤَذوأ
اَ لأمَّنتِ ا لَى+ أَفلِهَا وَإِذَ ا صَكَتُص بَئن اَ لأسَ أق تَحكمُوأ لهاَئعَد ذِ انَّ أدئَهَ لِغِئَا فَيُ بِم! ان اَ دئَهَ كاَنَ !يغَا
بَصِيَرا " أ النساء : 58) .

ثم إنَّ قصة البيئة التي نشأ فيها الكاتب ، والعوامل التي كوَّنت هذه العقلية
التي صدرت عنها هذه الفكرة ، والدوافع التي دفعته إلى كتابة هذه المقالات ،
والتركيب النفسي والمزيج الثقافي والحضاري الذي ورثه عن آبائه ، وتلفاه من
مجتمعه ، والأحداث الجسيمة الأليمة التي وقعت في الوطن

إن صاحب هذه المجموعة نشأ في بيئة آمنت بأن الإِسلام هو رسالة اللّه
الأخيرة الخالدة ، وأنه هو الحق الذي ليس بعده إلّا الضلال ، والسعادة التي
ليس وراءها إلّا الشقاوة ، وأنه للإِنسان كسفينة نوح لا ينجو إلّا

نوح : " لَا عَا!مَ اتيؤمَ مِنْ أَمرِ الئَهِ " وكانت عاقبته أن حال بينهما الموج
" فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ " [هود 43

واَمنَتْ بأنَ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي الفرشي العربي !يِ!
خاتم الرسل ، وإمام الكل ، ومنير السبل ، لكل عصر ولكل جيل ، وأن اللّه
قد ربط مصير العرب بمصير الإِسلام ، وعفد ناصيتهم به ، فلا عِزَ لهم ولا
سعادة ، ولا نهوض لهم ولا قيادة ، إلا بالانضواء إلى رايته والانصهار في
بوتقة تعاليمه ، والتفاني في سبيله ، وأنَ أعدى عدو لهم من ينادي بالجاهلية،
ويهتف بالقومية والعنصرية أو الوطنية والاشتراكية ، أو فلسفؤ من الفلسفات
الملحدة ، فيحاول أن يحول بينهم وبين الإِسلام .
واَمنَتْ بأنَ الإِسلام وحدم! لا تتجزأ ، ومنهج للحياة كامل شامل ، وأنه
عقيدة وأخلاق ، وسياسة وعلم ، وعفل وعاطفة ، وحضارة وئقافة ، وله
موازينه الخاصة ، وقيمه المعينة ، ومقاديره المحدودة ، ومقاييسه المعروفة،
ولا يحتاج إلى تلفيق أو تطعيم ، أو مساومة أو تنازل .
إنه قد عاش في ظلال تاريج الدعوة الإِسلامية وقصة بطولاتها ومعجزاتها
وصنائعها وعجائبها ، تتلئ في بيته وأسرته الملاحم الإِسلامية التي نظمها بعض
أفراد أسرته المتقدمين في الشعر الأردي القوي المثير ، مقتبسة من " فتوح
الشام " للواقدي والأغاني الشعرية الخاصة بالسيرة النبوية ،

الجمع بين إشراق القلب وصفاء الروح وقوة العاطفة ، وبين التفنن في العلوم
والذوق الاصيل للأدب والشعر ، وأورثه كل ذلك : من تراث وتاريخ ودم
وعرق ، تقديره لإِكسير الحب وقوة العاطفة ، وسلم بذلك من الجفاف
الروحي ، والاستخفاف بالعاطفة والحاجة إلى تزكية النفس ، والشحنة

إنه نشا وترعرع في عصر تغنَّى بشعر إقبال ، وكانت له فيه دولةٌ وصولة،
وهو شحرُ الح!ب والطموح ، وشعر الإِيمان والحنان ، وشعر الثقافة بصلاحية
الإِسلام ، والإِيمان بخلوده ، فأساغه عفله المتفتح وذوقه الناشىء ، وجعله
جزءاً من أجزاء ثقافته واساساً من أسس تفكيره .
إنه نشا في حجر والد مؤمنٍ جمع بين سلامة العقيدة وقوة الإِيمان والقلب
المتفتح والعقل النيِّر الواسمع ، والعلم الحديث الأحدث وحب الواقعية
والجد ، لا يرى تناقضأ بين العلم والدين والقديم والحديث ، وقد اقتبس من
الثقافتين : القديمة والحديثة والغربية والشرقية ، أفضل عناصرهما وأجملها،
فمزج بينها مزجاً جميلاً ، فأصبح برزخاً بين بحرين لا يبغيان ، شديد الحب دئه
ولرسوله ، ولعشيرته وقومه ، وللغته وبلاده ، شديد البغض ، شديد البراءة
من كل ما يخالف الدين الحنيف من : عقائد وأعمال وفلسفات واتجاهات ،
عميق الفهم للإِسلام ، وثيق الصلة بمنابعه الأصيلة الصافية ،

الإِسلام والجاهلية ، والدين والعلمانية ، قادة الفكر فيه مذبذبون ، وأولياء
الأمور فيه مضطربون ، وأكثرهم منافقون يتخذون الدين حيلةً ووسيلةً للوصول
إلى أغراضهم ، والهتاف بالإِسلام سُفَماً للوصول إلى كراسي الحكم ، وقنطرةً
للعبور إلى شاطىء السيادة والقيادة ، والركوب على أعناق الشعوب المسلمة
الساذجة التي لا تفهم إلّا لغة القرآن والحب والحنان ، ولا تتحرك ولا تتحمس
إلا بحكايات الصحابة وأبطال الإِسلام وفضائل الجهاد والشهادة .
إنه أحمت اللغةَ العربيةَ من صباه ، وحبُّ الصبا شديد ، واحمت كل ما يمت
إليها بصلة ، وكان يتمثل العرب في قصص الرعيل الأول للإِسلا□!وطليعة
الدعاة والمجاهدين ، الذين سمع حكايات بطولاتهم وفدائهم في قصائد
الملحمة الإِسلامية ، فآمن بأنهم لا يزالون سائرين على دربهم ، لا يعدلون
بمحمد ع!ي! إنساناً وقائداً وإماماً ، ولا يعدلون بالإِسلام ديناً ومنهجاً ، وبالقومية
الإِسلامية قوميةً ، فلما صار يعي ويشدو ، ويقرأ ويكتب ، فتح عينيه على
كتابات العرب لو كتبت تحتها أسماء الكُتَاب الأوروبيين والمؤلفين المستشرقين
والدعاة المنحرفين لم يكن بعيداً ، وذلك لأنه كانت بين هذه الكتابات وبين
شهرة هؤلاء الكتاب ودعوتهم فجوةً ومنافاة ، ورأى ا! كثيراً من هؤلاء الكُتَاب
العرب ينظرون إلى الإِسلام كدين أدى دوره ، وبطارية قد نفدت 1 شحنتها

وعلمائهم تحت تأثير قيادةٍ ترى التخلّص من أثر الإِسلام في النفوس والعقول ، والحياة الاجتماعية والسياسية أهمُّ وأقوى من محاربة الصهيونية واستعادة المقدسات الإِسلامية ، وترى إزالة هذ 5 الأنقاض أو الركام - على حد تعبيرها- شرطاً لبناء المجتمع الجديد ، وإزالة آثار العدوان الأجنبي ، وتحلُّ القومية العربية والاشتراكية العلمية محل العقيدة الإِسلامية والدعوة الإِسلامية، وتجعل لها كل ما للدين من إيمان وحماس وعصبية وحمية ؟ وتعتمد في ذلك على الهتافات والدعايات والدعاوى الفارغة ، أكثر من الاعتماد على السلاح والقوة الحربية والروح المعنوية والإِيمان الراسخ ، وكانت فتنة عمياء ، أعمت وأصمت وسحرت العقول والنفوس ، وقلبت الحقائق وأنكرت البديهيات ، وكانت موجة عارمة في الشرق العربي ، اكتسحت الصحافةَ والأدب ودُورَ العلم ومراكز النشر ، وما صمد في وجهها إلّا أفراد قلائل يعدون على رؤوس الأصابع ، وكانت مجابهتها ونقدها العلمي مثل : (كلمة حق عند سلطان جائر) ، فقد تجاوب معها ا اسثمباب المتحمس الطموح ، والصحافة القوية التي سميت في الغرب ب (صاحبة الجلالة) .

في كل هذ 5 الظروف والملابسات الدقيقة المثيرة ، وفي هذ 5 البيئة الحسَّاسة المكهربة ، أمسك الكاتب الناشىء صاحب هذ 5 المجموعة - الأى كان لا يزال في شَرْخ الشباب - قلمه ليخط مقالات افتتاحية لمجلة " البعث الإِسلامي " التي كان يرأس تحريرها على حداثة سنه ، ليعبر عن شعور 5 الجريج الفيّاض ، وقلإ، المكلوم المتألم ، " يدافع عن الفكرة الإِسلامية التي آمن بها واحتضنها واحبها ، ويذكر العرب بصفؤ خاصةٍ برسالتهم وبتاريخهم وبمركزهم في العالم ، وميزاتهم بين الأمم ، وبالدور الذي يستطيع الإِسلام أ ن يمثله في هذ 5 المعركة الحامية ، والساعة الدقيقة الحاسمة ، والدورُ الذي يجب أن يمثله العرب ، على المسرح العالمي ، الذي أصبح مركزاً المسرحيات الهازلة والتمثيليات السخيفة ، وكانت الأمم والبلاد كرةً

في القيادة ، وجروا وراء القيادات الزائفة ، وتطفلوا على مائدتها ، وأنَّ
الواجب عليهم ان يدعوا إلى الإِسلام الكامل الذي يعطي كل ذي حق حقه،
وينير العقول ، ويشعل مجامر القلوب ، ويهذب الأخلاق ، وينظم الحياة ،
ويضبط الأمم ، ويفود المدنية ، ويشعل المواهب ، وينشىءُ الرجال ، ويربي
القادةَ والعباقرة ، لا هو جاف خشيب ، ولا هو رقيق مائع ، ولا هو رهبانية
وهجر للدنيا ، ولا هو مادية ونهامة للحياة ، إنما هو الدين الذي جاء به محمد
ع!ي! ، ونطق به القرآن ، وتمثل في حياة الصحابة ، والقرون المشهود لها
بالخير ، والتابعين لهم باحسان ، من الجامعين بين العقل والقلبب ، والعقيدة
والعمل ، والجهاد والربانية.
وكان متأثراً في كل ذلك بطبيعة الحال بالبيئة التي نشأ فيها ، ودعوة
المجدد الكبير والمجاهد العظيم السيد الإِمام أحمد بن عرفان الشهيد الذي كان
من سلفه وعظماء أسرته في الماضي القريب (1) ، وبفكرة " الإِخوان
المسلمون " ورائدهم الإِمام الشهيد حسن البنا الذي تعزَف به وأحبه عن طريق
عمه كاتب هذه السطور ، الذي كان له صلات وثيقة بأصحاب هذه الدعوة ،

(1) يراجع للتفصيل كتاب " إذا هبت ريح الإِيمان " للعلامة الندوي طبع دار ابن كثير

والمفاهيم ، خصوصاً إذا كان مدعماً بالدلائل والوثائق ، ومسفَحاً بالشواهد
والتجارب ، وهي طليعةُ كل إصلاح وانقلاب ، ورائدُ كل نهضة وتقدم ، وهو
الأسلوبُ الذي استعانَ به الخطباء والكتَاب في العصر الإِسلامي الأول ،
واستعان به السيد جمال الدين الأفغاني ، وصاحبه الشيخ محمد عبده في
مقالات " العروة الوثقى " التي أشعلت العالم الإِسلامي حماساً وحميةً،
وحملت الحكومات الغربية الاستعمارية على منع دخولها ، في الأقطار التي
كانت تحكمها ، ولعبت دوراَ لا يستهان بقيمته في إيقاظ الشعور الإِسلامي
وإيجاد الوعي السياسي.

مع هذه السِّمة البارزة لهذه المقالات فإنها تدعو إلى التأمل العميق،
وتغذي الفكرة ، وتفتح اَفاقاَ جديدة للفكر الإِسلامي ، وتزؤد العاملين في
مجال الدعوة والفكرة الإِسلامية ببعض معلوماتِ جديدة ، ووثائق وحقائق عن
الحضارات الغربية والفلسفات المادية ، ومدى افلاس الغرب

في ضوء قصة البيئة والتربية والأحداث والتجارب ، والميول والعواطف
والأهداف والمُثُل ، وصدق النية وحسن القصد ، ينبغي أن تُقرا هذه المقالات

الم!مة ال!!تور يوسثت

أخونا الدكتور يوسف القرضاوي اليوم من كبار العلماء والمربين المخلصين لعملهم ، يعترف بمكانته المرموقة في العلم ، والأدب ، والدَعوة
كل من له اطِّلاع على ما يجري في العالم الإِسلامي من نشاطاتٍ علميةٍ ودعويةٍ
إسلامئةٍ ، ولقد أثرى فضيلته المكتبة الإِسلامية المعاصرة بمؤلفاته ، وبحوثه
العلمية ، والفكرية الإِسلامية الفيِّمة ، ابتداءً من كتابه العظيم " فقه الزكاة "
الذي نال عليه شهادة الدكتوراه إلى كتابه الأخير ، كما أنَّ له نشاطاتٍ متواصلةً
في مجالات التربية والتوعية ، وفي منابر التعليم والدَّعوة مقَا يعود على الأمة
الإِسلامية بخيرٍ عظيم ، فقد أوجد في شباب الأمَّة الإِسلامية فهماً أوسع وأدق
للفكر والدين ، وأدَى دوراَ مشكوراً في إصلاح المجتمع.
يسير فضيلة الدكتور يوسف الفرضاوي بالطريق الوسط في مجال العمل
الإسلامي . فقد جمع بين الفهم الصحيح للدين الإسلامي ،

(1) ألفى العلامة الندوي هذه المقالة القيمة بمناسبة قدوم العلامة الدكتور يوسف
القرضاوي إلى دار العلوم - ندوة العلماء لإلقاء محاضرات علمية ودعوية - وذلك في

حسن البنا منهجاَ جامعاَ في الإصلاح والتوعية ، اجتمعت عليه الطائفتان من
المسلمين ، طائفة رجال الدين الإسلامي ، وطائفة المتخرجين من الجامعات
العصرية ، وإنَ العصر الحالي يقتضي هذا الجمع ؟ الذي هو جمع بين القديم
الصَالح ، والجديد النافع ، فاستطاع الشيخ يوسف القرضاوي بعد الاستفادة
من الشيخ البنا مخاطبة أبناء مراكز العلوم الذينية مع مخاطبة المتخرجين من
الجامعات العصرية وإقناعهم بكفاءةٍ وقدرةِ.
لقد قام الشيخ بالعمل على منهجٍ جامعٍ بين الفديم والجديد ، وهو خير
منهج في الظروف الراهنة ، حيث غلبت الحضارة الغربية على الأوساط الشرقية،
وصبغت أهل الدراسة والعلم في جامعاتها بصبغتها الخاصة في الوقت الذي
تقاصرت فيه الكفاءات والهمم في مراكز العلوم الإسلاميَّة ، حتى أصبح أبناء
الطائفتين من المسلمين لا يفهم أحدهما ما يقدمه ويعرضه ابناء طائفة اخرى ،
كما صار علماء الدين يُتَهمون بالتخالُف الفكري ، وبالعجز عن فهم مشكلات
الحياة المعاصرة ، كما يُتهم اصحاب العلوم العصرية بفساد الفكر ، والقصور
في الذين ، فكانت الحاجة أشدَ إلى أن يبرز من علماء الدِّين الإسلامي من
يحمل في منهج دعوتهم وتربيتهم قوة إقناعٍ للطائفتين ، وهي الفكرة التي تبنتها
ندوة العلماء في شبه القارة الهندية منذ قرن ، وعملت لها عن طريق أبنائها،
فاستطاع عددٌ من علمائها إقناع الطائفتين من المسلمين ، والتأثير

أصبح بذلك الشيخ يوسف القرضاوي علماً من أعلام الإسلام ، وكانت قد
أحكمته التجارب ، وحصَنته براعته في العلم والمعرفة ، وأعدَته إعداداً كاملاً
لممارسته لأعمال الدعوة والتوعية لزمن طويل وفي مختلف الظروف
والأحوال ، وهو بجنب كل ذلك عالم تقيٌّ ، صالكع ، محتسبٌ في أعماله رضا
اللّه تعالى في عهدٍ تخلب عيون العاملين في أوساط الناس بهرجة الحياة
المعاصرة ، وتسرق ضمائرَ العاملين في المجتمعات زهرة الجاه والمال ،
فالشيخ بذلك كفه اليوم قو! للدعوة الإسلامية والتربية والتوعية ، يستنير بفكره
المسلمون على اختلاف البلدان واختلاف طبقات الناس ، وقد بلغ السبعين من
عمر 5 ، فهو ثروب! إسلامية كبيرةٌ .
لقد التقيت بالشيخ يوسف القرضاوي في مصر ، وكان في ذلك الحين
طالباً في كلية الشريعة في الأزهر الشريف ، وكانت زيارتي قد جاءت بعد
استشهاد الإمام حسن البنا ، فكانت قلوب أتباعه ومحبيه تشعر بفقدانه شعوراً
قوياً ، فالتفت إلى شخصي الضعيف طائفة من شباب الإخوان لما لمسو 5 فيَّ
من تقاربٍ فكريّ وديني للتوعية الإسلامية ، وإصلاح المجتمع الإسلاميِّ،
وأحسنوا بي الظن ، فقد كان كتابي : " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"
قد وصل إليهم ، ونال منهم الرضا والقبولى ، فاتصلوا بى ،

لتربيته وتوعيته مثل الشيخ القرضاوي وزملائه ، ولقد حافظ الشيخ على حئه
لشخصي الضعيف ، وأبدى دائماً تقديره لجهودي القاصرة ، وأعمالي الصغيرة ، وكان سلوكه معي كصغيرٍ مع كبير ، ولعل ذلك لأني أكبره سناً بثلاثة عشر عاماً ، فادعو اللّه تعالى له ولي ولجميع الخادمين للإسلام ، والمسلمين بالتوفيق والقبول ، وله المئة والفضل ، وله الحمد والشكر أولًا
وأخيراً.

ا،سقاثض محمر ناظي
الفرو؟

إن الكتابة عن صديق حميم وزميل قديم - قضى معه الكاتب شطراً من
العمر من أهنا أوقات الحياة ، وأطيبها وأصفاها - أو إبداء انطباعات عن أدبه
وشعره ، محنة كبيرة للكاتب ، فإنه تتمثل له الصور ، وتنثال عليه الذكريات ،
وتتجدَد له الأحزان ، والأفراح ، يحار بينها الكاتب ويقف مشدوهاً مغلوباً على
أمره ، كيف يتغفَب عليها ، وكيف يشق الطريق من بينها ، وكيف يمسك عنان
القلم فلايرخيه ، ولا يرسل النفس على سجيتها ، وينشد بيت الشاعر
الحماسي:
وأذكر أيامَ الحِمى ثم أنثني على كبدي من خشيةٍ أن تصدعا
كنا ثلاثة أصدقاء ، زملاء في الثلاثينات الأولى من هذا القرن الميلادي في
ندوة العلماء " بلكهنؤ " ، معروفين بهيامهم باللغة العربية وآَدابها ، يشار إليهم
بالبَنان وقد ينظر إليهم شزراً لمغالاتهم في حبها وتفانيهم في الانتصار لها

(1) صدر الكتاب في كراتشي.
() وهو المشهور بالأستاذ مسعود الندوي رئي! مجلة "

البلاغة ، وتضلعه من اللغة العربية ، ومفرداتها وتعبيراتها ، وبحفظه للشعر
الجاهلي والإسلامي.
وكان ثالث ثلاثة في الجماعة ، وأزجاهم بضاعة كاتب هذه السطور ،
وكلهم من الطليعة الأدبية ، أو الكتيبة العربية التي أكملت دراستها الأدبية،
وهذبت ورقت ذوقها العربي في (مدرسة) العلاّمة الدكتور (محمد تقي الدين
الهلالي) المراكشي ، الذي رأس قسم اللغة العربية وآدابها في دار العلوم
لندوة العلماء سنة 331 اهـ(934 ام) ، فكان الأستاذ مسعود عالم الندوي
- الذي يعرفه قُرَّاء العربية ، ب (مسعود الندوي)- قد تخرَج بدار العلوم قبل
أن يغدو الاشتاذ الهلالي إليها ، إلا أنه انتهز فرصة وجوده في هذه الدار ،
فاغترف من بحر علمه ، ونهل وعَل من معينه الصافي ، أما الأستاذ محمد
ناظم وكاتب هذه السطور ، فقد كانا زميلين مترافقين في الدراسة ، ثم في
التدريس ، فالكتابة في مجلة " الضياء " ، فالمساهمة في النوادي الأدبية
الطلابية ففي السكنى ، والخروج في الرحلات والجولات الدعوية
والاستطلاعية ، وكان كما قال الشاعر:
وكنا كغصْنَي بانة قد تأنفا على دوحةٍ حتى استطالا وأينعا
حتى تشتَّت هذا الشمل وانفرط هذا العِقْد في سنة 947 ام ، وانتفل
الأستاذ محمد ناظم إلى باكستان .

لكل مناسبة وعند قدوم كل ضيف محتفى به قصيدة رنانة.
وقد اطلعت على سبيل المصادفة على قِطَع شعرية للأستاذ محمد ناظم،
واخذت منه قصيدة قالها في القلم ، وكان من خبرها أن أستاذنا العلاّمة
(السيد
سليمان الندوي) ، رحمه اللّه ، أهدى إليه قلماً ، ففاض قلبه بالشكر
والامتنان
على هدية قلم يهديها أكبر كاتب إسلامي في شبه القارة الهندية ، ومن
أكبر
الكتَّاب والمؤلفين في عصره ، فكانت خير هدية من خير مُهْدٍ ، وجاشت
قريحته بشعرٍ بليغ يصدر من أديب يعرف قيمة القلم ، ويحسن استخدامه
في
النثر والنظم ، واقتبست هذه القصيدة لكتابي " القراءة الراشدة " ، الذي
كنت
أيامها مشغولًا في تأليفه ، ولعل كثيرا من أصدقائه لم يعرفوا أنه شاعر إلا

تفري الأمور بحدِّه ولمجده يعنو الزمن
يرقى اللديغ بنفثه فيهب يمشي من وسن
يسقي الجديب بنبعه فإذا به روض أغن
سيفٌ صقيل في الوغى موتٌ ذريع بالرسن
وحصلت على مجموعة شعره قريباً ، فتجوَّلت في أصناف من
الشعر لم
أكن قد اطلعت عليها قبل هذا ، ولاحظت أنَّ ملكته الشعرية قد
نضجت وترفت
مع الزمن ، قرأت له قصيدة في وصف (تابم محل) ، تلك
الدرة اليتيمة في
الفن المعماري ، وقد ظهرت فيه قدرته على الوصف ، وقرأت
له قصيدة في
مدح المجاهدين الفلسطينيين ، فأعجبت بقدرته على وصف
الحرب ، واختيار
الكلمات المناسبة لها ، وقد تجلَّت فيها جزالة القديم ، وتضلّع
من الأدب
العربي ، وتأثَّر بالشعر العربي والوصفي في العهد العباسي.

هي الحزن والسلوان والداء والشفا وتوحي إلي الشعر كالزهرات
هي الروح والريحان والهمُّ والأسى ومنها يفيض الشعر كالقبسات
وقد ظهرت قدرته على القوافي في قصيدته التائية في وصف روضة، يقول في اخرها:
لعلَّ نجوم الفلك لم ترضَ أن ترى مثيلاً لها بالأرض في لمعات
فاوحت إلى أخت لها في سمائها لترسل عليها الضوء باللفحات
فكانت كما شاءت وزال بهاؤها وجفتَ بها ما كان من قطرات
وظهرت الواقعية في وصف رجل الفرن العشرين ما له وما عليه في قصيدة
طويلة فيها خمسة وثلاثين بيتاً ، والاستعراض التاريخي في قصيدة عن أخلاق
اليهود وفيها اربعون بيتاً ، وفي وصف الحضارة الغربية وإنكار الوجودية.
وظهرت حميته الدينية في رثاءَ الملك فيصل بن عبد العزيز الشهيد رحمه الله ، رائد التضامن الإسلامي ، والملك العاقل البعيد النظر ، المحتضن
للقضايا الإسلامية في العالم الإسلامي ، وفي التغني بالجهاد الفلسطيني، وبطولة المجاهدين المغامرين ، وقد نبع كل هذا الشعر عن عاطفة إسلامية قوية
وحمية دينية.
اما بعد فإني لم أقل شيئاً عن صديقي الحبيب وزميلي الأريب ، الأستاذ محمد ناظم الندوي ، فالوقت ضيق ، والفكر مشغول ، والقلبُ جريح، والأحداث التي وقعت قريباً في الشرق العربي ، وفي شبه القارة الهندية تشغل
القلب ، وتصرف القلم ، ومعذرةَ إلى الأستاذ محمد ناظم الندوي ، وإلى شعر 5 وادبه ، وإلى القلب الذي أحثه واعترف بفضله.

فيرللع المو!ولمحات

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة